د. محمد بن أحمد ابن شقرون

مظاهر الثقافة المغربية

دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني

توزيع



دار الثقافة

32 – 34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 30.23.75 / 30.76.44
ص ب. 4038 الدار البيضاء المغرب


مظاهر الثقافة المغربية
دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني



كلمة شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل الى العلامة الاستاذ الكبير السيد علال الفاسي الذى كثيرا ما شجعنى وأفادنى بنصائحه العلمية والى معالى وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلى الاستاذ السيد محمد الفاسى الذى استفدت كثيرا من أبحاثه المتعددة فى ميدان التاريخ والثقافة .

كما اعترف بالاستفادة الكبيرة التى حصلت عليها من ابحاث العلامة فضيلة الاستاذ السيد عبد الله كنون ومن توجيهات الخبير فى شؤون المخطوطات الاستاذ السيد ابراهيم الكتانى ومن المعونة التى قدمها الى الاستاذ السيد عبد الله الرجراجى ومساعدوه ، فالى هؤلاء والى جميع من رجعت اليهم فى هذا البحث اجزى شكرى والسلام .

كـلـمـــة

أنجز هذا البحث سنة 1965 .

أما العنوان الـذى اخترناه له فهـو مظاهر الثقافة المغربية وقد بدأنـــا بهـذه المرحلـة للتعريـف بالبيئـة المغربية من الناحية الادبية فى حقبة معينة مـن تاريخ المغـرب تاركيـن دراسة المظاهر الاخرى لنقوم بها على حدة فى بحث مستقل .

وقد قمنا بالفعل بانجاز المرحلة الثانية تحت عنوان : البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية فى عهد بنى مرين وبنى وطاس .

الا أن ظروفا خاصة اضطرتنـا الى استعمال اللغة الفرنسية لتحرير هذا البحث وتقديمه الى القراء كجزء من كل متكامل مع ما سبقه ومـــا سيلحقه بحول الله ، فالموضوع واحد وان تعددت جوانبه واختلفت مظاهره وتغيرت لغته على أننا سنحاول فى دراسة موسعة مقبلة ان شاء الله ــ تعريب ما فرنسنـاه لتعـم الفائـدة ويتصل البحث بعضه ببعض .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس من شك فى أن التراث الادبى المغربى مفتقر جدا الى جهود كثيرة ومتواصلة لبعثه والعمل على التعريف به في مختلف مجالات نشاطه . ذلك أن الجهود التى بذلت فى هذا الميدان ضئيلة جدا لا تكاد تذكر اذا ما قيست بالابحاث المتنوعة الكثيرة والمؤلفات الضخمة النفيسة التى تناولت الادب العربى فى الشرق بكثير من التدقيق والتحليل .

ونتيجة لذلك ظل ادباؤنا مغمورين ، وظل أدبنا مجهولا فى الاوساط العربية بصفة عامة ، وفى الاوساط الاجنبية بل وحتى فى الاوساط المغربية نفسها التى لا تعرف منه النزر القليل . ومع ذلك فآباؤنا واجدادنا لم يتخلفوا عن الركب الحضاى العام ، ولم يكونوا دون غيرهم معرفة وعلما ، كما لم يكونوا أقل حظا فى هذا التراث

العربي العام الذي ساهموا فيه مساهمة سيطلع القارىء في هذا البحث على مدى أهميتها وفعاليتها .

لذلك رأينا من واجبنا ، خدمة لوطننا واحياء لهذا التراث ان نقوم بمجهود في هذا الباب ، وان نقدم للقارىء هذا المجهود المتواضع كي يطلع على ما كان لنا ـ في فترة معينة من تاريخينا في مختلف مجالات العلم والمعرفة من نشاط ، وعلى ما خلفه ادباؤنا وعلماؤنا من آثار خلدت ذكرهم وأعلت شأنهم وجعلتهم يتبوأون مكانة لا تقل عن مكانة ادباء وعلماء عصرهم .

أما الموضوع الذي اخترناه فهو (مظاهر الثقافة المغربية في عهد بني مرين) .

ولقد وقع اختيارنا عليه نظرا لكون البيئة المغربية عرفت في هذا العصر نشاطا ادبيا ملحوظا اثار اهتمام الباحثين والمؤرخين ، فوصفوه باوصاف كلها تقدير ، واعجاب وتنويه ببني مرين وبادباء وعلماء المغرب الذين عاشوا في عهدهم .

الا أن هذه الاحكام وهذه الاوصاف قليلا ما تتصف بالموضوعية وكثيرا ما تجمل وتعمم بدون اسناد الى حجج كافية وادلة مستمدة من واقع البيئة المغربية التي كانت مجالا لهذا النشاط لذلك رأينا من الضروري أن نخص هذا الموضوع ببحث شامل وان نتوسع فيه قدر الامكان كي نوفيه ما يستحق من العناية والاهتمام ، رائدنا في ذلك الحقيقة

المجردة ، والنزاهة الفكرية واستقصاء العوامل الظاهرة والباطنة التى كانت وراء الظواهر الاجتماعية والثقافية التى ميزت المغرب فى عهد بنى مرين عن المغرب فى عهود سابقة أو لاحقة ، فمجال هذا البحث اذن واضح وزمنه معين ، ومكانه محدود لا يتعدى البيئة المغربية التى تعرف اليوم بالمغرب الاقصى وان تعدها فى بعض الاحيان فما ذلك الا لكوننا أردنا الالمام ببعض العناصر والجوانب التى كانت لها صلة وثيقة بالمغرب آنذاك .

تلك هى غايتنا ، اما وسائل تحقيقها فلم تكن ، فى الواقع سهلة ولا متوفرة لاول وهلة . نظرا لقلة المصادر التى عنيت بالموضوع عناية مباشرة ، ونظرا لتناثر المعلومات الضرورية هنا وهناك ، فى ثنايا كتب الفقه ، والتاريخ ، والادب والنحو ، واللغة وغير ذلك من المصادر التى قد تسلط على موضوعنا بعض الاضواء وتعرض لبعض جوانبه مباشرة أو بصفة غير مباشرة .

فكان لابد اذن ــ رغم جميع الصعوبات التى اعترضت سبيلنا ــ من الوقوف على المصادر المختلفة التى تفيد موضوعنا من قريب أو من بعيد : اعتمدنا على المخطوط منها والمطبوع سواء كان عربيا أو بلغات اجنبية كما استفدنا من مجلات ووثائق مختلفة (يجدها القارىء مفصلة فى اخر هذا البحث) وأجرينا اتصالات مباشرة مع ذوى العلم والاختصاص لتحقيق وضبط التواريخ والامكنة التى بقيت الى الآن آثارا ماثلة للعيان ، أو تحولت الى انقاض بعد ان كانت مساكن لبعض

الشخصيات التي تعرضنا لها في سياق هذا البحث .

ورغم كوننا اثبتنا جل هذه المصادر في المكان المخصص لها ، نرى من المناسب هنا ان نتعرض لبعضها بالذكر لا سيما تلك التي اتخذناها كمرجع اساسي افادنا في كثير من الاحيان في طرق هذا الموضوع :

تاريخ العبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون ، الاحاطة في اخبار غرناطة لابن الخطيب ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس لابن القاضي ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقرى ، الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى للناصري احمد بن خالد السلاوى : روضة النسرين في اخبار دولة بني مرين لابي الوليد اسماعيل ابن الاحمر : المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن ابي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية نشر ابن أبي شنب، بلغة الامنية وقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب نشر ابن تاويت : زهرة الآس في بناء مدينة فاس لابي الحسن الجزنائي ، اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الآثار لمحمد ابن القاسم الانصاري ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ، تاريخ المسلمين باسبانيا لدوزي تاريخ المغرب لهنري طراس ، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن لابن مرزوق ، الخطيب محمد التلمساني (مخطوط الخزانة العامة) الرحلة المغربية للعبدري (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) الذيل والتكملة لابن عبد

الملك المراكشي (مصور الخزانة العامة بالرباط) ملء العيبـــة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة (مخطوط الاسكوريال) لابن رشيد .

هذه بعض المصادر الرئيسية التي اعتمدنا عليها في هذا البحث وهي وان اختلفت من حيث القيمة واتصفت احيانا بعدم الدقة والشمول وتعليل الاخبار التي توردها والاحداث التي تصفها الا أنها في مجملها تتضمن معلومات قيمة استنتجنا منها كثيرا من الحجج والادلة التي بنينا عليها أحكامنا فكانت لنـا بمثابة أعمدة متينة وأسس راسخة استطعنا الوقوف عليها مع اتخاذ الاحتياطات والتحريات الضرورية .

يتضمن هذا البحث اربعة أبواب رئيسية . اختص الاول منها بدراسة البيئة المغربية في عهد بني مرين دراسة تحليلية تعتمد على وصف معطياتها المادية والاجتماعية على الخصوص وتعنى بابراز العوامل الاجتماعية والنفسية التي تفاعلت في تكوينها وتطويرها ، وذلك كي لا يفاجأ القارىء بالمظاهر الادبية والفكرية الناتجة عن هذه البيئة .

أما الباب الثاني فقد تناولنا فيه التعريف بمشاهير الادباء المغاربة الذين تعرضنا لدراستهم وحللنا بعض آثارهم قدر الامكان .

وقد تخلصنا من هذا البحث الى باب آخر خصصناه لدراسة مظاهر الحياة الادبية والثقافية في العهد الذي عنينا به

فكان ضروريا أن نتناول فى باب رابع مظاهر أخرى للحيـــاة الادبية أبرزنا فيها انتاج المغاربة فى ميدان العلوم النقليــة والعقلية .

المؤلـف

بنو مرين ، اصلهم ، الخلاف فى شانهم

يلعب الفرد في المجتمع دورا قد يكون ايجابيا كما قد يكـون سلبيا ، نظرا للعلاقات التى تربط بينهما ، والتفاعل المستمر الذى يطبع وجودهما فى الزمـان والمكان . ذلك ان هذا التفاعل وهذا الارتباط هما الظاهرتان المميزتان للتطـــور الناشىء عنهما والمتجدد حسب قوة وضعف كل منهما ، ونتيجة لذلك ، قد تكون الغلبة للبيئة المادية والاجتماعية التى تتحكم في الفرد الى درجـة معينة تجعل منـه عنصرا منفعلا متلقيا عاداته وسلوكه منها ، بمعنى ان كل ما يصدر عنه من سلوك نفسى واجتماعى آت من التيار الاجتماعى الناشىء عن الاطار الذى يعيش فيه ، كمـا قد تكون الغلبة للفرد بحيث يتحرر من القيود ومن الضغط الاجتماعى ليقوم بـدور فعال خلاق يطبع البيئة بطابع خاص ويجعلها تسير وفقا لارادته ، خاضعة لسلوكه ، فتتحول تحولا وتنقلب انقلابا فتتغير نظمها وتتطور احوالها كل ذلك ما كان ليحدث لولا فرد من افرادها والدور الخطير الذى قام به من اجل تطورها .

وهكذا يستمر الصراع بين البيئة والفرد الى أن يحدث التكيف ويقع الانسجام والتوازن الضرورى لقيام المجتمعات البشرية . واذا كان بعض المؤرخين لا يولون لهذه الظاهرة الاجتماعية اهتماما خاصا ولا يقيمون وزنا لنتائجها ، غايتهم فى ذلك سرد الحوادث وتاريخها ، فان من الضرورى لكل باحث الاستناد اليها ، والعمل على كشف نتائجها فى تفسير الاحداث وتحليل الوقائع التى على ضوئها يمكن أن تفسر الاوضاع

تفسيرا علميا ، بعيدا عن ضجة العاطفة وتحكم العادات وسيطرة الحالات النفسية والذهنية ، سواء في الوصف او المشاهدة او التعليل .

لذلك اصبح من الضروري ، في مثل هذه الدراسات ، التعرف على الفرد الذي يلعب دور العنصر المحرك في البيئة المراد دراستها حتى لا نفاجأ بالتأثير الذي يحدثه في هذه البيئة وبالاتجاهات التي تنتج عن سلوكه فيها كفرد له نفوذ وسلطة .

وهكذا يتطلب البحث الرجوع الى الفرد نفسه ، قبل الانطلاق في الطريق ، لمعرفة ماهيته ، ماضيه وحاضره ، طبيعته ونوع ثقافته والروابط التي تربطه بالبيئة التي دخلها كي يعيش فيها او يحكمها او يسوسها كما هو الشأن بالنسبة لموضوعنا . كل ذلك ضروري ومفيد لمعرفة مدى قوته وضعفه ومدى تكامله أو تناقضه مع المجتمع الذي ينطلع الى تسييره . فالنتائج التي يسجلها في الميادين الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة به أشد الارتباط وخاضعة حتميا والى درجة ما لشخصيته وسلوكه . كم من مجتمع تغيرت أحواله وتطورت انظمته نتيجة سلطة قوية حازمة حكيمة أخذت بزمام أمره ، فقادته نحو الرقي والازدهار ، وكم من مجتمع اصابه التخلف والانحطاط وحلت به مصائب كادت تقضي على كيانه نظرا لضعف الشخصية التي استبدت بامره وتحكمت في مصيره .

ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا ان التعريف ببني مرين يشكل عنصرا اساسيا في هذا البحث ويلقي كثيرا من الضوء على الطريق الذي سنسلكه كما يساعد على الوقوف على كثير من العوامل التي كانت وراء ظواهر برزت وأخرى اندثرت في هذا العصر .

لقد تضاربت الاقوال حول بني مرين واختلفت الآراء حول اصلهم ونسبهم ، وكثرت النظريات وتشعبت الاحكام ، فكان من المؤرخين من ارجع نسبهم الى البربر وكان منهم من أكد عروبتهم كما كان منهم من ادعى أنهم أوربيون كسائر القبائل البربرية ، الا ان هذه الاحكام لم تكن ، في جملتها ، مبنية على أسس علمية وحجج موضوعية ، مستمدة من التاريخ نفسه ومن الواقع الاجتماعي الذي عاشته البيئة المغربية عبر العصور : فتحيز البعض لعنصر كان قويا في ظروف معينة وتاثر البعض الاخر بعاطفه دينيه او عنصريه لما اكتفى عدد كبير من المؤرخين بالرواية والنقل المجرد . مع ان القضية ذات أهمية عظمى من الوجهة التاريخية المحضة ومن الناحية الاجتماعية ايضا . واذا كنا لا نريد الخوض في هذا الميدان الشائك الذي ظل الى اليوم مستعصيا على كثير من العلماء المختصين ، نظرا لقلة المصادر التي يمكن الاعتماد عليها وكثرة الاساطير المتعلقة بالاجناس التي سكنت العالم في العصور السحيقة ، فاننا كذلك لا نريد أن نمر ساكتين عن أهم ما جاء في هذا الموضوع من نظريات وبدون ابداء موقفنا منها .

نظريـة ابن خلـدون :

أهم ما جاء في هذا الباب ، في نظرنا ، هو ما ما رواه ابن خلدون عن البربر وعن نسبهم وتاريخهم بصفة عامة . ذلك أن معظم المؤرخين عربا كانوا أو مستشرقين استندوا اليه واعتمدوا عليه اعتمادا يكاد يكون كليا عند البعض ، فأتوا بحججه وأدلته ونقلوا ما جاء في مقدمته وتاريخه تأييدا لقولهم واستشهادا لروايتهم فكان ما قالوه هو في غالب الاحيان ما قاله ابن خلدون قبلهم عن البربر عامة وعن زناتة خاصة مع شيء من التفصيل والتعليق في بعض الاحيان .

يستخلص مما جاء في مقدمة ابن خلدون وتاريخه ان البربر كلهم يرجعون في نسبهم الى فرعين رئيسيين تفرعت عنهما شعب وبطون كثيرة : فرع البرانس ، وفرع مادغيش او البتر . الى الفرع الاول تنتسب قبائل صنهاجة وكتامة ومصمودة ولمتونة وغيرها من القبائل التى سكنت ما يسمى اليوم بالمغرب العربي ونقاسمت أطرافه في موطنها كما لعبت دورا اساسيا في تاريخه السياسي وحياته الاجتماعية أما قبائل مادعيش أو البتر فتتمثل على الخصوص في قبائل زناتة المتفرعة الى مغراوة وبني يفرن وبني مرين وبني عبد الواد وغيرها . هذا هو التقسيم الاول الذي اعطاه ابن خلدون للبربر او بعبارة أخرى سكان افريقيا الشمالية في عهده أي في القرن الرابع عشر ، وهو تقسيم ازدواجي مقصود عند ابن خلدون مبنى على طرفي نقيض كما جاء في تاريخه . ذلك ان جميع قبائل البتر أي قبائل زناتة تتعارض مع البرانس في المسكن وفي أسلوب العيش وفي كثير من العادات والسلوك . بل عرف الفرعان الكبيران بكثير من التنافر والتناحر ، والعداوة المكينة مدى العصور وعبر المجتمعات التى وجدت فيها هذه القبائل جنبا الى جنب . عرفت القبائل الاولى في معظمها بنوع من حياة الاستقرار والتشبث بالمسكن وتعاطي الفلاحة والاهتمام ببناء الدور ، بينما اشتهرت قبائل الفرع الثاني بحياتها البدوية والقائمة على التنقل والترحل الدورى من مكان الى آخر ، بحثا عن الرزق وسعيا وراء ايجاد كلا للماشية اينما وجد الخصب وحيثما ظهرت المراعى والمياه ، مهما كانت الظروف ولو ادى الامر الى التسلط على الغير والسطو على ممتلكاته ومزروعاته . وبذلك قوى الصراع واشتـــدت العداوة والبغضاء بين الطرفين المتصارعين اللذين ظل كل منهما يكيد للآخر ويتربص بـــه عساه يقضي عليه نهائيا ، ولو ادى الامر الى التحالف مع عدو مؤقت او مع اجنبي كما حدث لقبائل زناتة عند ما تحالفت مع بني امية في الاندلس .

والذى يهمنا هنا في نظرية ابن خلدون ان قبائل بني مرين قبـــائل بربرية ترجع في نسبها الى قبائل زناتة المشهورة وانها بانتمائها الى هذه القبائل تشكل عنصرا من العناصر التى ناصبت العداء الدائم لقبائل مصمودة وصنهاجة وغيرها من فروع البرانس ويؤكد ابن خلدون بربرية هذين العنصرين من سكـــان المغرب في عهده بتقسيم آخر جعل فيه البربر ثلاثة أقسام رئيسية : صنهاجة ، زناتـة ،

مصمودة ، اى القبائل التى لعبت فى المغرب دورا رئيسيا في حيــاته السياسية والاجتماعية الا أننا نراه ، وهذا مهم بالنسبة لموضوعنا ، يخص قبائل زنــاتة بعناية كبيرة ويدرسها فى تاريخه دراسة طويلة مركزة ، الشيء الذى لم تحظ به القبائل الاخرى التى تتدرج تحت لواء البرانس ، لماذا اذن هــذه الاهمية وهذه العنايه ؟ هل كان ذلك لغاية مادية او سياسية يرمى اليها من تاريخه الطويل ؟ كما أكده كوتيى فى تاريخه «ماضى افريقيا»(1) نظرا لكون الدولة القائمة فى عصره هى دولة بنى مرين وهى من زناتة ؟ نحن نعلم ان ابن خلدون كان كثير المطامــع والشهوات ، ميالا الى العز والجاه داهية في خلق الاسباب للتقرب من ذوى النفوذ عارفا بخبايا الاحداث وبدقائق الامور متحينا الفرص ، متقلبا فى سلوكه لنيــل مراده وتحقيق أهدافه الكبرى والبعيدة ، كل ذلك نعلمه منه ، لكننا لا نظن ان ابن خلدون فى بحثه العلمى ينزل الى هذه الدرجة على حساب استقــامته ونزاهته فى التفكير وموضوعيته فى البحث لما اشتهر به من خصال علمية وخلقيــة يعرفهــا القارىء ، لقد خدم بالفعل البلاط المرينى وسعى فى السيطرة على أهم مناصبه ، لكنه لم يكن من هذا النوع الذى يخدم مصالحه عن طريــق التعلق والتزلف نظرا لكفاءته وثقته فى نفسه واعتزازه بمكانته الاجتماعية ، وقدرتــه العلميــة وشهرته الواسعة التى اجتازت حدود المغرب الى الشرق وغيره .

تلك هى ، باجمال ، نظرية ابن خلدون فى أصل البربر بصفة عامة وقبائــل زناتة بصفة خاصة وهى نظرية تتصف بكثير من الشمول والدقة والايضاح ووفرة المعلومات رغم ما يبدو فيها من تناقض وتطرف فى القول ، ولقد كانت الصراحــة التى إبداها ابن خلدون فى هذا الموضوع سببا لكثير من الانتقادات التى وجهت اليه والحملات التى قامت ضده لاسيما من طرف بعض المحدثين الذين نعتوه بأوصاف جارحة ، واتهموه بتهمة التفرقة بين العرب والبربر تلك التفرقة التى اعتمد عليهــا فى نهاية القرن المنصرم وفى بداية هذا القرن ، كثير ممن «مهدوا الطريق للاستعمار وايدوا خطته فى التفريق بين عناصر السكان للقضاء على القوميــة وردود الفعل الوطنية فابن خلدون فى نظر هؤلاء هو الذى أوحى بهذه الفكرة للمستعمرين وهــو الذى زودهم بسلاح حاد استعملوه للقضاء على وحدة الشعوب المستعمرة !

الا أن ابن خلدون رغم هذا التقسيم لعنصر من سكان المغرب ، الذى أطلــق عليه اسم بربر أورد فى مقدمته(1) استنادا الى ابن حزم أن افريقش ، وهو حميرى من التبابعة انتقل الى أرض المغرب بقبائل عربية كثيرة ، استوطنته واستمرت به منذ عصور سحيقة ، ثم زاد واكد فى تاريخه ان قبائل صنهاجة وكتامة من القبائل

(1) Le passé de l'Afrique du Nord, p. 71.

(1) راجع المقدمة ص ، 127

العربية التى صحبت افريقش هذا من اليمن الى المغرب . وبذلك يلتبس الامر على الباحث فى هذا الميدان ، فى نظرية ابن خلدون عن البربر . هل هم عرب نزحوا من الشرق الى الغرب فمكثوا فيه الى ان جاء الفتح الاسلامى العربى ام هم عنصر قائم بذاته له خصائصه ومميزاته التى يتميز بها عن العنصر العربى الفاتح ؟ فابن خلدون رغم محاولاته الجريئة ومعلوماته الواسعة عن البربر وتاريخهم وأماكن استقرارهم فى أطراف المغرب لم يذهب بعيدا فى هذا الجانب الذى ظل الى اليوم مستعصيا على كثير من العلماء ، ولم يقرر بصفة فسيولوجية وعلمية أن البربر يشكلون عنصرا من حيث العرف او هم عناصر يختلفون عن العرب من الناحية اللغوية فقط . بل ظل يتحدث عن البربر كعنصر قوى فى البلاد له عاداته وتقاليده ، ويختلف عن العنصر العربى فى كثير من السمات والصفات .

عروبة بنى مرين

ترجع عروبة بنى مرين الى النظرية القائلة بعروبة البربر عموما ، وهى نظرية كثير من المؤرخين العرب ولاسيما المحدثين منهم وغير العرب الذين كتبوا فى هذا الموضوع ، اما الاسس التى تنبنى عليها هذه النظرية فهى باجمال :

1) اللغة

2) دخول الكنعانيين الى المغرب قبل الفتح الاسلامى ودخول العرب من اليمن الى افريقيا على يد افريقش .

3) لفظة بربر لا تعنى وجود عرق او سلالة .

4) سهولة اسلام البربر وتعريبهم بصفة سريعة .

5) تاثرهم بالحضارة الفينيقية تاثرا عميقا وعدم تاثرهم بالحضارة الرومانية المسيحية .

تعتبر اللغة من المقومات الرئيسية لقومية ما ، فكثيرا ما اعتمد عليها المؤرخون كمقياس يعرف به مدى تشبث شعب بقوميته أو انسلاخه عن هذه القومية واندماجه فى قومية أخرى تغلبت عليه بالقوة أو بالتاثير الحضارى العالى الذى تتوفر عليه هذه الحضارة الغالبة ، وهذه حقيقة اجتماعية اثبتها التاريخ حيث رأينا شعوبا كانت تتوفر على لغة قديمة ففقدتها أو كادت بفعل التاثير الاجنبى المقصود أو غير المقصود . أما البربر فكانوا يتحدثون بلهجة بل بلهجات مختلفة متميزة عن لغة العرب الا أن هذه اللهجات كلها رغم اختلافها ورغم خصائصها حوت كثيرا من الالفاظ العربية ، كما اشتملت على كثير من ادوات النحو والمخارج الحروفية التى نجدها فى اللغة العربية ، وهكذا نجد أسماء كثيرة فى ميادين مختلفة فى حياة الاسرة او فى مرافق

أخرى تكتسي طابعا حيويا ، نجدها مستعملة عند العرب وعند البربر بنفس المعنى : فالموت والحياة ، والبيت والدم والباب والساقية وغيرها من الالفاظ الكثيرة التي لا يمكن حصرها هنا يستعملها العرب كما يستعملها البربر على حد سواء أو بشيء من التحريف ناتج عن عوامل بيئية محضة أو حركات هجرية ، أهم من هذا ان الشلحيين ينطقون بحرف الضاد كما ينطق به العرب انفسهم رغم انفراد اللغة العربية بهذا الحرف . هناك ظواهر أخرى مشتركة لا يمكن ان نقف عندها هناك لتعددها وحاجة الباحث فيها الى تحليلها باظهار مصادرها والعلاقات التي تربطها بغيرها من الالفاظ وادوات النحو التي تنطوي عليها اللغة العربية ، الا أنه من الممكن ان نشير هنا في هذه المناسبة الى البحث القيم الذي نشر في مجلة اللسان العربي للاستاذ السوسي المختار حول تاثير اللغة العربية في اللهجة الشلحية(1)فالاستاذ المختار كما يدل عليه نسبه هو من أهل سوس ، قبائل بربرية تسكن منطقة من المناطق المغربية النائية ، اديب مغربي مشهور وفقيه لغوي كرس حياته على دراسة وتدريس اللغة العربية كما اهتم خصوصا بتاريخ اقليم سوس (2) وعلمائه وادبائه ومشاهير رجاله ولقد أبرز في هذا البحث وجوه الشبه بين اللغة العربية والشلحية وسرد أسماء كثيرة وعبارات متعددة تحدث عن اصلها وتطورها وما لحقها من تحريف ثم أرجعها الى مصدرها الاصلي وهو اللغة العربية ، ومما يزيد البحث قيمة ان الاستاذ المذكور خرج بنتيجة أخرى وهي أن الشلحية في سوس وغيرها من قبائل البربر تستعمل كلمات قديمة سبقت الفتح الاسلامي ، الشيء الذي يثبت في نظره مصدرا واحدا لها وهو اللغة العربية كما يثبت وجود العرب قبل الفتح الاسلامي بقرون . ويستدل كذلك على عروبة البربر ان لفظة «بربر» التي اطلقت على هذا العنصر من السكان المغاربة لا يقصد بها العرق وانما اطلقت كوصف تطور مفهومه مع الاحداث ذلك ان «بربر» في الاصل كلمة يونانية ، حسب كثير من المصادر ، تعني كل من كان يتكلم بغير لغة اليونان ثم اصبحت تعني عند الرومان جميع الشعوب التي كانت دون حضارتهم ، بل كانوا يعنون بها الشعوب البدائية التي لا حظ لها «من الحضارة» أما العرب فقد استعملوا كلمة بربر بمعنى اختلاط الاصوات واضطراب الالفاظ او غموض مفهومها فالكلمة معناها اذن تحريف واختلاف في الكلام والتباس فيه بل عدم مطابقته لكلام العرب .

وينسب بعض المؤرخين افريقش قوله لما سمع العرب يتكلمون بافريقيا ، «وما أكثر بربرتهم» ثم قوله في شعر :

«بربرت كنعان لما سقتها من أراضي الضنك للعيش الخصيب»(3)

---

(1) «تاثير العربية في اللغة الشلحية» مجلة اللسان العربي سنة 1965 عدد 2 ص 32 .

(2) له سوس العالمة في 21 ج وايليغ قديما وحديثا ...

(3) العبر ج 1 ص 111

وهكذا يتضح ان المسالة في « بربر » مسالة لغوية محضة لا صلة لها بالعرق او بالجنس ، ذلك ان البربر هم عناصر من السكان يتحدثون بلهجة خاصة تختلف في قليل او كثير عن لغة العرب . فالبربرى اذن ، حسب ما اوردناه ، يمكن ان يكون عربيا تبربر أو ان صح التعبير متبربر تعرب ولكن أصيبت بتحريفات وتغييرات سطحية او جذرية ، بحكم البيئة او عوامل اجتماعية معينة .

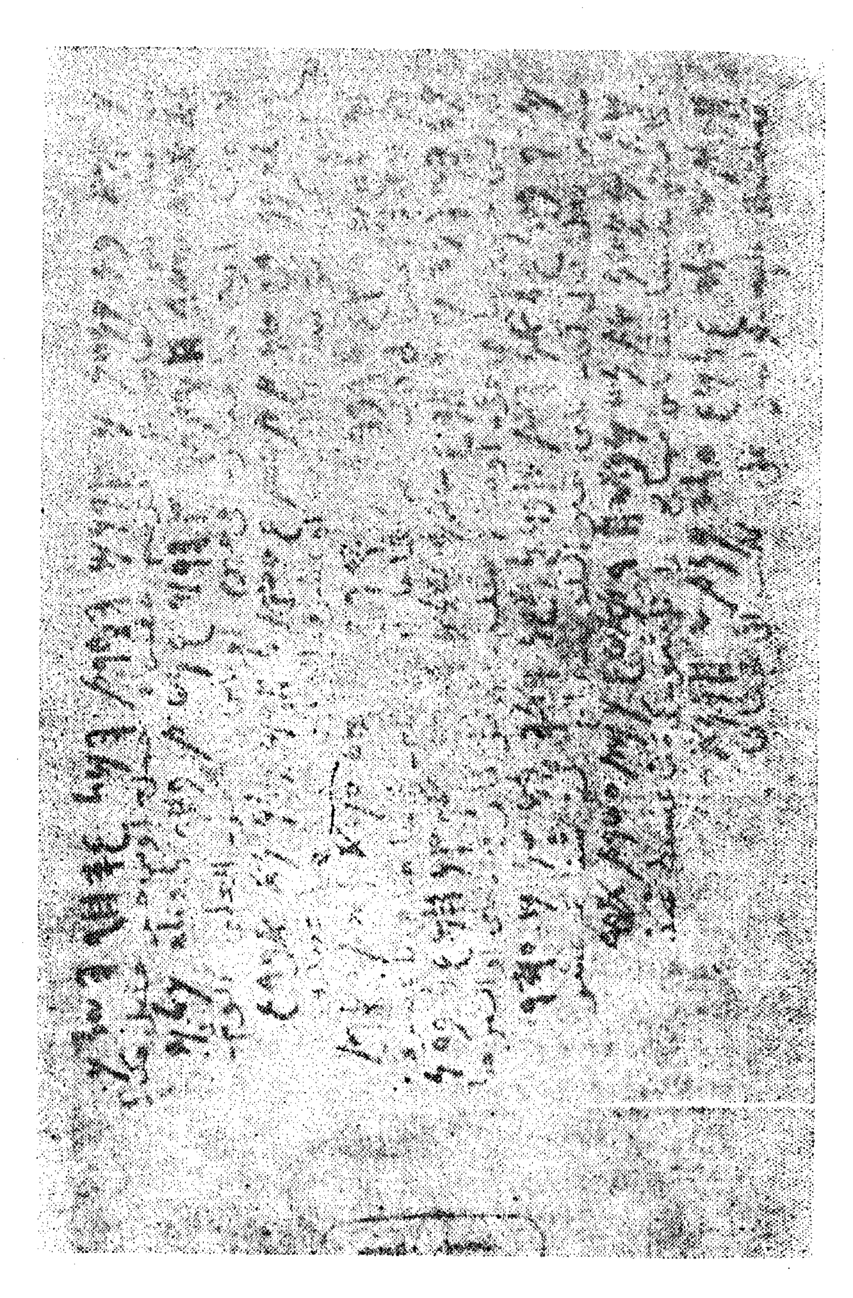
ثم هناك نتيجة اخرى يستشهد بها انصار عروبة البربر ، وهي دخول العرب من اليمن الى المغرب على يد افريقش ، ثم دخول الكنعانيين بعدهم يوم فتحوا المغرب قبل الاسلام ، بل قبل الميلاد ، وقد كان للفنيقيين في المغرب اثر كبير في سكانه ، كما اكده كثير من المؤرخين العرب وغير العرب . لم يترك الرومان في هذا البلد أثرا . (أو الا أثرا ضعيفا سرعان ما اندرس وزال بزوال سلطتهم الرسمية) والسر في ذلك راجع الى أن الفينيقيين ، كما اثبتته الحفريات (1) كانوا يتحدثون بلغة عربية في جوهرها ، بل قريبة من اللغة العامية المنتشرة في افريقيا الشمالية .

فاذا كان سكان المغرب لم يأخذوا شيئا من الحضارة الرومانية ، رغم سيطرتها وتفوقها ، فهم قداخذوا عن حضارة الفنيقيين الشيء الكثير وانسجموا معهم في كثير من الظواهر لاسيما اللغة . وما هذا الانسجام وهذا التفاعل بين العنصرين في نظر الكثير ، الا دليل على تقارب المنبعين ووحدة الاروميتين .

واذا صحت هذه النظرية ، فبنو مرين كسائر القبائل الاخرى عرب رغم تحدثهم بلهجة خاصة ورغم وجودهم بمناطق المغرب العربي قبل الفتح الاسلامي ، بل هناك من المؤرخين من خصهم بهذه الصفة دون غيرهم ، وأكد عروبتهم من بين البربر ، وابن خلدون نفسه ، كما سبق ان اشرنا الى ذلك ، لاحظ في عصره أن قبائل زناتة بصفة عامة تشترك مع العرب في كثير من الصفات والاخلاق واساليب العيش لا سيما أهل البدو منهم على أن ابن الاحمر صاحب « روضة النسرين » وهو من معاصرى الدولة المرينية ومؤرخيها أكد في روضته ان « زناتة كلها عربية الاصل ، من مضر ، يجتمع نسبهم بنسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذاته وهم من بر ابن قيس ابن عيلان ابن مضر بن نزار ابن معاد بن عدنان وبر بن قيس بن عيلان جد زناتة عربي ليس بربريا سكن مع أخواله من البربر ، وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما ولاها من بلاد الشام ومصر ، ويجاورون العرب في المساكن والمراعى ، وتزوج بر بن قيس فولدت له زوجته مادغيش وعلوان ، فاما علوان ، فمات وهو صغير السن ، واما مدغيش فكان يلقب بالابتر وهو ابو البتر من زناتة» . هذا هو قول اسماعيل ابن الاحمر في عروبة زناتة أي عروبة بني مرين ،

---

1) لقد وجد الدكتور البرازلي الاديرلونتو رخامة تدل على ما ذهبنا اليه . انظر اللسان العربي 2\1963 ص



1) صورة الرخامة التى وجدها الدكتور البرازلى الادير لونيتو اخذناها عن مجلة اللسان العربى (عدد 2 سنة 1965) التى يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى بالرباط .

وهو قول كما نرى يعتمد على مجرد رواية ولا يستند الى حجج مقبولة . فمن الممكن ان يكون ابن الاحمر قال هذا من قبيل المدح لرؤساء الدولة الحاكمة لما عرف عنه من تحبب وتودد ورمى خصومه بني عبد الواد باقبح الصفات وابشع النعوت وهو معروف بذلك التحيز السافر ويعترف به صراحة في كتابه «روضة النسرين» حيث خصص القسم الثاني منه لنشر مثالب ونقائص بنى عبد الواد . ونفس الموقف يلاحظ عند عبد العزيز الملزوزى(1) في أرجوزته (نضم السلوك) حيث وقف من بنى مرين نفس الموقف الذى وقفه نحوهم ابن الاحمر ، لقد نسبهم هو الآخر الى العروبة وتأسف على التحريف الذى أصيب به كلامهم من ذلك قوله (2) :

فجـــاورت زناتـة البرابـرا	فصيروا كلامهم كما تـرى
ما بدل الدهر سوى اقوالهـم	ولم يبدل مقتضى احوالهـــم
بل فعلهم اربى على فعل العرب	فى الحال والصواب ثم في الادب
فانظر كلام العرب قد تبـــدلا	وحالهـم عـن حالـه تحـولا
كذاك كانت قبلهـــم مريـــن	كلامهم كالدر اذ تبـــين
اتخذوا ســـواهم خليـــلا	فبدلـــوا كلامهم تبديـــلا

الـــخ ...

وليس من البعيد أن يكون الملزوزى متأثرا فى كلامه هذا كاسماعيل ابن الاحمر بقوة ونفوذ رؤسائه بنى مرين اذ كان أحد السفراء الملازمين لهم . والانتساب الى العروبة أصبح بعد الفتح الاسلامى مفخرة المستعربين ، وعــزة للذين اقبلـــوا على الاسلام نظرا لكون اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة السنة والحديث ، ولكـــون العرب هم الذين قاموا بالفتوحات الاسلامية ونشر الاسلام اينما حلوا ، فلا غرابة ان يصبح الانتساب اليهم والاندماج فيهم وحمل رايتهم موضوعا من مواضيع الفخر ، ومعنى من معانى المدح والثناء . والتاريخ يحدثنا فى هذا الموضوع عن كثير من الشخصيات المغربية التى بعد اندماجها فى دائرة العروبـــة والاسلام ، اصبحت تتنكر لاصلها وتبحث لها عن اصل عربى صحيح ، ولا غــــرابة ان يكون ما قاله اسماعيل ابن الاحمر وعبد العزيز الملزوزى من هذا القبيل .

ذلك ما قيل عن البربر عامة وعن بنى مرين خاصة ، وسواء صحت تلـــك النظريات أم لم تصح ، فدوافع المغربى ، أى المجال الذى كان مسرحا لانفعالات بنى مرين وعواطفهم وافكارهم واعمالهم ، هذا الواقع الذى شاركـــوا فى صنعه ، وبذلوا فيه قصارى جهودهم ، جعلنا نميل فى غير تأكيد الى عروبتهم أو على الاقل

---

1) انظر ترجمته فى الفصل المقبل الخاص بمشاهير ادباء هذا العصر .

2) انظر ارجوزته «نظم السلوك» مطبوعـات القصر الملكى بالربـــاط . المطبعة الملكيـــة بالرباط . 1963

تصرح بالصبغة العربية الشديدة التي اكتسبوها في البيئة المغربية وفي الزمن الذي سيطروا فيه عليها .

واذا كان ما قاله ابن خلدون عنهم في اشتراكهم مع العرب في كثير من الصفات كالتنقل وركوب الابل والعيش تحت الخيمة ، اذا كان ذلك لا يكفي لتاكيد عروبتهم ، فان لنا في سلوكهم مظاهر أخرى لا تخلو من ايجابية في هذا المضمار ، فلقد اجمع كثير من المؤرخين الذين كتبوا ووصفوا حياتهم ان بني مرين اكثر القبائل واسرعها اندماجا في العرب وأقواها استعدادا للتكيف والانسجام معهم في حياتهم اليومية في مواقفهم الاجتماعية المختلفة اكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين الذين يطول بنا المقام لو تتبعنا اسماءهم كلهم ، ذلك ما جعل كوتي(1) يتساءل في استغراب عما بقي من قبائل زناتة ويبحث عنها في مختلف مواطنها التي عرفت فيها من قبل فلا يكاد يجد لها اثرا «انه ، يقول ، اندثرت بعد ما كانت قوية وانمحت اعقابها وكانها لم توجد بهذه المناطق الصحراوية والتراب من افريقيا ومن قلب المغرب الاوسط الذي كان مقرا لها » والسبب في ذلك ، كما يقول كوتي ، «انها ذابت وميعت في قبائل عربية مختلفة» وقد لاحظنا بالفعل ونحن نتتبع تطور القبائل البدوية في المغرب (بني هلال وبني سليم) ان بني مرين كانوا اكثر من غيرهم انسجاما مع هؤلاء البدو . لقد تحالفوا معهم وقربوهم اليهم وكلفوهم بمناصب خطيرة في الجيش وفي ميادين مختلفة . ولقد سبق لزناتة ان تحالفت مع قبائل اخرى عربية رغم كونها اجنبية على البلاد . وما تلك القبائل الا بنو أمية الذين وجدوا في هذه القبائل خير مناصر لسياستهم ضد الفاطميين المستولين على المغرب ، ثم هناك ظاهرة أخرى بالنسبة لموضوعنا وهي ان بني مرين اتخذوا اللغة العربية لغة رسمية للبلاد في مختلف الميادين خلافا لما كان عليه الامر في زمن عبد المومن حيث ، كما يذكر التاريخ ، كانت تسود الدولة ازدواجية في اللغة : لهجة بربرية ولغة عربية ، وذلك ما لاحظه الاستاذ كنون (2) حيث يقول : «فالواقع ان بني مرين كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها اصلا فخدموا العربية خدمة صادقة ، كفي اننا لم نعد نسمع بعد توليتهم ، الحكم بشيء من التمييز الذي كان عليه البربر في دولة بني عبد المومن بل كان هذا آخر العهد بحيلة التفرقة ، والعنصرية، والواقع ان الاستعراب انتشر في البلاد في زمن بني مرين انتشارا لم يسبق له مثيل حسبما رأينا في التاريخ ، ذلك ان قبائل معروفة ببربريتها وبعدها عن المناطق التي يسكن فيها العرب بكثرة ، استعربت نهائيا حتى أصبح يشك في أصلها وفي نسبها : ونتيجة لذلك ايضا انتشر الشعر العامي في البلاد وكثر متعاطوه ومتذوقوه لشدة تأثرهم باللغة العربية وتعودهم على كثير من كلماتها وعباراتها المتداولة .

---

1) ماضي افريقيا ، ص. 411 .

2) عبد الله كنون «النبوغ المغربي في الادب العربي» (بيروت : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانية الطبعة الثانية 1961) ج 1 ص 183 .

أفليس هذا بكاف للدليل على ما ذهبنا اليه ، وعلى الموقف الذى وقفناه من عروبه بنى مرين ، واذا كنا فى نظر البعض ، قد أطلنا الكلام فى هذه الناحية فما ذلك الا اننا نرى كما أسلفنا ان التعريف بالفرد فى المجتمع (لا سيما بفرد يلعب دورا رئيسيا فى تغيير البيئة وتطويرها) ، امر ضرورى من الناحية الاجتماعية لمعرفة نوع النتائج التى تركها او من الممكن ان يتركها . فبنو مرين بصبغتهم العربية وبصفاتهم البدوية وبأخلاقهم وعاداتهم وحالاتهم النفسية اثروا بكل ذلك فى المجتمع المغربى . أفلا يتأثر الادب بهذه العوامل كلها ؟

الاطار المادى

تلعب البيئة المادية فى حياة الامة دورا مهما وخطيرا فى نفس الوقت سواء أكان الامر يتعلق بالناحية النفسية ام الاجتماعية ام السياسية ، ونتيجة لذلك يصعب على الباحث بل يستحيل عليه أن يتعرف الى شعب ما دون الرجوع الى هذه البيئة التى كثيرا ما تتحكم فى سلوك الافراد المادى والمعنوى وتطبعهم بطابع خاص . ان الصلة لوثيقة بين الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه ، فهما عنصران متفاعلان متكاملان متأثر احدهما بالآخر . فمن التعسف اذن الفصل بينهما والعمل على دراسة كل جانب على حدة ، لذلك نرى من الضرورى الالمام ، ولو بصفة وجيزة ، بمعطيات البيئة المغربية لا سيما فى زمن بنى مرين .

تعاقبت على أرض المغرب منذ وطئتها قدم الاسلام دول اختلفت فى السلوك والاتجاه وتفاوتت فى القوة والضعف حسب الامكانيات والظروف والملابسات المحيطة بها . الا أن المغرب فى هذا العصر بقى محافظا على حدوده الجغرافية وعلى وحدته الترابية منذ حققها له يوسف بن تاشفين ، فلم نعد نرى تلك الاطراف الشاسعة الممتدة الى تونس شرقا والى الاندلس غربا اذ تقلصت الامبراطورية الموحدية وانقسمت على نفسها انقساما كان منه المغرب الاقصى اطارا لبنى مرين والمغرب الاوسط لبنى عبد الواد بينما تسلط على القطر التونسى بنو حفص . وهكذا رجع المغرب الى نفسه ابتداء من قيام دولة بنى مرين عليه ، مستمدا امكانياته من رجاله ومن ترابه ، متفاعلا مع معطياته ، عاملا على تثبيت شخصيته ، رغم طموحه فى التوسع والنشاط اقتداء بأسلافه .

تحده شرقا هضاب وأنجاد تتصل بالقطر الجزائرى وشمالا شاطىء البحر الابيض المتوسط وغربا المحيط الاطلنطكى وجنوبا مراكش والصحراء (×) ويمتاز خصوصا بسلسلة جباله الشاهقة الريفية والاطلسية تلك الجبال التى انطبعت بطابع

× وما وراءها الى اطراف شاسعة .

خاص والتي كان لها أثر فعال عبر القرون في حياتـه الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسية على السواء . جعلت منه شبه مناطق داخلية واخـرى خارجيـة ، لعبت دورا رئيسيا في حياة أفراده وتحكمت الى درجة ما في سلوكهم وتصرفهم المادي والمعنوي فكان منهم تبعا لذلك المتمسك بأرضه المعتصم بها ، المستورد رزقه منها ، كما كان منهم الراحل المتنقل من مكان الى آخر ، الباحث عن طعامه وكـلأ ابله أو غنمه ، لايعرف للاستقرار معنى ولا يجد الى الاكتفاء بامكانياته سبيلا وهكذا كـان سكان جبال الاطلس والريف محتمين بسلاحهم الطبيعي ، مستقرين منعزلين عـن سكان السواحل والسهول الذين سلكوا مسلكا من نوع خاص لـه أثره في سلوك من سكن الانجاد أو المناطق الصحراوية أو الاراضي الساحلية مما أدى بطبيعة الحال وطبيعة هذه المواقع الجغرافية الى تنافر وتصارع ، بل الى فتـن سياسية وهـزات اجتماعية لامجال لذكرها والتفصيل فيها هنا ، كل ذلك كان له أثر قوي وخطير في تطور حياة هذه البيئه التي نتحدث عنها .

ويكفي القارىء مثالا على ذلك أن يرجع الى تاريخ هذه البلاد ليعرف ما لعبـه شمالها من دور في حياتها وما جلبه اليها من مؤثرات خارجية ، وما تسبب فيه من أخطار نظرا لامتداده على البحر الابيض المتوسط وقربه غربا من شاطىء اسبانيا . ألم تكن حياة المغرب مرتبطة الى درجة ما بحياة اسبانيا نظرا لقرب البقعتين ؟ ألـم يكن هذا الارتباط الجغرافي بين العدوتين عاملا من عوامل تفاعل وتكامل الحضارتين الاندلسية والمغربية في زمن معين ؟ الم يترك هذا الاتصال أثرا بقي الى اليوم باديا الى العيان في كل من اسبانيا والمغرب في اللغة ، وفي العادت ، في المباني وفي بعض التنظيمات ؟ وللصحراء المتاخمة لجنوب المغرب وبعض من شرقه دورها كذلك في تطور الاحداث السياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب زمن بني مرين أو عبر عصور أخرى : أطراف شاسعة ممتدة ، شكلت منافذ واسعة تسربت منها الى المغرب عناصر أجنبية مختلفة ، سيطرت عليه وأخضعته لحكمها وتصرفها مدة تطـول أو تقصر حسب اعتبارات زمنية وأخرى مكانية . فمن هذه الابواب دخل المرابطون الذين يرجع لهم الفضل في توحيد تراب المغرب ثم المرينيون أنفسهم الذين ساسوا البـلاد زهاء قرنين ونصف ثم السعديون ثم العلويون الذين يحكمون البلاد منذ سنـــة 1659 ، ولم تكن الحدود الشرقية ولا الغربية بأقل أهمية وخطرا من الحدود الاخرى التي لعبت دورا رئيسيا في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فالحضارة الشرقية الاسلامية خضعت في تنقلها الى المغرب الى هذا العامل ، فتسربت اليه فـي بداية أمره اوقبل أن يشتد الاتصال بالاندلس عن طريق افريقية . اننا هنا لسنـا بصدد بحث موضوع تاريخي أو جغرافي (شرحه وتفصيله) ولكنا لانرى بدا فـي بعض الاحيان ومتى اقتضى البحث ذلك من اللجوء الى حقائـق تاريخيـة واخـرى جغرافية نفسر بها ونستدل على حقائق ادبية تقتضي منا الشرح والتعليل ، ذلك ان الظواهر الاجتماعية كما اثبته علم النفس الحديث وعلم الاجتماع متفاعلة متكاملة

مؤثرة ومتاثرة مهما اختلفت وتنوعت مظاهرها ومهما بدت الشقة بعيدة بين جوانبها. كم من هزة سياسية كان السبب في وقوعها عاملا اجتماعيا أو أدبيا ! كم أزمة اقتصادية لم تنشأ الا عن ظروف اجتماعية محضة أو تصرفات خلقية معينة . ان الظواهر يفسر بعضها البعض الآخر ويعلل جانبها الجانب الآخر . وتبعا لذلك ، لابد في بحث ما من الالمام بها كلها لمعرفة مقدار تأثيرها وتأثرها وتلمس ما ظهر منها وما خفي ، وللتمييز بين الاسباب والمسببات والاصل والفرع تمسكا بالموضوعية واظهارا للحقيقة المجردة .

الاطـار الاجتماعـي

العناصر المكونة للمجتمع المغربي في عهد بني مرين

ـ مميزاتهـا

ـ مـدى اختلافهـا وانسجامها

تكونت البيئة الاجتماعية في هذا العصر من عناصر اختلفت في أصلها ، فـي تكوينها وفي سلوكها النفسي والاجتماعي ، كما اختلفت في قوتها وضعفها ، الشيء الذي أدى حتما الى نتائج معينة لابد لشرحها وتعليلها ، من التعرف الى هذه العناصر ـ لاسيما تلك التي كان لها من قريب أو من بعيد أثر على الحياة الادبية ـ التـي تعايشت جميعها وتفاعلت في اطار واحد وفي زمن واحد .

فالى جانب بني مرين ذوي السلطة الرسمية ، نجد قبائل اخرى لعبت في تكوين المغرب ، وما زالت ، دورا رئيسيا وأثرت في تطور مراحل حياته تأثيـرا خطيـرا . بالاضافة الى قبائل صنهاجة التي شكلت المغرب تشكيلا واعطته شخصية جغرافيـة احتفظ بها عبر العصور نجد قبائل المصامدة التي تكونت منها الدولـة الموحديـة الزائلة ، فرغم كون هذه القبائل كلها بربرية أو على الاصح تتحدث بلغة بربرية الا أنها كانت كثيرة التطاحن والتصارع في الخفاء تارة وفي العلانية مـرة اخرى فالقبائل الموحدية على الخصوص كانت مناوئة مضمرة الشر ، متربصة بالقبائل المتسلطة القائمة على انقاضها ، فالمسألة خلافا لما أكده بعض المؤرخيـن وما نقـل عنهم (1) لاتعدو أن تكون سياسية محضة ومادية صرفة . فهزيمة المصامدة امام قوة بني مرين وانقراض دولتهم رغم ماكان لها من السلطة العالية والنفـوذ القـوى فـي المشرق أو المغرب ، والقضاء على ماكانوا يتمتعون به من مصالح ماديـة واعتبـارات

---

1) هنرى تيراس «تاريخ المغرب» (الدار البيضاء 1951) ج 1 ص. 15-22 .

معنوية ، كل ذلك أدى الى ردود فعل كان لها اثر على الحياة المغربية سواء من الناحية الاجتماعية أو الناحية السياسية ، فالحقد كان حادا والتنافر مستمرا والعداء كامنا شديدا نظرا لحداثة الهزيمة وما كان لها خصوصا من أثر نفسي في قبائل المصامدة .

فالموحدون الى هنا ، وخلافا لبني مرين ، أهل البدو والقوم الرحل ، عرفوا بحياتهم المستقرة وباستيطانهم للجبال وباعتصامهم باماكنهم وبتشبثهم بأرضهم واستغلالها ، الشيء الذي يتطلب العناية المستمرة والمراعاة الدائمة . أليس في هذا النوع من السلوك في الحياة تناقض حاد وخلاف يؤدي حتما الى تصادم له اثره اقتصاديا واجتماعيا وبالتالي أدبيا ؟ ألا ينتظر من هذه الظاهرة الاجتماعية وحدها سلوك خاص في الادب وغيره ؟ أضف الى ذلك أن العناصر المصمودية لازالت تحمل في نفسها وفي ذهنها أثر « العقيدة الجديدة » التي أتى بها المهدي بن تومرت وعمل على ترسيخها في أبناء قبيلته وغيرهم . لقد قام المهدي باصلاح ديني ، أساسه «الطريقة الاشعرية» مجددا ومجتهدا ، عاملا على تطوير مفهوم العقيدة الاسلامية وعدم الركون الى نصوص الشريعة الاسلامية وحدها دون اعمال العقل بينما قام بنو مرين منذ اعتلائهم عرش المغرب بمحاربة هذه « البدعة » والرجوع الى الاصل أي الى المذهب المالكي مذهب أهل السنة ، الذي يتمسك بنصوص القرآن وما ورد في الحديث والابتعاد عن أعمال الرأي والاجتهاد . وبذلك تكون اختلاف من نوع آخر ، اختلاف في المذهب وفي فهم القواعد الاسلامية أو بلغة العصر معارضة مذهبية ان شئنا .

العنصر العربي

منذ الفتح الاسلامي (1) دخلت المغرب فاستوطنته عناصر عربية ، سكنت هنا وهناك حسب اعتبارات مادية واخرى معنوية فاعلة متفاعلة مع العناصر الاخرى التي جاورتها في نفس الاطار . الا أن الهجرة الكبرى حسب مصادر التاريخ ، كانت على يد الفاطميين يوم غادروا المغرب الى الشرق تاركين وراءهم خلفاءهم الذين مالبثوا أن انفصلوا عنهم وشقوا عصا الطاعة معلنين استقلالهم وقيام دويلات تقاسمت المغرب العربي . وكرد فعل ضد هؤلاء العصاة المغاربة بعث الفاطميون الى افريقية قبائل «لا يحصى عددها» من بني هلال ثم من بني سليم(2) احتلت المغرب احتلالا وانتشرت في مختلف نواحيه « كالجراد المنتشر » عابثة بانظمته ، وعاثية فسادا في اراضيه ومدنه وقراه . هؤلاء العرب بل هؤلاء الاعراب قوم بدو أتوا المغرب ولهم

---

1) بل قبل الفتح الاسلامي حسب روايات مختلفة .

2) وغيرهم .

لغتهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم المرعية وسلوك فى حياتهم يختلف عن سلوك الآخرين . الا يحتاج اندماجهم فى البيئة الجديدة الى عملية تكييف نفسية واجتماعية قد تكون صعبة كما قد تطول أو تقصر حسب الظروف والملابسات .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاش منهم بالاضافة الى عرب يعقل عدد كبير فى ظل بنى مرين ، متجاورين مع غيرهم من أبناء المجتمع المغربى منفعلين ومتفاعلين ، بل لعبوا دورا فى الحياة الرسمية وغير الرسمية كما لعبوا دورا فى الحياة الاجتماعية فى هذه البيئة ، ففى الميدان الاول نجدهم يحتلون مناصب مختلفة سواء فى الجيش أو فى الادارة . لقد بوأهم بنو مرين مناصب عالية كان لايتمتع بها الا بنو مرين أنفسهم ، أو عناصر من قبائل زناتة على العموم ، بل أخطر من هذا لقد وجدوا بجانب جنود بنى مرين على رأس الجيش جيش الدولة رغم مايتطلبه هذا الميدان من حذر وثقة واخلاص . لقد علل طراس هذه الثقة التى أولاها بنو مرين لهؤلاء العرب بكون « القبائل المرينية المسيطرة على السلطة القائمة فى المغرب غير متوفرة على العدد الكافى من أبنائها لتشكيل الجيش ولتزويد المخزن بالعناصر الصالحة » ، (1) ولكنه لم يذكر لماذا لجأ بنومرين الى العرب دون سواهم من القبائل الاخرى الموجودة فى المغرب آكان ذلك من قبيل العفوية والصدف أم هو أمر محكم ومدبر ؟ أما نحن فنرى لهذه الثقة أسبابا أخرى منها ما هو اجتماعى ومنها ما هو نفسى . ان بنى مرين(2) عرب كما رجحنا ، بدو ورحل كهؤلاء العرب لهم تقاليد متشابهة وطقوس مماثلة رغم ما ظهر بينهم من اختلاف فى السياسة أو الاجتماع . يدلك على ذلك الانسجام الذى حصل بين الاولين والآخرين اثناء ممارستهم للسلطة والذى لم يسبق ان حصل بينهم وبين غيرهم من صنهاجة أو مصمودة أو عناصر أخرى . ان طراس يؤكد هذا ويكرره بقوله : «لم يتمكن أبدا بنو مرين من الاستغناء عن العرب»(3) .

ولقد كان من نتائج سلوك هؤلاء الاعراب ان انطبعت البيئة المغربية فى هذا العصر بطابع الحياة البدوية بجميع أشكالها وضروبها المختلفة نظرا لما اتصفوا به من كثرة التنقل وعدم الاستقرار . فكانوا بطبيعتهم البدوية يحتلون بقعة من الارض لخصبها ووفرة مياهها ثم سرعان مايغادرونها بعد ان قضوا حاجتهم فيها . وبذلك شجعت الحركة البدوية فى المغرب وتطورت معالمها حتى أصبحت بحكم العدوى والاضطرار قبائل كثيرة عرفت نوعا من الاستقرار تنحو نحوهم وتتخذ طريقهم فى سبيل العيش والملبس والنوم . ولقد تحدث ابن خلدون عن هذه الحركة البدوية واصفا مظاهرها السلبية ومفصلا نتائجها الوخيمة من الناحية العمرانية اذ ، كما يقول فى مقدمته ، « ان كثيرا من القرى والمدن الصغرى انمحت معالمها بل اندثرت

---

1) تاريخ المغرب ج 2 ص 98 .

2) او على الاقل يصطبغون اكثر من غيرهم بصبغة عربية قوية .

3) انظر تاريخه (الدار البيضاء 1951) ج 1 ص 220 .

نهائيا ولم يبق لها أثر منذ ذلك التاريخ نظرا للاتلافات التي الحقها بها هؤلاء الاعراب . »(1) ولقد تأثر ابن خلدون وانفعل حتى أصبح يؤكد أن الديار خربت وان الاحجار نقلت وان الاشجار اقتلعت الى الابد . ولقد نسب ابن خلدون هذه الظاهرة الى العرب بينما الامر يتعلق بقبائل الاعراب البدوية ثم ان هذه القبائل العربية لم تكن هي المسؤولة الوحيدة ، كما أكده ابن خلدون ومن نقل عنه (طراس) عن هذه الظاهرة الاجتماعية ذات الاثر السيء على العمران وعلى الاقتصاد بصفة عامة . ذلك أن قبائل أخرى(2) وخاصة منها قبائل بني مرين وزناتة بصفة عامة شاركت بحكم تكوينها الاجتماعي وتقاليدها البدوية في خلق هذه الظاهرة وانتشارها .

وليس بخاف مالهذا النوع من السلوك في الحياة من أثر بالنسبة للسكان الذين كانوا يعيشون على خلاف ذلك ، حياة الاستقرار والحضر — ولو بصفة نسبية — اذ كان الخلاف شديدا والتعصب قويا بين الطبقتين نظرا لتعارض المصالح واختلاف الامزجة وتناقض الاخلاق والذوق والخسارة التي يلحقها هؤلاء بأولئك ، الشيء الذي تنبه اليه كثير من المؤرخين ، وفي مقدمتهم ابن خلدون ، واعتبروه نوعا من العصبية التي كثيرا ما تنشب في بقع العالم بين أهل البدو وأهل الحضر .

ونتائج هذا كله ان الحياة الاقتصادية تأثرت الى درجة ما بحياة هذا العنصر من السكان الذي سلك هذا السلوك في كسب رزقه واقتناء موارده ، اذ كان من الصعب على البدوي أن يمتهن حرفة أو يتخذ صناعة يتدرب عليها ويتفنن فيها أو يستقر بارض يفلحها ويرعاها ، حتى يستغل ثروتها ، الشيء الذي يتطلب منه الاستقرار والصبر والصمود والبناء والتعمير ، بل عندما تشتد الحاجة يضطر بحكم وضعيته الى التسلط على الغير واغتصاب ممتلكاته وفرض سيطرته عليه ، مما يؤدي الى التفقير والتجويع . ولقد ازدادت الحالة خطورة والازمة شدة بسبب ماكان لهؤلاء الاعراب من نفوذ ومن جاه لدى رؤساء بني مرين الذين ، اتقاء لشرهم ، أو جزاء لهم على خدمتهم ، ما فتئوا يغدقون عليهم من الاراضي المغربية أجودها وأكثرها خصبا ، ومن المناصب أعلاها منزلة بالنسبة للعناصر الاخرى من السكان . وهكذا تمتعوا بنظام الاقطاع الذي كان سائدا في هذا العصر وتصرفوا في كثير من الاراضي تصرف المالك المطلق فارضين على اهلها انواعا شتى من الضرائب والخدمات فكانت النتيجة كذلك أن قل خصب هذه الاراضي وتقهقرت فلاحتها وفتر عمرانها وعم فيها الفساد والظلم نتيجة رد فعل أصحابها .

الا ان البيئة المغربية قد افادت كثيرا من وجود هذه القبائل العربية بين ظهرانيها وانتشارها في كثير من الجهات التي تتفق وطبيعتها . لقد انتشرت

---

1) المقدمة (مصر — المطبعة التجارية الكبرى بدون تاريخ) ص. 149—150 .

1) راجع على الخصوص Marçais (W.), Les Arabes en Berberie ,pp. 162 - 182

العربية بفضلها انتشارا لم يسبق للمغرب أن عرفه من قبل وعمت حركة التعريب كثيرا من القرى والبوادى حتى أصبحت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى البلاد(1) وهي اللغة الرسمية للدولة (2) خلافا لما كان عليه الامر زمن الموحدين او العصر الذى سبقه . وهكذا عربت قبائل كثيرة لم تكن تعرف سوى البربرية بل هناك من القبائل من عربت نهائيا وفقدت بربريتها ، حتى اصبح يشك فى امرها ويستبعد أن تكون بربرية فى بدايتها ، ولقد ساعد على هذه الحركة وتنشيطها ماكان لبنى مرين وهذه القبائل من توافق في الامزجة وتشابه فى الطبع وتقارب فى كثير من العادات والتقاليد وبذلك تظافر الطرفان وتعاونا عن قصد أو غير قصد فى كثير من الاحيان على خلق هذه الظاهرة الاجتماعية التى كان لها كما سنرى اكبر الاثر من الناحية الادبية أو جوانب أخرى مختلفة تمت اليها بصلة(3) .

عنصر الاندلسيين

هناك عنصر آخر من عناصر سكان المغرب لايجب ان نغفل عن ذكره ، نظرا لما قام به من دور وما تركه من أثر في هذه البيئة التى كانت اطارا واحدا لجميع العناصر المختلفة التى تعايشت كلها فيه وتفاعل بعضها مع بعض فكونت وحدة اجتماعية لها طابعها الخاص ومميزاتها الخاصة . والامر يتعلق هنا بعنصر الاندلسيين الذين ترددوا على المغرب او عاشوا فيه حينا أو استقروا فيه نهائيا لاسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . لقد توالت هجرات الاندلسيين على المغرب منذ ارتباط العدوتين الى ان اشتد هذا الارتباط وقوى فى عصر بنى مرين قبل أن يتلاشى وينهار بسقوط دولة بنى نصر(4) . لم نجد فى المصادر الخاصة أو العامة ما يساعد على معرفة نسبة هؤلاء المهاجرين بالضبط ولم نقف على وثيقة تفيد من قريب أو من بعيد في البحث عن أهمية حركتهم ، ولكننا بحكم التاريخ وتطور الاحداث نستطيع أن نؤكد ان الهجرات مهما اختلفت انواعها ومقاصدها ، قد قويت وتلاحقت في زمن قصير ايام المحن ولاسيما بعد سقوط القواعد الاسلامية بالاندلس وقيام مملكة غرناطة التى كانت بمثابة مقدمة للهجرة الكبرى . والذى يهمنا هنا ان قيام غرناطة وافق قيام دولة بنى مرين وان عمر الاولى كان تقريبا هو عمر الاخرى ، اى منذ أوائل القرن السابع للهجرة الى أواخر القرن التاسع وهكذا عاشت الدولتان متحدتين من حيث الزمن ومتقاربتين من حيث المكان . ونتيجة لذلك . اصبحتا

---

1) طراس (تاريخ المغرب الـدار البيضاء 1951) ج 2 صفحة 26 .
2) عبد الله كنون النبوغ ج 1 ص. 183 .
3) لم ان هناك فوائد اخرى من الناحية الاقتصادية لا يتسع المجال لذكرها هنا .
4) سنة 1492 .

وجها لوجه تارة فى تعاون مستمر ضد النصارى وأخرى فى تنافر وتنازع ومرة فى حياد قد يطول أمده أو يقصر . وبذلك امكنهما ان تلعبا دورا مهما فى تاريخ كل من الشعبين وأن تطبعا حياة كل من المجتمعين بطابع خاص تجلت معالمه فى الحياة الاجتماعية كما ظهرت آثاره فى الميادين الاخرى .

واذا تذكرنا أن القواعد الاسلامية المتداعية هنا وهناك والمتساقطة فى يد الاسبان تركت شعبا أوى كله تقريبا أو جله الى غرناطة ، الملجأ الاخير ، حتى ضاق سكانها بهؤلاء المهاجرين وأصبح يعادل 000 600 (1) ، وعلمنا من جهة اخرى الظروف القاسية التى كان يتخبط فيها سكان هذه القاعدة الاخيرة ، أمكننا تقدير مدى ارتباط مصير هؤلاء الاندلسيين بمصير المغاربة ومعرفة اهمية رجالاتهم وتنقلاتهم الى المغرب الذى طالما استنجدوا به هم وأسلافهم ووجدوا فيه فى كثير من الاحايين المساعد الامين والناصر القوى والجندى الباسل .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجدوا فى المغرب فى هذا العصر الذى نؤرخ له وتناثروا هنا وهناك رغم انحصار جلهم فى بعض المدن الرئيسية كفاس وتطوان والرباط وسلا وغيرها من المدن والبوادى والقرى .

وقبل أن نتعرض لصفاتهم وأخلاقهم وما تركوه من أثر فى هذه البيئة المغربية ، يجب أن نعرف قبل كل شيء من هم ؟ مامنبعهم ؟ وما نوع ثقافتهم بصفة عامة ؟

منهم العربى القح الذى نزح من الشام أو غيرها منذ الفتح الاسلامى وحافظ على قيمه ومثله الاخلاقية والاجتماعية عبر العصور (2) ومنهم المولد ، ابن النصارى الذين اعتنقوا الاسلام ، والذين ما زالوا بحكم الوراثة والبيئة التى نشأوا فيها يحملون كثيرا من صفات واخلاق اجدادهم رغم اندماجهم فى المجتمع الاسلامى . ومنهم المدجن الذى عندما غلب على أمره واصيب فى نفسه وذويه ، رضى بالتعايش مع غيره من الاسبان الفاتحين فبقى خاضعا لسيطرة السلطة المسيحية محافظة على أمواله وأمتعته أو لاعتبارات أخرى ، ومنهم النصرانى المعاهد الذى فضل البقاء فى ظل الدول الاسلامية المتساقطة لاسباب مختلفة ، متشبثا بديانته وخلقه وتعصبه خصوصا رغم ماتتمتع به من تسامح دينى واجتماعى ، ورغم ماتظاهر به من محبة واخلاص للمسلمين . ومنهم الموريسكى او العربى المتنصر ، ذلك الذى أرغم على اعتناق الديانة المسيحية والتخلى نهائيا عن جميع مظاهر قوميته والذى رغم الوعيد

---

1) عنان عبد الله ، نهاية الاندلس وتاريخ المغرب المتنصرين القاهرة ، مطبعة مصر 1953 صفحة 35 .

2) لقد ذكر ابن الخطيب فى الاحاطة عددا . القبائل العربية التى استوطنت الاندلس آنظر صفحة 40 (دار المعارف بمصر المجلد الاول بدون تاريخ) .

والتهديد استطاع الالتحاق بالمسلمين فرارا من الاذى ومحافظة على عقيدته(1) ، ومنهم الافريقي البربري الذى كان قد اختار العودة مع الغزاة أو مع غيرهم يعمل جنبا الى جنب مع باقي الاندلسيين المجاهدين(2) .

والواقع أن الامر يتعلق باجناس أو على الاقل ، بعناصر اختلفت فى دياناتها وفى ثقافتها كما اختلفت في اساليب حياتها ونماذج سلوكها رغم البيئة المادية التى كانت اطارا واحدا لتعايشها وتفاعلها ، شعب تكون من هذه العناصر جميعها التى امتزج بعضها في بعض ماديا وفكريا وروحيا فكان منها الاديب والفقيه والتاجر والصانع والفلاح والفنان وغيرهم من طبقات الشعب .

فالآن يحق لنا أن نتساءل عن الاثر الذى تركه هؤلاء الاندلسيون فى المغرب وعن الدور الذى لعبوه في مختلف الميادين الثقافية منها والاجتماعية على الخصوص

لم تحفل مصادر التاريخ كعادتها بهذا النوع من الدراسات نظرا لاهتمام اصحابها بالناحية السياسية والعسكرية على الخصوص ، والاكتفاء فى كثير من الاحيان بالاشارة الى الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وقد يرد شيء من ذلك هنا وهناك ، لكن بصفة عرضية وفي مواضيع متفرقة . لذلك يصطدم الباحث فى هذا الميدان بكثير من العقبات ، قبل أن يصل الى الغاية المنشودة . ونحن ، وان كنا لانريد التفصيل والالمام بجميع الجوانب مراعاة للخطوط التي رسمناها لهذا البحث، الا اننا نرى ضروريا فى هذا الباب أن نقف ولو قليلا عند بعض المظاهر التى تجلى فيها اثر هذا العنصر من السكان .

نعم لقد دخل المغرب هؤلاء المهاجرون وازداد عددهم كما رأينا فى هذا العصر، نظرا لما حل بهم من أزمات وما لحقهم من ويل وبعدما تأكدوا من النهاية الحتمية لغرناطة المحتضرة ، دخلوا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وعقليتهم ، وطبائعهم واخلاقهم التى كانت تختلف عن اخلاق من أقبلوا على التعايش معهم فى هذه البيئة المغربية .

لقد عاش الشعب الاندلسي ، كما لا يخفى ، فى احتكاك مستمر مع النصارى وغيرهم ، فى اصطدام تارة وفى استسلام طورا وفى تعايش سلمي موقت أحيانا ، مما أدى الى ردود فعل سلبية وايجابية ، نفسية واجتماعية ودينية على الخصوص ، أساسها التنافر والتناقض ومحاولة قضاء جانب على الجانب الآخر . وكان من نتائج هذا الصراع ان تأثر الاندلسيون بصفة شعورية وغير شعورية رغم محافظتهم على عقيدتهم ، بنظريات ومفاهيم من خالطهم من النصارى واليهود الذين كثيرا ما

---

1) عنان عبد الله ، نهاية الاندلس (القاهرة مطبعة مصر 1958) صفحة 472 .

2) منهم بنو ادريس وبنو العلا مثلا

باقشوهم فى أمور دينية طالما اجتنبوا الخوض فيها والتساهل فى تأويلها ، فاتصفوا تبعا لذلك او عن طريق التاثير غير المباشر بجرية التفكير ، وانطلاقة التعليل ، ومحاولة فهم الاشياء ، ظاهرها وباطنها ، الشيء الـــذى لم يكن مالوفا فى البيئـة على العموم ، اذا استثنينا بعض الاوساط . ألم تكن هذه الظاهرة وحدها كفيلة بخلق تيار معارض قد يكون سريا لا يتعدى الانفعال المكبوت ، وردود فعل نفسية تنتظر فرصة التنفس والتعبير ، كما يكون علنيا يتجاوز دائرة الانفعال وينتقل الى بعض الطبقات الاجتماعية ، لا سيما ونحن نعلم ان المغاربة عرفوا منـــذ القديـم بشدة محافظتهم وتمسكهم بتقاليدهم التى طالما دافعوا عنها ، وكافحوا من اجل ابقائها على ما هى عليه نظرا لماهية البيئة التى كانوا يعيشون فيها واسلوب الحياة التى كانوا يحيونها .

لقد حاول الموحدون مثلا ، بشتى وسائل الضغط والاكراه ، ارغام رعيتهم على اعتناق افكارهم الجديدة والتخلى عن مذهب مالك . لكن هذه الوسائل لم تزد المغاربة الا عنادا وتصلبا فى الموقف ، رغم ما لحقهم من أذى ومحن . وفى هذا المضمار نورد هنا فقرة للاستاذ كنون(1) هذا نصها : «والذى نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكى لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة الى الاجتهاد التى كان الموحدون يتزعمونها ولا امام المذهب الظاهرى الذى عرف نشاطا كبيرا فى هذا العصر» . ويفيد النص كذلك أن الظاهرية عرفت نشاطا ملحوظا الى جانب المذهب المالكى والتيارات الفكرية الاخرى من شيعية وسلفية وغيرها . ألا يعنى هذا أن دعوة ابن حزم عرفت مكانها فى البيئة المغربية ووجدت معارضة قوية من طرف الفقهاء والعلماء وطبقات الشعب الاخرى(2)

لقد حدث من معارضة ومقاومة ما أشار اليه الاستاذ كنون أيام بنى عبد المومن حيث كانت الهجرة محدودة وتلقائية فى غالب الاحيان . فما ظنك بعصر بنى مرين حيث اشتدت الهجرة وقوى الارتباط بين العدوتين وتساقطت جميع القواعـــد الاسلامية فى يد الاسبان باستثناء غرناطة التى كانت على وشك السقوط والانهيار. وسواء ظهر ذلك أو لم يظهر لمن أرخوا لهذا العصر من المعاصرين وغيرهم . فان طبيعة الاجتماع وقوانينه تجعلنا ننتظر تلك النتيجة رغم ما بدا فى الافق من ظواهر أخرى سائـدة حالت دون ملاحظات تـلك التيارات المعاكسة التى تعمل عملهـا فى الافكار وفى النفوس ولو لم تتخذ شكل الظاهرة المسيطرة .

هذا فيما يرجع لبعض خصائص الذهنية الاندلسية ، اما الجوانب الاخرى فجديرة بالذكر لما لها من أثر فى الوصف والتعليل . لقد عاش الاندلسيون فى

---

1) النبوغ المغربى ج 1 ص، 122-123 .

2) النبوغ 1 ص 137 حيث يذكر الاستاذ كنون ما لقيه المذهب الظاهرى مـن معارضة على يد الفقيه ابى زكرياء الزواوى ايام الموحدين .

بيئه وصفها الشعراء والكتاب والمؤرخون وغيرهم وبأوصاف لا تكاد تختلف في جملتها ، وهي من شأنها أن تؤثر في الفرد وتكيف سلوكه النفسي والاجتماعي ، وتجعل منه عنصرا له مذهب خاص في الحياة واخلاق تبعث على التفاؤل والانشراح والاقبال على الحياة المرحة للتلذذ بها وبشهواتها . قالوا انها خصبة وجميلة ، تحف بها الحدائق الغناء ، وتخترقها الوديان الجارية وتعلوها القصور البديعة المتناثرة هنا وهناك ، وتتلاقى فيها جميع العناصر المتعايشة اليهودية والنصرانية والعربية وغيرها وتعيش كلها تحت ظلالها الوارفة وجناتها المثمرة ، بيئة شاع فيها الغناء والطرب والرقص وانتشرت فيها دور الملاهي والمقاهي التي كان الناس يؤمونها من سائر الطبقات تفاعلت فيها حضارات مختلفة في صفاتها فتكونت منها حضارة راقية ، حضارة الشعب الاندلسي على العموم ، ولقد أكد ابن الخطيب(1) في حديثه عن غرناطة قائلا : «أخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وشعورهم سود ، والسنتهم فصيحة عربية وأخلاقهم أبية ، وحديث حريمهم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهر في المصبغات والتنفيس بالذهبيات ، والديباجيات والتماجن في اشكال الحلي الى غاية نسأل الله ان يغض عنهن فيها» .

تلك هي بيئة الاندلسيين التي تركوها وتلك أخلاقهم وصفاتهم التي حملوها معهم يوم أقبلوا على البيئة الجديدة ليتخذوها مقرا نهائيا لهم .

وهي بيئة تختلف ، كما نرى ، عن البيئة المغربية ، ذات النزعة البدوية ، كما أسلفنا ، والطابع المحافظ . ألم يكن حتميا ان يقع بين العنصر التقليدي والعنصر الجديد نوع من التناقض والتصادم قبل أن يقع الاندماج والانسجام ؟ الا تقتضي ظروف التفاعل والاحتكاك المباشر ان يتأثر جانب بجانب آخر والعكس بالعكس ؟ ذلك ما كنا ننتظره وما لمسنا منه في مختلف مظاهر الحياة المغربية بعد قدوم هؤلاء المهاجرين ، رغم كون دائرة استقرارهم لم تتعد بعض المدن الرئيسية كالرباط وتطوان وفاس . لقد كيفت هذه العناصر الاندلسية حياة المغرب الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . وتركت آثارا مباشرة وقوية في جميع الميادين ، مما جعل بعض المؤرخين ومنهم طراس(2) يؤكدون أن حضارة المغرب في عصر بني مرين حضارة أندلسية محضة مستوردة من العدوة الاخرى ، لا دخل للمغاربة فيها . ورغم ما في هذا الحكم من تسرع وتطرف ، لتجاهله عملية التفاعل الاجتماعي من أخذ وعطاء ،

---

1) الاحاطة ، تحقيق وتقديم عبد الله عنان (دار المعارف بمصر بدون تاريخ) المجلد الاول ص 133 .

2) تاريخ المغرب الدار البيضاء بدون تاريخ ج : 2 ص 76 .

نلاحظ ان العنصر الاندلسي كان له أثر فعال في جميع مرافق الحياة المغربية . كما سنرى فيما بعد بتفصيل ، الا انه يمكن الاختصار والاكتفاء هنا بذكر بعض الامثلة فيما يرجع لميادين رئيسية .

ففي الميدان الثقافي مثلا ، نجد عناصر أندلسية اكتسحت الميدان ولعبت دورا رئيسيا فيه . نظرا لما كانت تتوفر عليه من مكانة سامية ومركز اجتماعي مهم . لقد وفد على المغرب في هذا العصر من المهاجرين شخصيات ذاع صيتها في المجتمع المغربي وانتشر مفعولها نفسيا وروحيا وماديا ، فكان لوجودها في المغرب فائدة للطلبة بصفة خاصة ولجميع الاوساط المثقفة بصفة عامة وليست هذه الشخصيات بالعدد القليل الذي يمكن حصره في هذا المجال الضيق ، لذلك نكتفي هنا بذكر بعض الاسماء مشيرين الى الدور الذي قامت به هذه الشخصيات .

في المقدمة نجد الشاعر الكبير ، والكاتب البليغ والمؤرخ العظيم الوزير لسان الدين ابن الخطيب (1) الذي تردد على المغرب كسفير او كلاجيء وشهرته لا تخفى على أديب او مؤرخ نظرا لثقافته الواسعة والدور الذي لعبه في الميدان الثقافي والميدان السياسي ، اذ كان ابن الخطيب أستاذا يقتدى به أينما حل وارتحل فكانت تلك الايام التي قضاها بالمغرب عبارة عن دروس يستفاد منها ، او مادة غزيرة يستقى منها سواء في الميدان الثقافي او في السياسة او في البلاط الملكي ، ولا أدل على ذلك مما ألفه أثناء مقامه بالمغرب من كتب كثيرة ومتنوعة سنأتي على ذكرها من بعد . وفي عالم الروحيات نجد شخصية أخرى نسردها على سبيل المثال نظرا للدور الذي لعبته في ميدان الزهد والتصوف واعني بهذه الشخصية أبا العباس احمد بن عاشر ، دفين سلا . لقد انتقل من غرناطة الى المغرب حيث أصبح شيخا يتطارح عليه ويتبرك منه . طمعا في نصائحه ودعواته ، يكفيك دليلا على ذلك ما قام به السلطان أبوعنان من جهود للاتصال به والاستفادة من نصائحه . لقد ذهب اليه راجلا وانتظره طويلا لكن محاولاته باءت بالفشل فرجع خائبا ، يائسا

وفي البلاط المريني نجد كذلك عددا لا يستهان به من هؤلاء الاندلسيين الذين خدموا الدولة وأدوا من المهام ما جعلهم يتقلدون مناصب عالية مخزنية نظرا لثقافتهم وقوة نفوذهم والشهرة التي كانوا يتمتعون بها سواء في بلادهم او خارجها . فوجودهم في البلاط دليل على تأثيرهم المادي والمعنوي ، وشرف للمخزن المريني الذي أصبحوا من المنتمين اليه وهكذا ، على سبيل المثال ، كان لابي عنان من الكتاب الاندلسيين ابن جزي ناسخ رحلة ابن بطوطة وأبو القاسم ابن يحي الغساني البرجي وغيرهما ..

أما في الجيش فلقد احتل الاندلسيون كذلك مناصب سامية ، اسوة بغيرهم

1) توفي 776 بفاس حيث احرق .

من العرب والبربر ، كقواد او كمشاة ، فاتصفوا بالخصال الحسنة ، وبالطاعة وحسن الترتيب واللون الجميل في اللباس . ومن المفيد ان ننقل هنا عن الاستاذ المنوني ما جاء في بحثه عن جيش بني مرين حيث يقول مستندا الى «فيض العباب» فقد كان في مقدمة الموكب قواد الجيش من بنى مرين والعرب والاندلسيين والاعلام وجاء بعد هذه الجموع المشاة الاندلسيون (I) .

وهكذا يتضح من هذا النص أو غيره من المراجع ان الاندلسيين لعبوا دورا هاما في الجهاز الادارى للدولة وأدوا خدمات مدنية وعسكرية ، لا تقل شأنا وخطورة عن المهام التى اسندت لغيرهم من بنى مرين والعرب وهى ، كما نرى ، وظائف سامية لا تسند الا لمن حظى بثقة الرؤساء وتوفرت فيه شروط الامانة والكفاءة والاخلاص . وبذلك كان للدور الذى قاموا به فى هذه الميادين اثر بليغ فى ذهنية ونفوس المغاربة الذين عاشروهم او اتصلوا بهم من قريب او بعيد . وأنت تعلم ما فى الاحتكاك المباشر او غير المباشر ، لا سيما بمن تتمثل فيه السلطة او الكفاءة ، من اثر فى التكييف وقدرة على التنشيط، وبعث دوافع التقليد والتنافس والتسابق .

وليست هذه هى الميادين الوحيدة التى تجلى فيها أثر الاندلسيين بالمغرب ، ان تأثيرهم تجاوز هذا الحد الى مرافق أخرى اجتماعية واقتصادية وعمرانية لا سبيل للتعرض لها هنا نظرا لما سقناه من أمثلة نظن أنها كافية لاخذ فكرة عن الدور الذى لعبه هذا العنصر من السكان الى جانب العناصر الاخرى . ورغم كونهم انحصروا فى بعض المدن الرئيسية فان تأثيرهم المادى والخلقى والمعنوى تجاوز حدود هذه الدائرة الضيقة ، وانتقل كما قلنا ، الى آفاق أخرى بقيت الى الآن تحمل طابعا اندلسيا . ظهر ذلك التأثير فى فن البناء وفى اللباس وفى أسلوب الاكل وفى الغناء ، وفى الرقص وفى تقاليد وعادات ما زال بعضها حيا الى اليوم .

عنصر اليهـــود

أجمع المؤرخون او كادوا على ان أهل الذمة ، اليهود والنصارى ، بصفة عامة، عاشوا فى المجتمعات الاسلامية عيشة كريمة محترمة ، لا يمسهم سوء ، ولا يصيبهم اذى الا في أحوال نادرة ، نظرا لما تمتعوا به فى هذه المجتمعات من تسامح دينى واجتماعى ، خلافا لما كان عليه غيرهم من المسلمين فى بلاد النصارى حيث ساد التعصب والاضطهاد والابادة فى بعض الاحيان وأصدق مثال وأقربه الى عصرنا ما شاهدته اسبانيا المسلمة على يد الكنيسة اثر سقوط غرناطة ونفى المورسكيين

(1 مجلة البحث العلمى العدد 2ـ1964 صفحـــة 98 .

وفي هذا يقول آدم متز (1) : «ان ما يميز المملكة الاسلامية عن أوربا النصرانية في العصور الوسطى ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الاديان الاخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، كأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب ذلك في خلق جو من التسامح لم تعرفه أوربا في القرون الوسطى» هذا ما قاله آدم متز عن وضعية أهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، وما قال عنهم غيره لكثير سواء في تاريخ الاسلام او تاريخ المسيح . واذا كان الامر كذلك ، فلا غرابة فيه ، اذ ان القرآن وهو دستور الاسلام ، وأساس شريعته نص على معاملة النصارى واليهود معاملة أساسها التسامح والتعاطف والتعايش السلمي ، الشيء الذي يفرض احترام شعائر الدين وعاداته واخلاقه ، ولو كان في ذلك ما حرمه القرآن على المسلمين . فقد قال تعالى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » ،(2)

ولم يكن المجتمع المغربي في عهد بني مرين بأقل من غيره من المجتمعات الاسلامية تسامحا نحو اليهود . لذلك نجد منهم في هذا العصر أقلية كان لهـا دورها وتأثيرها المباشر وغير المباشر في الحياة المغربية واذا كنا نجهل بالضبط نسبة هذه الاقلية وأماكن استقرارها لعدم اهتمام المؤرخين بصفة عامة بهذا الجانب ، فمن الممكن أن نؤكد ان نسبتها ارتفعت في هذا العصر خصوصا ، وفي العصور التي بعده ، نظرا لما حل بالمسلمين باسبانيا من تعذيب ونفي نتيجـة تعصب الكنيسة ضدهم اثر سقوط غرناطة وبعد النفي العام . ذلك ان اليهود كانوا يعيشون في ظل القواعد الاسلامية بالاندلس آمنين مطمئنين ، متمتعـين بحقوقهم المادية والمعنوية ، كما أكد ذلك كثير من مؤرخيهم وغيرهم من المسلمين والنصارى ، الى أن نفوا مع المسلمين ولقوا نفس المصير مـن اضطهاد وتعذيـب ، فتوافدوا بكثرة على أرض المغرب ، واستقروا ببعض مدنه وقراه لاسيما في فاس حيث البلاط المريني وحيث الاسر الموسرة والعناصر الاندلسية التي هاجرت من العـدوة واستوطنت هذه المدينة منذ قرون . وجدير بالذكر هنا كما أكده الى مالكا(3) أن أهم الاصلاحات التي أدخلت على قانون الاحوال الشخصية اليهودية يرجع عهدها الى هذا التاريخ الذي قويت فيه الهجرة اليهودية الى المغرب ، اذ أن كثيرا من الحاخامات الذين هاجروا الى المغرب بادروا بتشريع هذه الاصلاحات مستمدينها من العادات والتقاليد اليهودية التي كانت سائدة في الاندلس فكانت اذن تلك الهجرة عاملا من عوامل وضعية المرأة اليهودية بالمغرب وأساسا لكثير من التشريعات التي ما زال معظمها يطبق حتى

1. الحضارة العربية ، ص. 172 .
2. العنكبوت ، 29
3. مالكا : وضعية المرأة اليهودية بالمغرب ، (باريز 1952) ص 115 .

انيوم (1) . ونلاحظ كذلك ان هؤلاء اليهود المهاجرين هم السفرديون الذين كانوا يتحدثون بلهجة اسبانية (لاتينو) . لقد نقلوا الى المغرب علاوة عن ثقافتهم الدينية عاداتهم وأخلاقهم وما اكتسبوه من مميزات خاصة وعمة فى المجتمع الاندلسـي الاسلامي الذي كان يعج حينذاك بعناصر مختلفة المشارب والمنازع . فكان منهم من بلغ درجة كبيرة في العلم والاداب ، كما كان منهم أطباء وتجار وصناع وأصحاب حرف يدوية وفنون مختلفة سنتعرض لها فيما بعد .

وعلى كل فقد عرفوا في كثير من نواحى المغرب ولا سيما فاس ، وعاشوا جنبا الى جنب مع المغاربة المسلمين كما نالوا عطف الرسميين وغيرهم من رؤساء بني مرين الذين قربوهم اليهم وأغدقوا عليهم عطفهم وأدخلوا بلاطهم ومجالسهم وأطلعوهم على أمورهم الخاصة ، الشيء الذي جعل المسلمين ، في بعض الاحيان يغيـرون ويثورون ضد الطغيان والتحكيم . واذا كان أبو الحسن المريني شذ عن غيره من ملوك بني مرين(2) واستغنى عن هذا العنصر ولم يستخدمه ولم يقربه ، فأبو يوسف يعقوب وهو مؤسس دولة بني مرين عندما بنى فاس المدينة البيضاء ، لم يفته ان خصص لليهود جزءا من ساحتها كمساكن يستقرون بها ، فانتقلوا اليها على عهده، بل من أمره ، حماية لهم ، ودفاعا عن حقوقهم . اما السلطان ابو يعقوب فكان لا يفارقهم لا في سرائه ولا في ضرائه «حتى التحموا به التحاما وامتزجوا امتزاجـا يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنديته ، فعظم بأسهم لـدى الحاشية لاقبـال السلطان عليهم» (3)

وفي أيام السلطان عبد الحق آخر ملوك بني مرين برز على مسرح السياسة يهودي يدعى هارون عين وزيرا فكان من أمره ما كان حتى قام قاضي فاس وخطيبها أبو فارس الورياكلي يخطب في الناس ويحثهم على شق عصا الطاعة وخلع السلطان عبد الحق والانتقام من هارون الذي طغى واستبد بالحكم وصار يعذب هذا ويرحم الآخر . واذا كان ما حدث أيام ابي يوسف الموحدي الذي أمر بتمييز اليهود عن غيرهم بلباس خاص(4) يجعل المعترض يشك في المعاملة الحسنة التي لقيها اليهود في بعض المجتمعات الاسلامية من طرف الرؤساء والملوك ، فالسبب في ذلك على ما يستنتج من الاحداث والملابسات راجع أولا الى كون عناصر من اليهود قد اسلمت او تظاهرت بالاسلام ثم أصبحت تسلك سلوك من ارتد او سلوك المنافقين . لذلك فرض عليهم السلطان المذكور زيا خاصا عقابا لهم على ما أبدوه من نفاق وخداع ووقاية من تصرفات أخرى قد تثير الفوضى وتسبب الاضطراب ، ثم ان هذه التدابير

1) نفس المصدر ، ص 116 .

2) ابن مرزوق المسند الصحيح ، مجلة هسبيريس ج 60 ، 1925 ص 127 .

3) الناصري . الاستقصاء الجزء 3 (دار الكتاب الدار البيضاء 1955) ص 80 .

4) عبد الواحد المراكشي ، المعجب (القاهرة 1949) تحقيق وتقديم محمد سعيد العريان ومحمد الرحماني صفحة 304 و 305 .

كانت على العموم فردية بمعني ان المسؤولية فيها كانت تقع على ابى يوسف الموحدى ولم تصدر عن الشعب كرد جماعى . فالامر اذن كان يكتسى صبغة خاصة ويعتبر شيئا قليل الوقوع .

وهكذا يتضح لنا الدور الذى قام به اليهود فى عصر بنى مرين . والنفوذ الذى حصلوا عليه على يد ملوكهم بصفة خاصة ، فكانوا فى البلاط ندماءهم وخزنتهم ومدبرى شؤونهم الخاصة ، بل مارسوا السلطة وخاضوا فى شؤون السياسة وحكموا فكان منهم الرئيس وكان منهم الوزير .

الا أن دورهم الخفى داخل البلاط المرينى كان أقوى وأشد تأثيرا ، نظرا لاتصالاتهم السرية بالحاشية والاسرة المالكة ولتعاطيهم لحرف وصناعات فنية تمت الى النساء بأكبر صلة وترتبط بميدان الانفعال والوجدان ايما ارتباط .

وعن طريق هذه الوسائل السرية النفسية استطاعوا ان يضربوا على الوتر الحساس ، فاستمالوا القلوب ونالوا من العطف ما جعل بعض ملوك بنى مرين يستمعون اليهم وينتصحون بنصائحهم ، فيطبقون ما يوحون به اليهم ولو كان ضد الرعايا المسلمين . وذلك ما حدث بالفعل أيام السلطان أبى الربيع الذى قتل الكاتب الشهير العلامة أبى مدين عملا بنصيحة اليهودى خليفة ابن وقاصة الاصفر(1) .

وفي الميدان الاجتماعى برز تأثير اليهود فى نواحي كثيرة من الحياة المغربية لاسيما في فاس ارتبطوا بأهلها ارتباطا وثيقا وتفاعلوا معهم تفاعلا مستمرا كان أثره واضحا فى المعاملات المشتركة والاتصالات المختلفة فى كثير من العادات والتقاليد السائدة بين الفريقين . ان كثيرا من العادات الاجتماعية ، والعادات المتعلقة بحياة الاسرة أو بنظام الاكل أو اللباس أو بظواهر أخرى أصبحت مشتركة بين بعض الاسر المغربية والاسر اليهودية بحيث قوى التشابه فى بعض الميادين .

ولعل السر فى ذلك راجع ، فى نظرنا ، الى أن فاس كانت تحوى فى هذا العصر كثيرا من العناصر الاندلسية المسلمة التى هاجرت اليها اثر سقوط القواعد الاسلامية والتى كانت تعيش ، كما أسلفنا ، جنباالى جنب مع اليهود قبل نزوحهم الى أرض المغرب . كان اذن ماض مشترك ، وطول الفة ، ثم كان النفى العام الذى وحد المصير ، فهذه كلها عوامل اجتماعية ونفسية كانت الاساس فى تكوين هذه الروابط الودية بين بعض الاسر المغربية والاسر اليهودية .

واذا كنا نجد صعوبة فى تحديد هذه الظاهرة الاجتماعية ومعرفة مدى التأثير والتأثر فى مظاهرها ، فمن الممكن أن نسجل بعض العادات والتقاليد التى انتقلت مباشرة من عنصر اليهود الى المسلمين ، ويرجع انتشار كثير من هذه العادات والتقاليد

---

1) الناصرى الاستقصاء ج 3 صفحة 99 ،100 .

الى هذا العهد الذى نؤرخه . لقد كانت هناك صناعات مختلفة خاصة باليهود انفردوا بها بصفة عامة .

فالصياغة والصيرفة لم تكن بيد المغاربة المسلمين فى أول الامر ، ولم تكن لهم كذلك مهارة كبيرة فى صنع الاقمشة والملابس النسوية على الخصوص كنظم العقد ونسج القيطان وحبك «السفيفة» وتطريز القفطان بالصقلى ، وانما انتقلت اليهم عن طريق اليهود الذين كانوا يباشرونها ويتفننون فيها . وفيما يرجع لاساليب الطبخ يمكن أن نلاحظ ان قلى الفلفل وتقطيعه وغمسه فى الخل وتحميضه مع تحميضات أخرى كالباذنجان والجزر ، كل ذلك كان مألوفا فى أطعمة اليهود قبل أن ينتقل الى أطعمة الاسر المسلمة .

هذا فيما يرجع لبعض التقاليد والعادات الاجتماعية التى برزت فى بعض الاوساط المغربية التى سكنها اليهود مع غيرهم من المسلمين ، أما من الناحية الثقافية فلا نكاد نجد فى مصادر التاريخ أو غيرها وخصوصا تاريخ المغرب ، اهتماما كبيرا بهذا الجانب رغم كون اليهود عرفوا منذ القديم بثقافة دينية لاهوتية كانت تقريبا الميدا نالوحيد الذى خاضوا فيه وتوسعوا(1) ورغم كون يهود الاندلس على الخصوص نشطوا نتيجة احتكاكهم بالمسلمين فى ميادين صوفية وأخرى دينية محضة تدور حول التوراة والتلموذ ويؤكد هذا ما أثبته اندرى شراقى(2) فى كتابه ع ناليهود حيث يقول : (ان الثقافة اليهودية عرفت فى المجتمع الاسبانى ساعاتها الذهبية فى القرون الوسطى وذلك فى اطار الحضارة الرقيقة التى أدخلها بنوا أمية الى قرطبة . ولقد أعطى التعايش العربى اليهود أحسن ما يمكن من الثمار) . أفما كان اذن من الممكن أن يترك اليهود أثرا فى هذا الميدان كما فعلوا من بعد فى المجتمعات الاسلامية الاخرى ، بحكم الاتصال وما ينتج عنه من ردود فعل نفسية واجتماعية تجعل العنصرين المتجادلين يدليان بحجج وأدلة ولا سيما وقد ورد فى القرآن مسائل جاءت فى التوراة بتفصيل كقصص الانبياء وغيرها ، وذلك ما لم نعثر عليه تعصبا للعاطفة الدينية أو لاسباب أخرى لسنا نعلمها لحد الآن .

وهل ما هنالك أن بعض المصادر اشارت اشارة خفيفة الى شخصية من علماء اليهود بفاس وهو موسى بن ميمون القرطبى(3) . ويذكر بعض المؤرخين أن موسى هذا خرج من قرطبة خوفا من اضطهاد الموحدين وسكن مع أسرته بفاس قبل أن ينزح عنها الى مصر ، كما يذكرون انه كان يحفظ القرآن ويتظاهر بالاسلام . ولا غرابة فى كون موسى بن ميمون يحفظ القرآن لان التوراة والقرآن

---

1) اندرى شراقى : تاريخ الديانة اليهودية ، سلسلة «ماذا اعرف» باريز 1964 ص 97 .
2) نفس المصدر صفحة 102 .
3) كان فى عصر الموحدين .

متحدان كما قلنا فى أمور كثيرة رغم اختلافهما فى الجزئيات والتفاصيل . وقد ورد فى بعض المصادر ذكر شخصية أخرى عرفت بعلم واسع واطلاع كبير وهى خلوف اليهودى ويضيف نفس المصدر أن خلوف هذا كان من أساتذة محمد بن ابراهيم الابلى التلمساني فى عصر بنى مرين(4) .

تلك بصفة وجيزة أهم مميزات العنصر اليهودى فى هذا العصر وأبرز مجالات نشاطه فى الميادين الرسمية والثقافية والاجتماعية . ويتضح مما تقدم أن أثر هذا العنصر ومخلفاته ظهرت بشكل قوى فى فاس رغم وجود اليهود فى مدن أخرى مغربية كتطوان والرباط ومكناس ومراكش وذلك يرجع الى الاسباب التى ذكرناها آنفا .

---

4) عبد الكريم بن الحسنى : جامعة القرويين (الكتا بالذهبى ، الذكرى المائة بعد الالف نشر وزارة التربية الوطنية 1954) صفحة 166 نقلا عن ابن القاضى جذوة الاقتباس .

الحيـاة السياسيـة العامـة

خضع المجتمع المغربي في هذا العصر كالعصور التي سبقته أو لحقته لقانون النشوء والارتقاء ، فشهد قيام دولة وسقوط دولة أخرى . دولة تنشأ وترقى وتتطور ، ودولة تشيخ وتعجز فتحتضر وتموت . ذلك ما عاشه المغرب في هذه الفترة الاولى التي تبدأ بقيام دولة مرين وسقوط دولة الموحدين . وليس الامر بسيطا كما قد يتبادر الى الذهن وكما يتصوره بعض المؤرخين الذين كثيرا ما يغفلون هذه المرحلة الانتقالية نظرا لبعدهم عن الاحداث وتأثرهم بالالفاظ التي كثيرا ما تضلل القارىء وتخفى عليه ما تتضمنه من قوة وضعف وايجابية وسلبية ، وحيوية وشدة انفعال ، وتذهب به بعيدا عن الواقع الاجتماعي وتوقعه في الجفاف اللفظي ، وبذلك يميل الى الاختصار والتجريد الذي كثيرا ما يفسد الحكم ويشوهه ؛ ونحن لا نريد من المؤرخ أن يتأثر بعاطفة أو بأخرى ، فذلك يتنافى والبحث العلمي وانما نريد أن ينتبه الى هذه الظاهرة النفسية ويقيم لها وزنا ويتخلص من تأثيرها فيقف منها موقف الحياد ليبني أحكامه لا على ما تمليه الالفاظ والعبارات المختصرة وما قد توحي به هذه الالفاظ من ذكريات بل كذلك على نتائج الجهود التي يبذلها لتفهم الاوضاع وسبر غورها ومعرفة ما يحركها وما يتفاعل في خلقها من عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية . ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخية لا تعير لهذه الفترة الانتقالية أهمية كبيرة ، رغم خطورتها وشدة تأثيرها في الاوضاع السائدة ، فتكون النتيجة الاختصار والايجاز والتطلع السريع الى معرفة خصائص ونتائج الدولة الجديدة ؛ مع أن الامر ذو أهمية كبرى ، لا بالنسبة فقط للدولة الناشئة والدولة المنهارة ، بل كذلك بالنسبة للبيئة التي تكون مسرحا لهذه الحوادث . هناك صروح تشيد وأخرى تهدم ، هناك عادات تتزحزح وأخرى تتكون ، وبعبارة أوجز هناك صراع بين الحياة والموت . ولقد حملنا على ايثار هذه الملاحظات ما رأيناه من اختصار وتحريف في وصف هذه المراحل الدقيقة من تاريخ المجتمعات الاسلامية على العموم والمجتمع المغربي بوجه أخص ، وحرصنا على الالمام بالعناصر السلبية والايجابية في الموضوع والاسباب القريبة والبعيدة التي كثيرا ما تكون وراء الاوضاع والاحداث والذي يهمنا هنا أن مثل هذه المراحل كثيرا ما تكون هي الاساس في خلق مجتمع جديد ، ترسم له الخطوط التي يسير عليها في مستقبله ولا تحيد عنها الا في جزئيات أو ميادين خاصة لان المجتمع في بدايته كالطفل في حداثة سنه يتأثر الى حد بعيد في حياته المقبلة بما عاشه من أحداث في صباه وما يتكون فيه من عادات سلبية وايجابية في هذه المرحلة من حياته التي تترك فيه من العوامل ما سيطبع شخصيته وما سيتحكم في سلوكه الى درجة معينة . وليس

هناك اذن حد فاصل ، كما فى الاشياء المادية المحضة ، بين دولة قديمة وأخرى جديدة قامت على انقاضها ؛ وانما هناك صراع بين قوة آخذة فى الهبوط وأخرى فى طريق الصعود ، تشتركان معا فى هذه العملية فى نفس الزمن والمكان ، رغم بروز القوة الجديدة فى مسرح السياسة والنفوذ الرسمى . فقيام دولة بنى مرين منذ بداية القرن الثالث عشر ليس معناه انمحاء دولة الموحدين نهائيا وخلو الميدان لبنى مرين وحدهم ، ذلك ما لا يقبله العقل ، وما لا يسمح بتصوره علم الاجتماع . وانما هناك اختفاء دولة من الميدان الرسمى وحلول دولة محلها فيه . أما الصراع فيبقى دائما مستمرا فى النفوس وفى العواطف والتفكير ، والا فكيف يعقل أن تمحى عادات تكونت منذ قرون وترول من الاذهان والعواطف والوجدان لتحل محلها — بين عشية وضحاها — عادات أخرى أتت بها عناصر جديدة استولت على زمام الحكم .

وعلى كل ، فالمرحلة الانتقالية التى عاشها المغرب فى هذا العصر ، مرحلة كان لها شديد الاثر فى تاريخه السياسى والاقتصادى والاجتماعى بصفة عامة . وهى مرحلة استغرقت حسب المؤرخين أى حسب الاعتبار السياسى الرسمى نصف قرن على وجه التقريب أى منذ ما قبل 2213 الى سنة 1269 وهو التاريخ الذى قضى فيه السلطان أبو يوسف يعقوب على مقر سلطة الموحدين ابتداء من سقوط مراكش . أما حسب الواقع الاجتماعى والنفسى فسلطة بنى مرين بدأت قبل سنة 1213 ، بدأت أيام الموحدين ، بل قبل قيام هذه الدولة التى كثيرا ما كانت تقاوم العناصر الزناتية وتحاول بشتى الوسائل استمالتها ، نظرا للمؤامرات التى كانت تحيكها ضدها ؛ بل هناك ما يؤكد أن جذور هذه الدولة المرينية تمتد الى القرن العاشر والحادى عشر حيث كانت قبائل زناتية تصول وتجول فى ربوع المغرب ، ممهدة الطريق بصفة لا شعورية لدولة بنى مرين التى سيطرت على الحكم بصفة رسمية اثر تفكك امبراطورية الموحدين وانقسامها . ويحدثنا التاريخ أن هذه القبائل الزناتية التى أشرنا الى وجودها فى المغرب ما بين القرن العاشر والحادى عشر كان لها من النفوذ والقوة ما جعلها تشكل امارتين مستقلتين بالمغرب وهما امارة مكناسة وامارة مغراوة .

ونتيجة لما سبق أن ذكرناه ، اشتد الصراع بين القوات المنهارة والقوات الصاعدة حيث دام أكثر من نصف قرن ، الشىء الذى تسبب فى كثرة الفتن والحروب والاضطرابات الداخلية التى عصفت بالبلاد وهزت أركانها وزحزحت أمنها وأحدثت تغييرا فى نظمها ، مما كان له أثر على حياة هذه البيئة التى عاشت فى جو من الاستقرار والسلم النسبى على عهد الموحدين . لم يكن من السهل القضاء على قبائل المصامدة التى ظلت تقاوم وتصارع الى آخر لحظة من حياتها السياسية الرسمية التى انتهت بسقوط مراكش بعد تأسيس فاس الجديدة ، وحتى بعد سقوط مراكش فى يد أبى يوسف يعقوب بقيت العناصر المصمودية منبثة هنا وهناك ، ومعتصمة بالجبال ،

منحينة الفرص ومترقبة الحوادث ، تعمل فى الخفاء كائدة وناقمة . وما استقرار بنى مرين فى فاس حسب بعض المؤرخين الا احتياط وخوف من الجبال المطلة على المدينة والتى التجأت اليها قبائل مصمودية كثيرة .

وقد كان على بنى مرين أن يواجهوا كذلك قوة أخرى ويحسبوا لها حسابها ، اتقاء لشرها ، ورغبة فى استخدامها لصالحهم . ذلك أن قبائل الاعراب المنتشرة فى بلاد افريقية وفى المغرب الاوسط دخلت على يد الموحدين الى المغرب الاقصى واستقرت فى نواحى كثيرة منه لاسيما فى السهول والاماكن الصحراوية . فكانت بطبيعتها البدوية وبحكم تكوينها العام وسلوكها الخاص ، وبوصفها عنصرا أجنبيا ، كانت بحكم هذه العوامل كلها حدثا اجتماعيا له عواقبه وأثره فى المجتمع المغربى . فالمشكلة اذن كانت مشكلة اندماج ، تحتاج الى وقت والى عملية تكييف قد تكون سهلة أو صعبة حسب الظروف والملابسات المحيطة بميدان التفاعل والتعايش ، واذا علمنا أ نالمغرب كان يعيش نسبيا عيشة استقرار قبل دخول هؤلاء الاعراب الى ميدان الاجتماع والسياسة ، وان هذه القبائل لم تعرف سوى التنقل والترحل من مكان الى آخر ، أدركنا خطورة الموقف بالنسبة لبنى مرين أنفسهم وللبيئة المغربية على العموم . فكان على الرؤساء الجدد اذن أن يتخذوا العدة ويحتاطوا لحل هذه المشاكل الاخرى وذلك حفظا على سلامة سلطتهم ومراعاة للتوازن الاجتماعى العام ، واتقاء كل ما من شأنه أن يمس بعرشهم من قريب أو من بعيد . كان عليهم اتخاذ هذه الاحتياطات رغم ما كان بينهم وبين القبائل البدوية من تشابه فى المزاج والطبع ،كما أسلفنا ، وتوافق فى كثير من العادات والاخلاق ، وانسجام فى ميادين السلوك العام .

ومن العوامل الاخرى التى زادت فى توتر الحالة العامة قيام دولة بنى عبد الواد بالقطر الشقيق ، وتعتبر هذه القبيله الزناتية اعدى عدو لبنى مرين(1) ويرجع عداء كل منهما للاخرى منذ زمن طويل الى العصبية القبلية ولاسباب اقتصادية لا مجال للتفصيل فيها هنا . لقد نشب بين الدولتين نزاع مسلح استعمل منذ قيامها الى النهاية فكان لذلك أثره فى سياسة المغرب الداخلية والخارجية وفى حياته الاجتماعية والاقتصادية على العموم اذ أن كثيرا من الحروب والفتن قامت بالمغرب بسبب وجود عدو دائم على الحدود الشرقية المغربية . فكانت النتيجة حدوث اضطرابات متوالية تطلبت من بنى مرين ومن الشعب المغربى مجهودات بشرية ومادية لمجابهة هذه الواجهة الثالثة وللقضاء على هذه الفتن التى أصبحت تهدد الدولة الجديدة وهى لم تستقر بعد بصفة نهائية .

---

(1) من نتائج ذلك تأليف كتاب روضة النسرين فى محاسن بنى مرين ومساوى بنى عبد الواد لابن الاحمر .

ثم بحكم طبيعة البيئة المغربية ، وبحكم الجوار وعوامل دينية صرفة أصبحت من المعايير السائدة فى المجتمع المغربى لتقييم الاوضاع الجديدة ولتحديد مشروعية الدول القائمة والحكم على مدى استجابتها لرغبات الشعب العميقة ، بحكم هذا كله وجدت الدولة المغربية نفسها فى وضع يفرض عليها ، تكيفا مع البيئة الجديدة، ان تجابه مشكلا آخر لا مفر منه ، ولا تملص من تحمل أعبائه ، مهما كانت الظروف ومهما كلفها ذلك من ثمن وتضحية ؛ كان عليها اذن أن تفتح المعركة فى هذه الواجهة الاخرى حيث كانت حرب الاسترداد الاسبانية على أشدها ومملكة غرناطة فى خطر شديد ومستمر . فمنذ تسلط بنو مرين على الحكم ووقعوا تحت الضغط الاجتماعى شعروا بثقل الوزن وأدركوا أنها مسؤولية سيضيفونها الى مسؤولياتهم الاخرى ، حفظا على مركزهم وتأكيدا لسمعتهم . منذ بداية أمرهم وجه اليهم النداء التقليدى وتلقاه أبو يوسف يعقوب وهو لم يستكمل بعد تصفية القواعد المصمودية ، وهو ما زال فى هجوماته ضد الفتن الناشئة هنا وهناك وضد المؤامرات التى كثيرا ما تقوى فى مثل هذه المراحل التى تجتازها الشعوب ، وبالفعل أخذ السلطان أبو يوسف يستعد للمعركة منذ هذا التاريخ ويمهد لها الطريق ويرسم لها الخطط حتى اذا ما جاءت سنة 1275 وجدته على أتم استعداد ليلتحق بجيشه الذى عبر البحر الى العدوة الاندلسية حيث تتأهب جيوش الفريقين لخوض غمار المعركة .

وهكذا يتضح لنا أن هذه المرحلة الانتقالية التى عاشها المغرب فى هذا العصر والتى أبرزنا بعض مظاهرها ، كانت خطيرة وقوية الاثر فى سياسته الداخلية والخارجية ، اذ فيها تحددت معالم هذه السياسة واتضحت خطوطها وبرز كثير من أهدافها ، كما كان من الممكن توقع نتائجها سواء فى الميدان الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى على العموم حتى أصبحت كثير من الوقائع التى حدثت فيما بعد والتغييرات التى طرأت على الانظمة والعادات والتقاليد نتيجة لهذه المقدمة التى رسمت الخطوط الرئيسية وفتحت أبواب مجالات بقيت مفتوحة الى آخر أيام بنى مرين وخلقت أوضاعا كان لها نتائج قوية فى مستقبل حياة المغرب الثقافية والاجتماعية . ألم تكن هذه الحروب والفتن والاضطرابات السياسية والاضطهادات الدينية خليقة بتحريك العواطف وبايقاض الشعور وخلق ردود فعل نفسية خاصة واجتماعية تؤثر فى الميدان الادبى وتتأثر به ؟ ألم تكن سببا لفتح أبواب المغرب على مصراعيها لاستقبال عناصر أجنبية لها ثقافتها الخاصة(1) ولها دينها(2) ؟ ألم تكن فرصة لاتصال أهل المغرب الاقصى بأهل المغرب الاوسط فالادنى والشرق العربى على العموم ؟

---

1) الاندلسيون .

2) اليهود والمعاهدون .

وبعبارة أدق ألم يكن لها في ميدان الادب تأثير مباشر أو غير مباشر ؟ ذلك ما سنراه في موصعه بحول الله .

وتلي هذه المرحلة الانتقالية مرحلة أخرى أطول (1269 ـ 1358) عرف فيها المغرب على يد بنى مرين كثيرا من الاستقرار وتطورت فيها العادات واستفحلت فيها المشاكل التى برزت الى الوجود فى المرحلة السابقة . لقد بذلت فيها أكبر التضحيات وأعظم الجهود لاقرار الامن وتركيز أسس الدولة وتحقيق الاهداف التى رسمت من قبل ، وتعتبر هذه المرحلة من الناحيتين الزمنية والمكانيـة وحسب النتائـج المستخلصة أطول المراحل التى قطعها المغرب فى هذا العهد وأغناها أحداثا وأشدها تركيزا وأكثرها عمرانا وأرقاها ازدهارا . يكفيك أن أعظم ملوك بنى مرين عاشوا فيها وان أعظم المؤسسات والمنشآت العمرانية يرجع تاريخ تأسيسها الى هذا العهد، وان أهم المنجزات وأقوى العمليات العسكرية والاتصالات الدبلوماسية حققت أثناء هذه الفترة . ففيها تدخل بنو مرين فى الاندلس تدخلا مباشرا ومستمرا كانت له نتائج قوية بالنسبة لعمر غرناطة ، آخر قاعدة اسلامية بالاندلس ، وفيها قاموا بمعارك طاحنة ومتوالية ضد بني عبد الواد بتلمسان والمغرب الاوسط . كما بسطوا سلطانهم على مملكة الحفصيين على يد أقوى ملوكهم السلطان أبى الحسن الذى حقق انتصارات كبيرة على الصعيدين الافريقي والاندلسى حتى كان الناس يظنون أن الامبراطورية الموحدية قد بعثت على يد هذا السلطان . وفى الميدان العمرانى شهد المغرب فى هذه المرحلة تأسيس عدد كبير من البنايات الضخمة الجميلة والمؤسسات الدينية والاجتماعية المزخرفة التى بقيت بعض معالمها الى الآن شاهدة ، ناطقة بعظمة هذه الدولة وبالمجهودات الجبارة التى بذلتها فى هذا الميدان .

أما فى الميدان الثقافى ، فقد برز فى هذه الفترة كبار الفقهاء والمحدثين وأشهر المؤرخين وعلماء النحو واللغة كما ظهر عدد لا يستهان به من الادباء ، كان من انتاجهم أمهات الكتب التى استفاد منها أهل المغرب وأهل الشرق على السواء ولا يزال الطلاب والقراء الى اليوم فى بعض معاهدنا ينهلون منها ويستضيؤون بنورها . يكفينا هنا أن نشير الى أن ابن اجروم صاحب الاجرومية فى النحو وابن مرزوق وابى زرع وابن الشاط وابن بطوطة وابن رشيد كلهم عاشوا وانتجوا فى هذه الفترة التى نصفها .

على أن الحالة لم تدم طويلا كما هى فى عزها ومجدها وان الزمان ، كمـا قالوا ، بخيل لا يجود بمثله فى كل الظروف والمناسبات ولان قانون التطور يسير سيره الحتمى لا يراعى فى ذلك سوى الاحداث وتفاعلها وتكاملها وتناقضها ، فينزل بأمه من قمة مجدها وذروة رقيها الى درجة تنحط فيها وينطفىء نورها . ذلك ما وقع لدولـةبنى مرين فى هذه الفترة الاخيرة التى تبتدىء بنهاية عهد أبى عنان وتستمر الى أواخر سنة 1465 التى شهدت سقوط بنى مرين وزوال نفوذهم الرسمى . الا أن الامر ليس معناه انحطاط الدولة نهائيا فى هذه الفترة وانقضاء كل شىء من سلطتها

الزمنية والروحية وتوقف آثارها الثقافية والحضارية ، ذلك ما يتنافى وأسس علم الاجتماع والقوانين التى يخضع لها فيما يرجع لتطور الامم والمراحل التى تقطعها فى ازدهارها وانحطاطها . ذلك أن الدولة استمرت فى مباشرة مهامها فى الداخل والخارج وحققت انتصارات فى ميادين مختلفة وبقى نفوذها سائدا . الا أن كثرة الفتن الداخلية والمؤامرات والدسائس الوزارية والهجمات الخارجية والتدخلات الاجنبية وكوارث طبيعية وأمراض اجتماعية خطيرة ، كل ذلك أصابها فى الصميم وجعلها تتعثر فى طريقها وحال دون تحقيق كثير من أهدافها . فكان الضعف وكان الوهن ، وكانت الانهزامات المتتالية فى الداخل والخارج . يكفيك برهانا على ذلك أن بنى الاحمر ، بعدما كانوا يستنجدون ويستعطفون ، ويستفيدون من قوة أبطال بنى مرين ، بعد هذا كله ، أصبحوا فى آخر هذه الفترة يتآمرون على الدولة ويتدخلون فى شؤون المغرب (1395 — 1380) تدخلا سافرا ، يعزلون هذا وينصبون ذلك وفقا لمصلحتهم وأغراضهم الشخصية . ولا أدل على ذلك من ابعاد السلطان أبى الربيع وتعيين أبى العباس مكانه ومن احراق لسان الدين ابن الخطيب بفاس ، كل ذلك دبر ونفذ بايعاز وأمر من السلطان محمد الغنى بالله .

ويكفيك حجة كذلك أن بنى مرين فى آخر أمرهم أصبحوا أداة طيعة فى يد وزرائهم يفرضون عليهم اراداتهم ، ان نفذوها نجوا ، والا ، أصابهم ما أصاب السلطان أبا سعيد عثمان الثالث والسلطان عبد الحق المرينى على يد الوزير أبى زكرياء

والذى يهمنا ان نسجله هنا بالنسبة لموضوعنا هو أن المغرب ، نتيجة لما عاشه فى هذا العصر من أحداث واضطرابات وفتن فى الداخل والخارج وما حصل عن ذلك من ردود فعل نفسية واجتماعية ، أصبحت له علاقات مختلفة مع الدول المجاورة ، مع الشرق ودول افريقية أفاد منها رغم ما منى به من انهزامات سياسية واضطرابات اجتماعية استنزفت قواه وأضعفت امكانياته المادية والبشرية مع الاندلس .

لقد فتحت هذه العلاقات أبواب المغرب كلها فى وجه الاندلسيين الذين نقاطروا على مدنه وقراه فى هذا العصر ، فكان ملجأ سياسيا يقصده كل من نكب وأصيب من أجل أفكاره ونزعاته السياسية ودارا للضيوف يلقون فيها كثيرا من الترحيب والاكرام ، ومقرا للسفارات المتواردة عليه ، كما كان مسكنا لكثير من العناصر التى أرادت أن تستظل بظله ؛ فكانت النتيجة أن أصبح التبادل ظاهرة مثمرة استطاع بفضلها كثير من أهل المغرب أن يطلعوا على القطر الاندلسى ويشاهدوا ما يتوفر عليه من امكانيات طبيعية وبشرية وما يزخر به من مظاهر الحضارة والرقى ، فكانت فرصة ثمينة سمحت لهم باجراء اتصالات كثيرة مع ذوى العلم والمعرفة وأصحاب الفن والحرف المختلفة ، وتلك نتائج كان لها صدى كبير كما سنرى فى ميدان (الادب والثقافة بوجه عام) . ولقد كان من نتائج هذه الاحداث ونوع السياسة التى سلكها بنو مرين أن اتصل المغرب اتصالا قويا بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادنى،

فالتدخل بل القضاء على دولة بني عبد الواد كان الهدف الرئيسي لهم ، اذ العداوة كانت قديمة لم تتغلب عليها الايام بحيث استعملت كل من الدولتين جميع الوسائل وسلكت شتى أنواع السلوك للقضاء على الاخرى ، فدبرت المؤامرات وحيكت الدسائس ونفذت جميع أنواع الحيل والمكر والخديعة ، تحقيقا للانتصار . فكانت الغلبة لاسباب لا سبيل لذكرها هنا لبني مرين الذين استطاعوا ، بعد خسائر كبيرة وتضحيات جسيمة ، القضاء على بني زيان وضم قطرهم الى المغرب الاقصى ، ثم كان التدخل النهائي لابي الحسن في تونس حيث استطاع بفضل جهاده ودهائه أن يضم هذا القطر الآخر الى باقي اجزاء المغرب العربي ، رغبة في تحقيق الوحدة الكبرى ، وجمع الشمل . ومهما كانت النتائج السياسية لهذا الانتصار ، فالذي يجب تسجيله هنا أن عددا كبيرا من فقهاء المغرب وعلمائه استطاعوا خصوصا في عهد السلطان أبي الحسن أن يجروا اتصالات كثيرة مع رجال الفكر في افريقيا وهم مشهورون آنذاك بالنبوغ والمعرفة الواسعة وبالتطلع في العلوم الشرعية وفي الفقه فاستفادوا من هذا الاتصال وأفادوا وتركوا صدى منه في ميادين خاصة سنعرفها في مكان آخر .

ومن العوامل التي ساعدت على اقامة علاقات بين الشرق عموما الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان أبو الحسن في تونس أو غيرها ، فقد كان لها صدى قوي وأثر عميق في الاوساط الشرقية وفي مصر على الخصوص ، حيث أصبح السلطان محمد الناصر ابن قلاوون يتلقى السفارات المغربية حاملة كتابا خاصا من السلطان المريني مع هدايا ثمينة كالمصاحف المذهبة وأشياء أخرى نفيسة ، وكثيرا ما كانت تبعث هذه السفارات بمناسبة سفر الحجاج المغاربة أو رغبة في اقامة علاقات طيبة أو لاسباب خاصة كسفر والدة السلطان أبي الحسن الى الديار المقدسة . على أن المهم في هذا هو تنقل المغاربة ، وقد كان ملوك بني مرين يراعون في تعيين الوفود اختيار الشخصيات التي كانت تتمتع بنفوذ معنوي وروحي وبثقافة متينة(1) وبذلك يقع الاتصال والاحتكاك والتبادل في الافكار وفي الآراء وتقع المناظرات والمناقشات التي ترجع بفائدة كبرى على الطرفين .

الحيـاة الدينيـة في عصر بني مريـن

بذل الموحدون أقصى ما يمكن من الجهود وتفننوا في الوسائل المختلفة للقضاء على المذهب المالكي وعلى فقهاء المذهب المالكي وعلى انصاره فقاموا بحملة كبرى تعسفية ضد من كان يعتنقه ، أحرقوا كتب الفقهاء على مرآى ومسمع من أفراد

(1) كلف الكاتب ابن مرزوق من طرف السلطان ابي عنان بالاتجاه الى تونس قصد تحقيق مشروع الزواج من أخت السلطان الحفصي .

الشعب ، للقضاء على المذهب ، ثم للقضاء على علم الفروع ، تمهيدا لنشر دعوتهم الدينية وتثبيتا لمركزهم السياسي ، فكان الصراع ، وكانت المعارضة وكانت ردود الفعل هنا وهناك ... ذلك أن المذهب المالكي ، في نظرهم ، أصبح جافا ، خاليا من محتواه الصحيح ، ومبنيا على القشور ، وعلى الشكليات بعيدا عن دعامتيه الاصليتين القرآن والسنة ، اذ أصبح الفقهاء ، وهم كثيرون ، يشتغلون بالتصنيف والتلخيص ، والتجريد ، تاركين الاصول ومهتمين بالفروع ، فأصبحوا تبعا لذلك محتكرين للعلوم الدينية ، ان صح التعبير ، مستبدين بآرائهم وأفكارهم فارضين سلطتهم الروحية والمادية على الرؤساء وعلى غير الرؤساء من أفراد الشعب ، فاحتلوا المناصب المالية ووقفوا مواقف عدائية ضد من كان يخالفهم في الافكار والآراء .

الا أنه رغم هذه الحملات المنظمة . وهذه التعسفات الشديدة والتدابير النظرية والعملية للقضاء على المذهب المالكي وعلى أنصاره ، فان الحالة سرعان ما رجعت الى ما كانت عليه من قبل ، فخرج المذهب من هذه المحن منتصرا ومن هذه المعركة التي صمد ضدها قويا . ذلك أن بني مرين بمجرد استيلائهم على الحكم قد أعادوا للشعب مذهبه الرسمي ، وعملوا على توطيده وتدعيم أركانه ولم يجدوا في ذلك صعوبة ولا معارضة جديرة بالذكر . لان الشعب كان قد اختار مذهبه منذ ما قبل المرابطين وانسجم مع مقتضياته ، وتكيف مع متطلباته ، لاسباب اجتماعية لا سبيل لتحليلها هنا ، رغم ظهور مذاهب أخرى لم يكتب لها النجاح ، وتيارات عقدية وسياسية كانت تعارضه وتعرقل سيره ، كما أن المذهب الاشعري من حيث العقيدة ظل هو الآخر سائدا ، يرعاه ملوك بني مرين ويدين به الشعب كله بصفة عامة .

لم يكن بنو مرين ، كما هو معلوم ، أصحاب فكرة جديدة من حيث الفقه أو في العقائد أو أصحاب دعوة اصلاح يقومون بها ، كبني عبد المومن سابقا ، لتركيز سلطتهم ولتعليل موقفهم واستيلائهم على الحكم ، وانما انتصروا في هذه الناحية على ارجاع الامور الى نصابها استجابة لمطامع الشعب العميقة ، ولكسب النفوذ المعنوي والروحي في هذا الميدان الذي كان يعتبر من العوامل الحساسة لتدعيم أسس الدولة ، فبنو مرين لم يقصروا ولم يتقاعسوا ، بل بذلوا ما في استطاعتهم فخدموا الاسلام خدمة شهدت بها مواقفهم ومآثرهم .

لقد زعم بعض المؤرخين أنهم أرادوا تعويض النقص الذي كانوا يشعرون به بالنسبة الى أسلافهم نظرا لكونهم لم ياتوا بجديد يبنون عليه سلطانهم . أما نحن فنرى لهذا الحماس الديني تعليلا آخر راجعا الى ظروف اجتماعية ليست سياسية . ذلك أن الدول المتعاقبة على حكم المغرب ، اذا كانت في أغلبيتها دخلت بفكرة جديدة في بداية أمرها لتأييد موقفها ، فان بني مرين لم يكونوا في حاجة الى هذه البدعة ، بحكم ظروفهم السياسية والاجتماعية السائدة في المغرب بل كانوا أشد قوة وأكثر استعدادا لمحاربة خصومهم كما كان الجو مواتيا لهم . ان بني عبد المومن ، بسبب

الانهزام الكبير الذى منوا به فى الاندلس ، ضعفوا واستكانوا ، وانهارت قواهم ، وتفككت أجزاء امبراطوريتهم ، وبذلك خلا الجو لخصومهم ، فاستغلوها فرصة للاطاحة بهم والاستيلاء على ملكهم . أما بنو مرين ، بوصفهم أهل بدو وترحل فى المناطق الصحراوية وغيرها ، فكانوا أقوياء أشداء متعودين على المغامرات والشدائد والمحن ، فلم يكن هناك من حاجة الى خلق بدعة يتخذونها وسيلة سياسية تقلب النظام . أما تحمسهم للدين وتعصبهم لقضايا الاسلام ، فلم يكن ، ظنا منا ، بدعة ابتدعوها ولا تعويضا لنقص فيهم . فالامر اذن داخل فى دائرة مثل عليا ومقاييس اجتماعية ، وقيم روحية تشبعوا بها فكونت عقليتهم وروحهم وسلوكهم الفردى والاجتماعى .

ومهما كانت الاسباب ، ومهما اختلفت الآراء والاهداف التى كانوا ينشدونها ، فبنو مرين قاموا كما أسلفنا بخدمات جليلة فى سبيل الاسلام . فما ان استقروا وخلصت لهم أمور البلاد حتى هبوا يدافعون عن اخوانهم المسلمين بالعدوة الاندلسية حيث كان الاسلام وجها لوجه وفى صراع مستمر مع المسيحية الاسبانية حيث أصبحت القواعد الاندلسية تتساقط فى يد النصارى القائمين بحرب الاسترداد . لقد خاض أبطال بنى مرين معارك طاحنة وحروبا مستمرة ، خاضوها بأنفسهم ، وبجيوشهم وبأساطيلهم منذ تولوا أمر البلاد الى أن أشرفوا على الهلاك وأصيبوا بما تصاب به سائر الدول عندما تصل الى مرحلة معينة من شيخوختها . فكانت الغلبة لهم كما كانت عليهم حسب الظروف . لقد استنزفوا قواهم وتركوا دماءهم وضحوا بكل نفيس لديهم ، غير طامعين فى مال أو فى كسب سياسى كما يظن البعض . وانما قاموا بذلك للدفاع عن حمى الدين الاسلامى المهدد فى هذا القطر . ومن المعلوم تاريخيا أن الفضل فى بناء مملكة غرناطة واستمرار سلطانها أكثر من قرنين راجع الى التدخلات الديبلوماسية والعسكرية التى قام بها بنو مرين فى الاندلس . ولم يكونوا وحدهم فى هذه الحروب وهذه الجهود المادية والروحية ، بل كان من ورائهم مختلف طبقات الشعب من علماء وموظفين وجنود ورؤساء قبائل . فالدفاع عن حمى الدين كان فى نظرنا هو الهدف الوحيد الذى كان يبرر هذه التدخلات الحربية وهذه الجهود المضنية .

أما فى الداخل فلم يكن موقف بنى مرين من الشؤون الدينية بأقل منه حماسا ونشاطا فى الاندلس فهنا نجد أعمالا بارزة ومظاهر متعددة ومختلفة لهذا السلوك الروحى . فكثرة المساجد والمدارس التعليمية واقامة الزوايا كانت ترمى الى نفس الغاية ، كما أن تنظيم وفد الحجاج والاعتناء بسفرهم فى كل سنة ، وارسال مصاحف قرآنية الى الاماكن المقدسة لدلالة على مدى تشبثهم بروح الاسلام وبتعاليمه ، وعملهم لرفع رايته فى الظاهر والباطن ، فقد ورد أن بنى مرين كانوا لا يشترطون فى موظفيهم ، كمقياس ، سوى اخلاصهم لتعاليم الاسلام بصفة عامة . ذلك كان شرطا أساسيا قبل تعيينهم وتقليدهم مناصب الدولة ، بسيطة كانت أم عالية ، فلم تكن جنسيتهم من الشروط ولا من المقاييس التى يرجع اليها فى هذا الباب ، اذ كان يوجد بالمخزن

المريني موظفون مغاربة وأندلسيون ومشارقة ، ويؤكد هذه الظاهرة ما رواه بعض المؤرخين في وصفهم للجيش المريني الذى كان على جانب كبير من التربية الاسلامية التي كانت تفرض عليه وهو مسافر أداء مهمته واقامة صلواته بقيادة ملوكه وبمجرد سماعه اذان الصلاة ولقد أوردت بعض المصادر التاريخية(1) ان من بين الوظائف التي كانت تسند لمن هو أهل لها وظيفة صاحب الصلاة وهي مهمة دينية محضة يتولاها صاحبها بظهير من السلطان ويتقاضى عليها «مرتبا موسعا» .

بهذا السلوك وبهذه المواقف الدينية كان الشعب يحكم على هؤلاء الموظفين ويقدر منزلتهم ويزيد في احترامهم وتقديسهم ، فكان التجاوب بينه وبينهم على هذا الاساس ، على هذه الرابطة الروحية التي تربطهم وتجعلهم منسجمين متجهين اتجاها واحدا ، هو خدمة الأسلام خدمة مستقيمة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد ولا اشكال .

ولا أدل على هذه الروح الدينية المتغلغلة في النفوس وهذا الاتجاه العلمي السائد من كثرة الكتب المؤلفة في هذا العصر ، في التفسير وفي الفقه وفي الحديث ، وهي اذا قيست بغيرها من الكتب التي الفت في علوم أخرى ظهرت سائدة مسيطرة ، وافرة العدد ، ومتشعبة الفروع حتى كادت تنفرد وحدها بالميدان وحتى أصبحت الحركة العلمية تقريبا مرادفة للحركة الدينية في هذا العصر . ان أشهر الكتب وأقواها أصالة ترجع الى هذا العصر الذى كثرت فيه الشروح والتعاليق والهوامش . ونظرا لكثرة هذه الكتب وضيق المجال عن ذكرها ، فاني اكتفى هنا كمثال على ذلك ، بالاشارة الى القائمة التي أوردها الاستاذ كنون في كتابه النبوع (صفحة 123) عن هذه المؤلفات وعن أنواعها واتجاه أصحابها ففي ذلك دليل على ما لاحظناه من خلال تتبعنا لهذا الاتجاه السائد في هذا العصر .

والى جانب هذه الحركة العلمية الدينية التي كثيرا ما تصطبغ في نظر البعض بصبغة نظرية محضة بمعنى ان طبقة خاصة من الطلبة والفقهاء ورجال الدين عامة هي التي كانت مصدرا لها ــ وان الشعب كان يقوم فيها بدور المتلقي والمتأثر في أغلب الاحيان ، كانت هناك حركة دينية أكثر التصاقا بالشعب وأكثر اثارة لانفعالاته واستجابة لنزعاته الفطرية ، تلك هي الحركة الصوفية التي لعبت دورا خطيرا في حياة الشعب المغربي في هذا العصر ولا سيما في آخره . اتصفت بهذه الحيوية وهذه القوة لانها كانت بسيطة في بدايتها وعملية أكثر منها نظرية ، بعيدة عن التكلف ، لا تحتاج الى مجهود فكرى ولا عناء تلقيني ، اذ المتصوفة قبل كل شيء رجال يعبدون الله ويكثرون من ذكره ، ومن الصلاة في الليل والنهار ويقومون بحركات خاصة ، تجعلهم في موقف خاص ، وتؤهلهم للخشوع وللاتصال الروحي بالاله (الفناء) زاهدين في

---

1) محمد المنوني ، «نظم الدولة المرينية» مجلة البحث العلمي ، الرباط عدد 2 سنة 1964 ، صفحة 211 .

الدنيا بكل نعيمها وملذاتها ــ كان هذا السلوك الديني اذن سلوكا عمليا صرفا يتناسب مع بساطة الشعب وصفائه وخلو ذهنه من عادات وتقاليد يتخذها الفرد عن طريق الدرس والتلقين . وبذلك استطاعت الحركة ان تنشط نشاطا واسعا لاسيما في ضواحي المدن حيث يتصل المريد بشيخه اتصالا مباشرا وحرا وحيث يتم التفاعل بينهما على أساس عبادة الله والتفاني في حبه والتطهر من رجس الجسد ومن الرذائل التي علقت به ، ويذكر بعض المؤرخين ان الزوايا بدأت تنتشر في هذا العصر ، لاسيما في أواخره . لقد انتشرت بالفعل هذه الزوايا وتوسعت دائرتها ، لكن هذا الانتشار لم يكن بعيدا عن تأثير بني مرين ، خلافا لما زعمه بعضهم (1) ، ولم يكن يخالف رأيهم ولا اتجاههم ، لان الدولة كما رأينا آنفا ، كانت تعمل جاهدة ومخلصة لنفس الغاية ولنفس الاهداف ، كما كانت ترعى هذه الحركة وتحيط قادتها بعنايتها الخاصة . ويكفي مثالا على ذلك أن السلطان أبا عنان كان يتطارح على مقر الشيخ سيدي ابن عاشر بسلا علّه يحظى بمقابلته وينال من بركته ، لقد جاء في مصادر تاريخية متعددة أنه كان يتردد عليه كثيرا راجلا تواضعا منه وتشجيعا لرعاياه على اتخاذ نفس المواقف من رجال هذه الحركة رغم كونه لم يفلح في مسعاه ولم يتصل بالشيخ المذكور .

وجدير بالذكر هنا ان نشير الى ان هذه الحركة الصوفية التي بدأ انتشارها يقوى شيئا فشيئا في المغرب كانت تسير جنبا الى جنب مع الاتجاهات الاخرى الدينية السائدة في نفس الوقت . ذلك ان الطريقة الاكثر انتشارا في عهد بني مرين والاقوى تجاوبا مع الشعب كانت هي الطريقة الشاذلية وهي كما نعلم أقرب الطرق الى المذهب السني واكثر انسجاما مع التيار الشعبي الجارف في هذا الميدان . واذا تذكرنا ان مذهب مالك في الفقه هو السائد وان المذهب الاشعري في العقائد هو مذهب الامة بصفة عامة ، اتضح لنا ، رغم فروق شكلية واختلافات بسيطة مدى الانسجام والتكامل بين هذه التيارات الدينية المنتشرة في المغرب والتي كانت من أهم العوامل التي وحدت بين صفوف المغاربة في المقاومة التي نظموها ضد الاجانب (البرتغال على الاخص) .

واذا كان المجال لا يسمح لنا هنا بالدخول في تفاصيل هذه الحركة ، في نشأتها ، في تطورها وفي الظروف الملابسة لها والطرق المتبعة عند مؤسسيها او مريديها ، محافظة على وحدة الموضوع ، فمن المناسب ان نلاحظ انه كان لها ، بقطع النظر عن النتائج السياسية التي أدت اليها ، تأثير عميق في نفوس الشعب وفي سلوكه ومواقفه من الناحية الثقافية والنفسية والاجتماعية وغيرها من الميادين التي لا يمكن التعرض لها هنا .

واذا كان الجو الديني في المغرب كذلك بصفة عامة ، اذا كان قد انطبع بهذا الطابع الذي وصفنا أهم مظاهره ، أفلا يكون له بصفة مباشرة او غير مباشرة تأثير

---

(1) طراس . « تاريخ المغرب » ج 2 ص ، 27

على الادب بمختلف اشكاله وانعكاسات قوية او ضعيفة في اغراضه ؟ ذلك ما سنراه في موضعه .

اما النتيجة التي نستخلصها الآن من هذه المرحلة هي ان المجتمع المغربي في عصر بني مرين مجتمع يغلب عليه الطابع البدوي ، رغم اشعاعات فاس ومراكش وتطوان ومدن اخرى ، ومجتمع ديني في جوهره واشكاله ، بمعنى ان روح الاسلام وتعاليمه بلغت من نفوس المغاربة أشدها وطبعت سلوكهم الفردي والاجتماعي ، كما حددت وكيفت عقلهم ، وما يصدر عنهم من ردود فعل عاطفية وعملية ، في اجتماعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظرهم الى غيرهم من ذوي الجنسيات الاخرى . فكانت النتيجة هي شدة المحافظة والتمسك بالقديم الى درجة التزمت ، وذلك رغم اتصالهم بالاسبان عن طريق الاندلس ورغم العناصر المختلفة التي هاجرت من الاندلس الى المغرب وسكنت أهم مدنه الرئيسية ؛ والى جانب ذلك فهو مجتمع عربي في جوهره ومختلف مظاهره

الباب الثاني

مشاهير الادباء المغاربة

1) مالك بن المرحل
2) عبد العزيز الملزوزي
3) ابو العباس القباب
4) ابن بطوطة
5) أبو العباس احمد زروق
6) ابن رشيق
7) ابو عبد الله محمد العبدري
8) ابن رشيد
9) ابن داود السلوي
10) ابن عبد الملك المراكشي
11) ابن البناء

شخصيات مشتركة

ابن الخطيب
ابن خلدون
ابن مزوق

مشاهير الادباء في عصر بني مرين

قبل ان ان ننتقل الى التحدث عن هذه الشخصيات ، ينبغي ان نلاحظ اولا ان كثيرا من الالتباسات والاغلاط وقع متفي تحديد نسب الادباء وردهم الى اصلهم ، ذلك ان المغرب كان يسمى في عرف القدماء المغرب الاقصى والمغرب الادنى وحتى الاندلس. فاذا قالوا ان فلانا مغربي فليس معنى ذلك انه من المغرب الاقصى بالضبط . فتحديد الجنسية بالمعنى الحديث لم يكن مالوفا في العصور الوسطى ولم يكن يقام لـه وزن كاليوم لذلك كنت ترى في البلاطات عناصر مختلفة لا يشترط فيها ان تكون من المغرب الاقصى وانما كان يتطلب منها شروط أخرى لتلج سلك المخزن . ولقد رأينا في الفصل السابق ان بني مرين لم يكن يهمهم في الشخص سوى اخلاصه للرؤساء ولاسيما اعتصامه بدين الاسلام وتعاليمه . لذلك اصبح من الصعب ، والحالة هذه ، على المؤرخين التمييز بين الجزائري والمغربي والاندلسي في تحديد الانتاج الادبي ورده الى معينه الاصلي . اضف الى ذلك ان مما زاد الامر تعقيدا تنقل سكان المغرب بالمعنى العام بين اطرافه الشرقية والغربية وعدم استقرارهم في مكان معين على العموم ، وذلك حسبما تمليه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تفرض على المواطن ان يهجر مسقط رأسه الى مكان حيث الهدوء وحيث يطيب المقام ويلذ . وهو في هذه التنقلات متصل ، محتك بغيره ، متفاعل مع معطيات البيئة المادية والاجتماعية ، عامل ، منتج انتاجا نظريا او علميا معنويا او ماديا . وهكذا اصبح المؤرخون القدماء يردون نسب الاديب تارة الى البيئة التي عاش فيها وطورا الى مسقط رأسه ولو لم يقض فيه سوى بضعة ايام ، وطورا الى المكان الذي هاجر اليه ومات فيه رغم أن آخر ايامه فيه لم تتعد بضعة أشهر . ومما قاله ابن حزم في هذا الباب (1) (ان جميع المؤرخين من أيمتنا السالفين متفقون على ان ينسبوا الرجل الى مكان هجرته الذي استقر به ولم يخرج عنه رحيلا الى ان مات ... فابن مسعود كوفي وانما سكن الكوفة خمسة اعوام وقد بقي 58 سنة بمكة .. فمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به وهو منا ، ومن هاجر منا الى غيرنا فلاحظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به) .

---

1) انظر في رسالة المغرب العددا الرابع سنة 1954 ص 38 بحثا للاستاذ عبد الرحمان الفاسي تحت عنوان طنجة وآثارها .

ونتيجة لذلك ، أصبح من المتعذر التعرف على الانتاج المغربي بدقة وتحديد زمانه ومكانه بالضبط ، ونتيجة لذلك أيضا ان كثيرا من الادباء المغاربة الذين نشؤوا وترعرعوا في البيئة المغربية وقضوا معظم عمرهم فيها تاركين وراءهم انتاجا أدبيا له وزنه وتراثا فكريا لا يستهان به ، عدوا من الاجانب لمجرد كونهم غادروا المغرب في آخر أيامهم واعتبر انتاجهم من مخلفات بيئة أخرى لا تمت للمغرب الاقصى بصلة ، فاذا سمعت المالقي أو الغرناطي فليس معنى هذا اذن ان الامر يتعلق بانتاج لا حظ للبيئة المغربية في تكوينه أو في صقله ، بل يقتضي البحث والتحري في الموضوع ان نتتبع المنتج في رحلاته ونحن اذ نثير هذه الحقائق التاريخية هنا وهذه الملاحظات المتعلقة بالبحث الادبي ، انما نريد أن نلفت النظر الى الصعوبات الناتجة عن هذه الظاهرة في الادب العربي عموما والادب المغربي خصوصاً .

وبعد فالنتيجة التي نستخلصها من هذا العرض هي ان الادباء المغاربة كثيرون لكونهم ينتمون الى ما نسميه اليوم بالمغرب العربي والى الاندلس ثم لكون البيئه المغربية نفسها أنجبت لنا شخصيات كثيرة من الصعب وضع قائمة لها وحصرها في هذا النطاق الضيق . لذلك كان علينا أن نراعي ، فيما سنترجم لهم ، نسبة التمثيل الواسع والاختيار والاقتصار على عدد يتناسب ومستوى هذا البحث .

ابــن المرحـــل

عند ما نبحث في كتب التاريخ والادب وغيرها من مشاهير أدباء هذا العصر، تطالعنا شخصية سيطرت بذكرها وشهرتها على كثير من الشخصيات النابغـة في هذا الميدان . فابن المرحل كان ولا يزال اسما تردده الالسنة وتعتز بـه الاقلام في المحافل الادبية وكتب التراجم والتاريخ ، الا أننا ويا للاسف ، لم نعثر على ما كنا نتوقعه في دراستنا لترجمته وتقصينا لمظاهر سلوكه وتتبعنا لمراحـل اطـوار حياته ، من اخبار دقيقة ، واحداث بارزة تتناول حياته بجميع مراحلهـا ، وتهتـم بمظاهر تفاعله مع بيئته المادية والاجتماعية . وتسجل من قريب او بعيد العوامل التي تفاعلت في تكوين شخصيته بحيث يتجلى لنا بوضوح او بصفة عامة ما كـان يتصف به من صفات فكرية ، وطبيعية ونفسية واجتماعية على الخصوص .

وبالرغم من كون اسمه ظل لامعا ومتصدرا في ميدان الادب على العموم في هذا العصر ، فان الذين كتبوا عنه او ترجموا له لم يعنـوا غالبـا بهذه الناحية من شخصية مترجمنا رغم كونها تشكل عنصرا هاما من عناصر البحث الذي يـقـوم عليه الموضوع . فشخصية الاديب وحالته النفسية ومزاجه ، وطبعه وذهنيته ومدى تفاعله مع بيئة ، كل ذلك من العوامل التي لا يمكن اغفالها نظرا لما تلقي من أضواء على البحث وما تكشفه من أسباب كانت وراء هذا النـوع أو ذاك من الانتـاج أو من الاسلوب الـذي اهتـم له الاديب . ان معرفـة المنتج ضروريـة في نظرنـا قبل معرفة انتاجه واذا كان العذر هو قلة المصادر وعدم اهتمام المؤرخـين عـادة بالمنتج اهتمامهم بالانتاج نفسه ، فلنا في هذا الانتاج وسيلة نلجأ اليها علها تفيدنا بما نحن في صدده رغم ما يتطلبه الامر من تمحيص وتقصي لسير الاحداث خوفا من الوقوع في احكام أساسها العاطفة أو التسرع في الاستنتاج . فابن المرحل هذا ، كما هو معروف عند معاصريه او عند من ترجموا له ، هو ابو الحكم مالك بن عـبد الرحمان بن علي . كان مولده سنة 604هـ بمدينة مالقة حسب ما روته كتب التاريخ والادب ، الا ما كان من الاستاذين ابن تاويت وعفيفي (1) اللذين ذهبا الى ان مسقط

1) الادب المغربي ، صفحة 221 ، (بيروت 1960) .

رأسه كان بسبتة ، وهذا الخلاف كما رأينا ناشيء عن كثرة التنقلات بين الاندلس والمغرب في عصر بني مرين وعدم الاستقرار في مكان معين ، نظرا للاضطرابات السياسية والفتن الداخلية من جهة ولشدة العلاقات بين مملكة غرناطة ومملكة بني مرين في هذا العصر من جهة أخرى . فليس بعيدا ان يكون من مواليد سبتة كما آلفه الاستاذان الا ان المشهور في مسقط رأسه هو مالقة ، ولقد وجدنا ، ونحن نبحث عن هذه الحقيقة ، نسخة خطية قديمة من خزانة الكلاوي كتب في أول صفحاتها المتلاشية ما نصه : « قال الشيخ الامام الاجل-البارع الاديب ابو الحكم مالك بن عبد الرحمان المالقي نزيل سبتة » فالمخطوط اذن يشكل الى درجة ما حجة يعتمد عليها الباحث في اصدار هذا الحكم .

فابن المرحل اذن ولد بمالقة ونزل ، كما جاء في المخطوط القديم بسبتة ، ولكننا لسنا نعلم متى غادر مالقة وكم قضى فيها من عمره . سكتت المصادر عن هذا الانتقال ولم تدل بمعلومات لا عن الزمن الذي قضاه ابن المرحل في مالقة ولا عن الاسباب التي جعلته يغادر مسقط رأسه ، مع كون هذه المعلومات ليست من الجزئيات البسيطة التي لا يؤبه بها كما يظنه البعض فهي في نظرنا ، اساسية لما تلقيه من أضواء على سلوك الفرد النفسي والاجتماعي . فالبيئة الاندلسية ليست هي البيئة المغربية وليس ، تبعا لذلك ، سلوك من عاش في الاولى كمن عاش في الثانية اذ الاخلاق والعادات والقيم والمثل تتكيف وتختلف من بيئة الى أخرى ومن زمن الى آخر ، فالمجتمع الاندلسي كما هو معلوم ، يتكون في هذا العصر الذي نؤرخه من مختلف اجناس ، تختلف في العادات والتقاليد والثقافة والطقوس الدينية ، وليس كذلك المغرب . لذلك كنا نرغب في معرفة هذه المعلومات للالمام بالعوامل التي تضافرت في تكوين شخصية مترجمنا .

وعلى كل حال فابن المرحل ، كما يستنتج من آثاره ، لم يمكث طويلا بمالقة ، وانما انتقل الى سبتة وهو صغير السن . لم نلمس في شعره اثرا للبيئة التي كانت ولادته بها ، ولم نعثر لحد الآن على معلومات او على جزئية تفيد من قريب أو من بعيد في هذا الموضوع .

ومن المؤسف ان لا نجد في بيتين(1) أجاب بهما ابن القاضي بن عبد الملك عند ما سأله عن مولده كلمة او شارة يستدل بها على مقامه الطويل أو القصير بمالقة :

يا سائلا عن مولدي كي اذكره	ولدت يوم سبعة وعشره
من المحرم افتتاح اربع	من بعد ستمائة مفسره

---

1) مشاهير رجال المغرب للاستاذ كنون صفحة 6 .

وانما الذي يستنتج بوضوح من شعره انه عاش طويلا بسبتة رغم تنقلاته منها الى فاس والى الاندلس حسب الظروف والملابسات المحيطة بحياته . ذلك ان اتصالاته واحتكاكاته العادية والخاصة التي سجلتها كتب التاريخ كانت في عمومها تجرى في سبتة ومع رجال سبتة ، الشيء الذي يدل على تفاعله مع هذه المدينة وطول استقراره فيها .

لقد روت بعض المصادر صدى اصطدامات وقعت بينه وبين شخصيات أخرى في سبتة ، منها ما جرى بينه وبين ابن رشيق ساكن سبتة في هذا العصر الذي هجاه بقوله(1) :

لكلاب سبتة في النباح مدارك	وأشدها عند النهار بين مالك
شيخ تفانى في البطالة عمره	واجل يحكيه الكلام الآفك
احلى شمائله السباب المقرى	واعف سيرته الهجاء الماحك

وقد نقل الاستاذ كنون في كتابه مشاهير رجال المغرب خصومات كثيرة حدثت بين ابن المرحل وبين مواطنيه ولاسيما اهل سبتة . فابن رشيد السبتي تصدى للرد عنه عند ما انتقده ابن عبد المالك المراكشي وابن رشيق هجاه بشعره في سبتة والشاعرة سارة الحلبية عند ما دخلت سبتة مدحت ابن المرحل فاجابها بقوله(2) :

يا ندرة الدنيا لقد	حزت العلا بكمالك
وملكت افئدة الورى	فالناس فيك كمالك
ان قايسوك بمالك	الفوك أملك مالك

كل هذا يدل على ان صاحبنا ترعرع في احضان سبتة وبين ظهراني رجالها فابن رشيد هذا وابن رشيق وغيرهما عاصرا مترجمنا وعاشا معه في مدينته وجها لوجه ، وفي شعره ايضا اشارات وتلميحات اخرى كلها صدى لحياته في سبتة .

واذا كلنا نعلم أن سبتة من أهم مدن المغرب في ذلك العصر ، ومن أكبر مراكزه الثقافية كما اسلفنا نظرا لموقعها الجغرافي الرابط بين العدوتين ولكونها نقطة ارتكازية يلتقى فيها الواردون من الاندلس الى المغرب والمغاربة والمشارقة الوافدون الى الاندلس اذا علمنا ذلك أدركنا مدى الدور الذي كانت تلعبه هذه المدينة الشاطئية من الناحية الثقافية ومن الناحية الاجتماعية والسياسية على العموم ، وبقطع النظر من ذلك ، فهي مشهورة منذ القديم بحضارتها العريقة وبأصالتها وبرجالها في ميدان الثقافة والحرب ، فاشهر رجالات المغرب منها أو عاشوا فيها ، لقد انجبت

---

1) الاحاطة المجلد الاول تحقيق عبد الله عنان (مصر) صفحة 481 .
1) الاحاطة المجلد الاول صفحة 481 .

من العلماء والفقهاء والادباء والزعماء ما لم تنتجه مدينة اخرى فى مستواها . ويكفيك مثالا على ذلك ان القاضي عياض صاحب المؤلفات الشهيرة منها ولسنا فى حاجة الى التعريف بهذه الشخصية نظرا لشهرتها فى العالم العربى كله ، وانما الذى يجب ان نلفت النظر اليه هو ما لقيه الموحدون من معارضة على يد هذه الشخصية التى كانت تدافع عن عقيدتها ضد البدعة الموحدية وان العزفيين المشهورين بالعلم والتقوى وابن رشيد وابا العباس السبتي وغيرهم من المشاهير كلهم من هذه التربة التى تميزت بشخصيتها القوية وبطابعها الخاص فلا عجب اذن ان يتأثر ابن المرحل بهذه البيئة التى شب فيها وترعرع فى احتكاك وتفاعل مع العلماء والادباء والفقهاء والصوفيين ولا غرابة ان يربى تربية اسلامية متينة خالية من كل بدعة وانحراف ، فمذهب مالك والاشعرية كانا على اشدهما فى زمنه وقبل زمنه لاسيما بسبتة حيث عاش عياض زعيم المالكية ورائدها الذى ضحى بنفسه فى سبيل عقيدته ولم يستسلم امام قوة الموحدين .

ولقد اثرت تلك البيئة الدينية تأثيرا بليغا فى صاحبنا ، وطبعت سلوكه بطابع روحى لم يفارقه حتى الممات . لقد كان عفيفا طاهرا ليس فى سلوكه ما يخل بالاخلاق او يمس بتعاليم الاسلام على العموم ، بل ظل متشبثا بهذه الروح الدينية القويه حتى اصبح بعضهم يعده من رجال الصوفية والواقع ان فى شعره ما يؤكد تغلب هذه النزعة الدينية عليه ويلقى ضوءا على تفانيه فى حبه لله ولرسوله من ذلك قوله:

تناسى فؤادى كل حب بحبه　　كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة

وهكذا يستمر ابن المرحل فى مدح النبى اشفاء لغليله وأداء لواجبه سواء فى هذه القصيدة أو فى قصائد أخرى نظمها لنفس الغاية ، مما يؤكد هذه النزعة الروحية التى تطبع سلوكه . والظاهر من هذه الابيات ومن غيرها أن الشاعر لم يحظ بتلك الامنية الغالية على كل مسلم ولا سيما فى ذلك العصر ، وهى الحج الى بيت الله الحرام ، ظلت الرغبة ملحة لديه الى وفاته دون اشباعها ، ولسنا نعلم السبب الذى حال بينه وبين تلك الرغبة ، رغم محاولاتنا لتفهم الاحداث والوقائع التى شهدتها بيئته والظروف والملابسات التى كانت تحيط به مع أنه عمر حتى تجاوز الثمانين :

يا أيها الشيخ الذى عمره　　قد زاد عشر سبعين

ثقافته

لم تهتم المصادر التاريخية كعادتها بتحديد نوع الثقافة التى تلقاها شاعرنا ولم تبين بتفصيل ودقة المناهج التى اتبعها فى دراسته الابتدائية والثانوية والعالية اللهم الا ما جاء فى اشارات عابرة ولمحات خاطفة فى بعضها كنفح الطيب وازهار الرياض والاحاطة ، الا أننا رغم ذلك يمكننا أن نستنتج من تكوين ابن المرحل

فكرة عن هذه الثقافة وعن الاساليب التي اتبعها ، وليس من الطبيعي أن تكون هذه الثقافه خارقة للعادة أو مختلفة عن الثقافة التي كان يتلقاها غيره من المواطنين المغاربة ولاسيما في سبتة .

لقد كانت هناك تقاليد وعادات فرضتها الظروف الدينية والاجتماعيه حتى أصبحت جزءا من القيم والمثل العليا السائدة في ذلك العصر . لقد جرت العادات أن يبدأ الطفل بحفظ القرآن الكريم وباستظهاره قبل كل شيء ، وابن المرحل ، كما جاء في بعض المصادر التي اهتمت بترجمته ، حفظ القرآن كسائر مواطنيه بل اتقن قراءاته السبع ثم انتقل الى المرحلة الثانية وهي دراسة اللغة العربية وما يتصل بها من علوم . فقد كان من المقرر في سبتة وغيرها أن يقرأ الطالب في هذا الميدان كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب وكتاب الامالي لابي علي القالي ، والفية ابن مالك والاجرومية وغيرهما(1) من أمهات الكتب المصنفة في الفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروض . كان الطالب في هذه العلوم وفي غيرها يعتمد على المتن كأساس لتعلمه ويعتمد خصوصا على الحفظ والاستظهار كي تقوى ملكة اللغة فيه ويكتسب الروح العربية عملا بقول الشاعر :

علمي معي حيث ما يممت يتبعنـــي	صدري وعاء لـــه لا بطـــن صندوقـــي
ان كنت في البيت كـــان العلم فيـــه	وان كنت في السوق كان العلم في السوق

واذا علمنا أن ابن المرحل كان قاضيا بالاندلس أدركنا مدى تطلعه في الفقه والشريعة الاسلامية على العموم . ذلك أن القاضي في هذا العصر كسائر العصور الوسطى ، كان الى جانب المامه باللغة العربية وسائر فروعها ، ملما بأصول الفقه وأصول الدين وذلك عن طريق دراسة رسالة أبي زيد والمدونة وغيرهما من أمهات الكتب التي لا مناص منها للفقيه .

ولكن لماذا نذهب بعيدا وأمامنا آثار ابن المرحل ، قد نجد فيها ما عساه ينير السبيل ويفيدنا في تحديد تكوينه ، فالى جانب شعره الذي قد نجد منه بعض القصائد وأبياتا متناثرة هنا وهناك ، نجد مخلفات أخرى اشارت اليها بعض المصادر . ففي الادب ترك ابن المرحل ارجوزة في العروض ، ونظم الثلث من أدب الكاتب ، وفي الفقه والعلوم الاسلامية عامة ترك نظم التيسير في القراءات ثم نظم غريب القرآن وأرجوزة في الفرائض وفي النحو وفقه اللغة نجد له نظم الفصيح لابي العباس ثعلب ، وفي مدح النبي ارجوزة سماها الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة الى غير ذلك من المؤلفات التي لم نقف عليها لحد الآن .

فنظرة خاطفة على هذا الانتاج تعطينا فكرة عن نوع الثقافة الذي تلقاهـــا مترجمنا فهو ، كما رأينا يكثر من النظم ، بل يعمد الى ما صنف في النحو أو الفقه

1) طبعا بعد ظهور هذين المؤلفين

عنه ولو قليلا رغم ما في ذلك من صعوبات تعترض الناظم في هذا العمل وتقيــد أو المنطق أو القران فينظمة في أبيات تارة مختصرا وأخرى متقيدا بالنص ، لا يخرج حريته . ثم نراه الى ذلك يخص النبي صلعم بقصائد من عنده يتقنن فيها لغة ويتفانى فيها محبة واخلاصا للرسول وتوسلا به لآخرته كما قال في شعره :

بمدحي له ثم استشفعت ثم بمحبتي	أما لي في مدحـه تشفيع وفي حـسب
بـلى ان في مـدح النبـي وسيلـة	وفي جبه أخرى فحسبي هـما حسب

وهكذا يتضح لنا أن مالك بن المرحل تلقى ثقافة عامة اسلاميـة في جوهرها ، ولغوية في شكلها وبذلك كان فقيها وعالما لغويا ، قبل كل شيء ، الشيء الذي أهله لتبوؤ منصب القضاء ، وهي وظيفة لا يحظى بها في عصر بني مرين ، كما رأينا ، الا من برز واشتهر ورقى بعلمه وتفقه في دين الله ؛ وكذلك كان الامر ماتصل ابن المرحل بالقصر وأصبح من حدامه كأتبا أو شاعرا . لسنا نعلم عنه شيئا في بداية أمر هذه الدولة لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الثقافية ، ولكن الغالب على الظن أنه كان معتصما في هذه الايام الصعبة أي قبل استقرار الامر لبني مرين ، ببيئته في سبتة التي كانت كما رأينا تعج برجال العلم والادب وشيوخ الفقه والمتصوفة ، فكان ابن المرحل بين ذويه وبين اقربائه وأصهاره الذين كانوا غالبا من ذوي العلم والمعرفة والصلاح . يكفي مثالا على ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم الانصاري(1) العالم الاديب الفقيه المحدث هو زوج أخته وأبا الحسن التلمساني شيخ ابن الخطيب هو حفيده ، ومع ذلك لم يلبث أن فارق أهله وأصدقاءه رغم كبر سنه فانتقل الى فاس بعدما انجلت الظروف وصفا الجو السياسي وخلص الامر نهائيا الى ملوك بني مرين . لقد تحدث عن هذا الانتقال بعض المصادر ذاكرة أنه كان في خدمة السلطان أبي يوسف يعقوب ثم أبي يعقوب يوسف . كان من سفرائهما ، كما كان من كتابهما الاقربين(2) وبالفعل وجدنا في شعره صدى لهذا الاتصال وأثرا لهذه الاحداث التي كانت تقع في العدوة الاندلسية ، وتنعكس على نشاط الدولة المرينية وعلى الشعب المغربي بأجمعه . نعلم من ذلك ما نظمه في مدح الامير أبي مالك ابن أبي يوسف مهنئا اياه بفتح مراكش ثم ما قاله في الحث على الجهاد ضد النصارى في الاندلس وهو يومئذ بالبلاط المريني في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف . وبعد هذا الاتصال بالبلاط المريني الذي بدأ منذ استيلاء الدولة نهائيا على الحكم واستمر الى آخر عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، لم نعد نعلم شيئا عن نشاط ابن المرحل في هذا البلاط ، فانقطع خبره رغم كونه عمر طويلا وعاش الى آخر هذا العهد ، الى أن توفي ودفن بفاس .

---

1) أنظر ترجمته في الاحاطة المجلد الاول صفحة 277 .

2) الناصري ، الاستقصاء ، ج 3 صفحة 88 انظر كذلك الذخيرة السنية تحقيق ابن ابي شنب ص. 80 - 90 .


بسم الله الرحمن الرحيم ♦ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

الصفحة الاولى من الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والاخر لمالك بن المرحل مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج 89 .

عبد العزيز الملزوزي

ونجد كذلك في هذا العصر أديبا آخر بارزا أشارت اليه بعض المصادر وذكرته واصفة اياه بأوصاف النبوغ والبروز ، رغم كون هذه المصادر كلها لم تحفل بحياته الشخصية ولا بجوانب سلوكه النفسي والاجتماعي داخل الاطار الذي كان مسرحا لتفاعلاته وتكيفاته ؛ لذلك لم نعثر على ترجمة وافية لعبد العزيز الملزوزي ولا على ترجمة وجيزة تساعدنا على تفهم أسس هذه الشخصية . لذلك كان لا بد ، الى جانب هذه الاشارات العابرة في بعض الكتب ، ان نتيجة الى ما تركه لنا الملزوزي من آثار ، الا أن هذه الناحية لم تكن مع الاسف بكافية لاعطاء فكرة عن حياته والاطوار التي مر بها منذ ولادته الى وفاته . لقد اتضح بعد مقارنة الرويات أن اسم مترجمنا الحقيقي هو أبو فارس عبد العزيز الملزوزي بن عبد الواحد بن محمد كما جاء في أرجوزته نظم السلوك[1] وقد أبى الشاعر الا أن يذكر نسبه في هذه الارجوزة قائلا:

حتى تكون هذه الارجوزة تكتسب بها العجز ملزوزة

اهتم بذكر نسبه في مقدمة مؤلفه لما في ذلك من تعظيم ، وتشريف ولما في ذكر الحسب والنسب من فوائد اجتماعية وقيم خلقية يعتز بها الفرد لاسيما عند العرب الذين اشتهروا منذ القديم بهذه الخاصية ؛ ولم تكن هذه الظاهرة وليدة هذا العصر أو العصر الذي قبله ، وانما كانت من التقاليد الاجتماعية التي توارثها العرب خلفا عن سلف منذ الجاهلية . ولقد بحثنا عن هذه القبيلة لمعرفة موقعها الجغرافي في المغرب وأهميتها بالنسبة للقبائل الاخرى التي ما زالت محتفظة بأسمائها الى اليوم ، الا أننا لم نقف على شيء نهتدي به للوصول الى المنبع أو لاقامة علاقات تجعلنا نطمئن الى نتيجة موضوعية . قد يكون السبب في ذلك كما أسلفنا أن قبائل زناتة ، وشاعرنا منها ، اندثرت كلها أو جلها نظرا لاستعراب أغلبيتها واندماج أكثر قبائلها في القبائل العربية التي كانت تنسجم معها الى حد بعيد . وعلى كل حال ، فقد كنا ننتظر من عبد العزيز ان يذكر لنا في انتاجه ، كما سبق أن ذكر نسبه ، شيئا يتعلق بولادته أو تاريخها ، لكنه لاذ بالصمت ومر سريعا ينقل لنا أخبار بني مرين والوقائع التي حدثت في زمنهم .

تربيته وأخلاقه

يذكر المؤرخون أن صاحبنا كان من سكان مكناس ، لكن لم يذكروا هل سكنها طفلا ، أو كانت مسقط رأسه ، غير أنه يستنتج من شعره ومن الاحوال

1) هذه الارجوزة عثر عليها بكاملها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور الذي يرجع له الفضل في ابرازها الوجود ونشرها ضمن مطبوعات القصر الملكي بالرباط سنة 1963 .

التى عاشها أنه سكن هذه المدينة مدة طويلة قبل أن يتصل ببلاط مرين ؛ ومكناس في ذلك الوقت مدينة زاهرة مزدهرة من الناحية الفلاحية والاقتصادية بصفة عامة - كما وصفها صاحب الروض الهتون فى مكناسة الزيتون(1) وكان بها علماء أجلاء وفقهاء اشتهروا بغزارة علمهم وقوة باعهم فى العلوم الاسلامية على العموم - وقد أثر ذلك الجو في مترجمنا أيما تأثير حيث كان متشبعا بروح الاسلام وبعقيدته المتينة . وليس من شك فى أنه حفظ القرآن كمعاصريه قبل أن يتعلم اللغة العربية وفروعها وقبل أن ينكب على دراسة الفقه وأصوله وأسسه ، ذلك أن فى أرجوزته ما يدل على هذه الروح الاسلامية القوية التى سيطرت على اتجاهه ، فطبعت اعتقاده وسلوكه ؛ فهو فى ارجوزته هذه يهتم قبل كل شيء بذكر النبى وبنسبه وبجميع الخلفاء الراشدين وبالاشارة الى مواقفهم لنصرة الاسلام والذود عن كيانه .

ثم نراه الى ذلك يكثر فى منظومته من الاستشهادات القرآنية والتضمينات الحديثية الشيء الذى يدل على مدى تأثره بالقرآن وبالسنة من جهة ثم على حفظه للقرآن حفظا متينا وروايته للاحاديث النبوية وسيرة الصحباء والخلفاء . ومثالا على ذلك نورد له هذه الابيات التى اقتبسناها بصفة عفوية من ارجوزته(2) للدلالة على ما قلناه :

أليس ذلك بقادر على ... ان يحيى الموتي فقل لا أو بلى

ثم يقول :

نفوسنا بشرية تعل ... ان لم يصبها وابل فطل

أما الفقه فقد نال منه الشيء الكثير نظرا للظروف المحيطة به ومعطيات مجمعه الدينية والخلقية . وكان لابد من أن يدرس الفقه وأصوله والعلوم المتفرعة عنه . ولولا ذلك لما دنا من بلاط بنى مرين اذ كان المفروض فيمن يقترب منهم ويقصد حضرتهم ان يكون قبل كل شيء فقيها ، متدينا ، عالما بأمور الشريعة الاسلامية ، فكان ذلك هو الاساس وهو المقياس الجارى به العمل فيما يرجع للتوظيف ، وفيما يرجع لولوج الحضرة المرينية ، هذا بالنظر الى أن الواردين على بلاط بنى مرين من العدوة الاندلسية أو من افريقيا كانوا نبغاء ، فقهاء وعلماء ، فالتيار الجارى والضغط الاجتماعي المتحكم فى هذه البيئة آنذاك كان يفرض على المثقفين أن يسايروا الركب ويندمجوا فى حظيرة الطبقة المثقفة المحظوظة . كانوا عليهم أن يتكيفوا ويسلكوا سلوكا خاصا يرفعهم الى الدرجة المنشودة والى المكانة المرموقة حسب القيم الاجتماعية السائدة في ذلك العصر . فكان اذن صاحبنا فقيها ، عالما بالاصول وبالفروع ، ويؤيد هذا أن السلطان أبا يعقوب يوسف ، عندما حلت المجاعة بالمغرب سنة 693هـ لجأ الى

---

1) ابن غازى العثمانى تحقيق ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مطبوعات القصر الملكى بالرباط .

2) سنتحدث عنها فى آخر هذا البحث

الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي لتبديل الصيعان المستعملة في ذلك الوقت واحلال محلها مد النبي صلعم ، نظرا لغلاء المعيشة وارتفاع ثمن القمح الذي أصبح يبلغ عشرة دراهم . وهكذا لجأ السلطان نفسه في هذه الظروف العسيرة الى فقيه كي يكتسي الاصلاح صبغة شرعية لا تخرج عن تعاليم الاسلام ، فكان فقيهنا هو المستشار الذي يستفتي في الامور المتعلقة بالمعاملات التجارية وغيرها ، ومعنى ذلك أن عبد العزيز الملزوزي كان شاعرا(1) كما ذكرت بعض المصادر التاريخية وفقيها كبيرا كما استنتجناه من آثاره ومن الظروف المحيطة به في مجتمعه .

أما اتصاله بالبلاط المريني فكان حقيقة تاريخية لا تشوبها شائبة نظرا لما وقفنا عليه من آثار تثبت هذا الاتصال ؛ الا أننا لم نعرف متى بدأ هذا الاتصال وكيف تم . ولعل السبب في ذلك راجع ، على ما يبدو ، الى كون العصر الاول لبني مرين كان عصر حروب وفتن داخلية وخارجيه اذ كان الصراع على أشده بين ملوك الموحدين المنهارين وبين بني مرين المتسلطين على الحكم بالقوة والسيف ، فالفترة اذن كانت عصبية ولا تسمح بالظهور على مسرح الاحداث الا لمن كان يتوفر عـلى شجاعة قوية وحرص مكين على اظهار معارضته للحكم القائم أو مناصرته له ، رغم المحن والاضطهادات التي يكون معارضا لها . وعلى كل حال فلم يرد ذكر في الفترة الغامضة لمترجمنا لسبب منه أو لاسباب خارجة عن ارادته ، رغم كونه ينتمي الى قبائل زناتة التي انبثقت منها قبيلة بني مرين وغيرها ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت الاسباب التي كانت وراء اختفائه في بداية الازمة القائمة ، فان عبد العزيز ربط مصيره بمصير ملوك بني مرين الاولين ، منذ استقلوا بالسلطة وخلا لهم الجو السياسي ، أي منذ قضى يعقوب بن عبد الحق على الموحدين بمراكش واستقر بمدينة فاس . فكان شاعرنا هذا يلازمه كما لازم ابنه أبا مالك ثم السلطان أبا يعقوب الى أن قتل سنة 697هـ ، أي قبل وفاة السلطان المذكور بتسع سنوات . فيكون اذن مترجمنا معاصرا لمالك بن المرحل ولادباء آخرين سناتي على ذكرهم ، الا أننا لم نجد رغم تحرياتنا وتقصياتنا ، ما يفيد أو يشير الى كون صاحبنا انتقل كثيرا من العدوة المغربية الى العدوة الاندلسية أو قام برحلات أخرى خارج المغرب كما كان الشأن بالنسبة لمعاصريه من الفقهاء والادباء والعلماء فقد كنا نتوقع ذلك التنقل الكثير وذلك الترحل نظرا لما كان العمل به جاريا في ذلك العصر ولاسيما في عهد السلطان أبي الحسن .

الا أن القصيدة التي نظمها بمناسبة عودة أبي يوسف يعقوب من الجهاد في الاندلس ، قد تكون حجة يستدل بها على مرافقته لملكه في هذه المعركة التي دارت رحاها بالاندلس لان صاحبها يصف فيها المعارك والاصطدامات والاتصالات وصف شاهد عيان ولانه يلم بالجزئيات ، والمرئيات ، والمسموعات التي لا يمكن أن ينقلها الا من كان يخوض المعركة أو من كان يشرف عليها ؛ وعلى هذا فقد يكون صاحبنا

---

1) كان كاتبا لابي مالك بن ابي يوسف يعقوب انظر الذخيرة السنية ص. 76-86

رافق يعقوب بن عبد الحق في احدى المعارك التي خاضها ضد نصارى الاسبان ولم يكن ذلك مستبعدا كما أسلفنا .

وعلاوة على ذلك ، فقد بقي الملزوزي ملازما لرؤسائه وأولياء نعمته الى أن كانت وفاته على أيديهم سنة 697هـ بسبب جناية اقترفها فقتل في السجن خنقا بفاس .

آثـــــــاره

أما آثاره فهي تتلخص حسب ما وقفنا عليه لحد الآن في قصائـد وفي أبيات متناثرة هنـا وهناك ، ثم خصوصا في أرجـوزة طويلة سماها كمـا قـال هو بنفسه :

سميتها مـن حسنها نظم السلـوك   في الانبيـاء والخلفـاء والملـوك

وهي تقع في 1325 بيتا نظمها على بحر الرجز ولقد أشارت اليهـا بعض المصادر كالذخيرة السنية وروض القرطاس ذاكرة منها بعض الابيات الى أن عثر عليها في مخطوط قديم الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فنشرها لاول مرة كاملة ، وهي الآن مطبوعة في متناول القراء .

أبـو العبـاس القبـاب

ان أبا العباس احمد المشهور بالقباب من الشخصيات المغربية التي لا يقل أثرها عن تلك الشخصيات التي تعرضنا لها فيما قبل رغم كـون المصادر الادبية والتاريخية لم تحفل به كغيره ، ولم تخصه بعنايتها وتقديرها طبقـا لاستحقاقـه وكفاءته : وليس من الغريب في ذلك من شيء ما دمنا نعرف أن نفس المصير لقيه كثير من علماء المغرب ونبغائه ومشاهير رجاله الذين قل منهم من وجد انصافا من لدن معاصريه على الخصوص الذين كانوا رغم قدرتهم على الكتابة ، يفضلون السكوت أو يعمدون الى طمس آثار هؤلاء الاعلام لاغراض سياسية أو شخصية محضة . الا ان السبب قد يرجع في بعض الاحيان الى الشخصية المعينة بالامر التي تظل قابعة ، ساكنة لا رغبة لها في الظهور والبروز . ولعل صاحبنا كان من هذا النوع الذي لا يميل بطبعه الى احتلال المقاعد اللامعة والمحافل الرسمية والخوض في المعارك الدنيوية التي كان من الممكن ، نظرا للظروف التي كان يعيشها المغرب ، ان تسبب له أحداثا لا قدرة له على تحملها ؛ انه ، حسبما وقفنا عليه ، رجل خير وصلاح ويسر قبل كل شيء ، بل أكثر من ذلك ، كان حسب معاصره ابن الخطيب ، ناسكا زاهدا في الدنيا ، مائلا عنها ، لقد «نسك ورفض العيش» وما ذلك كله الا أنه كان متشبثا بالروحيات ،

غير مبال بالماديات وما وراءها من نفع ومصالح زائلة . ولعل هذه التربية الروحية المتينة ، وهذه الصفات الخلقية الحميدة هي التي جعلت القباب يعتذر عن لقاء ابن الخطيب عندما وجه له الدعوة وهو يومئذ بفاس ثم بسلا لاجئا منتظرا مصيره بعد أن عصفت الاحداث بمكانته وبمكتسباته بالعدوة الاندلسية . ان القصة مشهورة خلدت شهرتها تلك الرسالة المعروفة التي كتبها ابن الخطيب اثر هذه الحادثة وسماها «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة» . لماذا لم يستجب القباب لدعوة ابن الخطيب رغم شهرة هذا الاخير ومكانته السامية وسلطته الخطيرة في المغرب أو خارجه ؟ لماذا لم يلب الدعوة اذن ؟ ان القرائن والاحوال تدل على أن القباب تعمد التأخر وأبى الاتصال بابن الخطيب رغم الاعتذار الذى صدر منه بعد ذلك . بماذا كان اذن يعلل هذا التأخر ؟ لم تكن بينهما علاقات خاصة ولم يسبق لهما أن التقيا التقاء خاصا نتج عنه سوء تفاهم أو اصطدام . أما نحن فنرجح أن سبب هذا التأخير هو القباب نفسه ، طبعه ، تكوينه ، تربيته ، وغير ذلك من العوامل التي جعلت الهوة عميقة بينه وبين رجل أقبل على الدنيا بكل مواهبه وقدراته وخاض غمارها بكل وسائله وحيله ودهائه ، بل وبمكره في بعض الاحيان ؛ فالتناقض كان اذن صريحا بين الرجلين رجل يتخذ من دنياه وسيلة لآخرته ورجل يملا حياته بنشاطه مستثمرا خيراتها ، مستغلا حوادثها ، عاملا على البروز فيها وادراك جاهها واعلاء سلطانه فيها . فنحن هنا اذن بين ضدين بين السلب والايجاب أو كما يقول علماء النفس بين الانا النفسي والانا الاجتماعي . فالتأخر ادن كان مقصودا ، والاجتناب غاية رمى اليها القباب فكان من نتائجها ما كان يتخوف منه ، وما كان يعمل على اجتنابه اتقاء لشر ابن الخطيب وبأس أمثال ابن الخطيب ، وعلى كل حال فالامر واضح والقباب جنى على نفسه من حيث لا يريد ، ومزقت أعراضه وأعراض أمثاله ، وطار صيته واكتسب سمعة ما كان في حاجة اليها . يكفيه فخرا أن تتوج أعماله الصالحة وسلوكه الحميد بأن يرسله السلطان أبو سعيد ابراهيم (762) سفيرا الى غرناطة في مهمة دينية صرفة(1) ففي ذلك دليل آخر على روحانيته وصدق سلوكه ، وثقة ملك البلاد في استقامته .

ثقافته

أما ثقافته فتكاد تكون منحصرة في الفقه حسبما ورد في بعض المصادر التي تعرضت له بصفة مباشرة أو غير مباشرة وذلك أنه كان عدلا موثقا بفاس بل صدر عدول الحضرة الفاسية ثم ولي القضاء بجبل طارق ، وهاتان الخطتان تحتاجان ، بلا ريب ، الى تكوين متين في الاحكام الشرعية والنوازل الفقهية المختلفة ، نظرا لما كان يعرض على أصحابها من قضايا ومقالات متنوعة تستوجب الحسم والبت فيها بدون

---

1) الاحاطة صفحة 194 (دار المعارف بدون تاريخ .

مراوغة أو تردد خصوصا في زمن بني مرين حيث أصبحت مادة الفقه كما أسلفنا من المواد الاساسية التي يتكون فيها الطالب تكوينا قد يكون على حساب مواد أخرى . ولا غرابة في ذلك فمترجمنا كان هو الآخر أحد صدور الفقهاء في عصره ومن حفاظ مذهب مالك . نحن لا نستغرب تلك الظاهرة لان مذهب مالك في الفقه أصبح مسيطرا ومتحكما في شؤون الامة ، والفقهاء والعلماء يصدرون عنه ويرجعون اليه في كل المناسبات والظروف ، فلقد استرجع مكانته وسلطته في عصر بني مرين بعدما مر بفترات عصيبة في زمن الموحدين ، فالتبحر في الفقه والتمسك به جعل صاحبنا يحفظ مذهب مالك عن ظهر القلب ، وليس ذلك في متناول كل أحد ، ولا بالامر السهل رغم كون البرامج المقررة في ذلك العصر كانت في معظمها تعتمد على الذاكرة والاستظهار . واذا كان القباب من حفاظ مذهب مالك ، فان اتجاهه وميله كانا على ما يبدو ، منذ نشأته ، متفقين مع المناهج السائدة في عصره ، الشيء الذي قوى الانسجام ووحد الاتجاه ورسم الطريق أمامه يسير فيها بدون تردد أو تراجع .

ولقد توج هذا التكوين المعين بأن احتل القباب مكانة مرموقة في عصره اذ أصبح مدرسا لمادة الفقه يستفيد منه الطلبة وغيرهم ، كما يستفتى في مسائل شائكة استعصت على كثير من الفقهاء وذوي المعرفة ثم أصبح عدلا موثقا بفاس حيث تعرف عليه ابن الخطيب ثم عين قاضيا كما أسلفنا .

بعد هذا نتساءل عما اذا كان القباب قد اكتفى بهذا النوع من التكوين كما أكدته المصادر التي اهتمت به أم تجاوز هذا الحد . لم نعثر على ما يفيد في الموضوع ، لا ما يؤكد ولا ما ينفي ، الا أننا نرجح أن القباب كان بارعا في اللغة وفي الادب بدليل أنه ترك شعرا يستنتج منه الباحث أن صاحبه لم يكن من المبتدئين أو ممن لم يمارسوا نظم الشعر ، علاوة على أن ثقافة العصر لم تكن لتسمح للطالب باهمال دراسة اللغة وفروعها . ان ما جرى على ابن المرحل وعلى ابن رشيد وعلى الملزوزي وغيرهم من نبغاء هذا العصر يجري بصفة عامة على القباب ، نظرا للتقاليد السائدة ، والمناهج المعهودة التي دخلت في حكم القيم الاخلاقية والمثل الاجتماعية والمعايير التي يقاس بها الادراك والنبوغ .

القبـاب بالبـلاط المرينـي

يبدو أن القباب كان مرتبطا بالبلاط المريني أيما ارتباط ، اكان ذلك لعلمه وتقواه وصلاحه أم كان لامر نجهله لحد الآن ؟ ان كل ما نعلمه أنه فاسي الاصل والنشأة ، وانه من البيوت التي اشتهرت بالعلم في فاس منذ القديم . أيكون قريبا من أسرة بني مرين أو من القبائل الزناتية التي استعربت في القرن العاشر ، لما

نعلمه من النزعة القبلية وأثرها فى تقريب الافراد وابعادهم ، رغم كون ملوك بنى مرين ، كما رأينا ، لم يكونوا عادة يراعون فى تعيين موظفيهم سوى صفاء العقيدة الاسلامية والاخلاص للدولة وحمل راية العلم غير مبالين بمبدا الجنسية كما هو الشأن اليوم . قد يكون هذا أو ذاك وقد تكون هناك عوامل أخرى خفيت علينا وراء هـذا التقريب الذى جعل صاحبنا يضطلع بمسؤوليات ضخمة ويكلف من طرف السلطان أبى سالم بمهام سرية فى بعض الاحيان ، ولا أدل على ذلك من كونه أسند اليه سفارة بغرناطة ثم أرسله الى سلا فى مهمة وصفها ابن الخطيب(1) بكونها تدخل فى اطار «اختبار واستطلاع الاحوال السلطانية» فما قاله ابن الخطيب عنه وهـو مقيم حينئذ بسلا يتجسس الاخبار ويسعى فى اكتناه الامور للاطلاع على صغيرها وكبيرها ، ما قاله عنه يدل على كون القباب من الخواص أو من حاشية البلاط المرينى .

ومع ذلك فلسنا ندرى ماذا كان مصيره بعد وفاة السلطان أبى سالم أى ما بين سنة 766هـ وسنة 799هـ التى توفى فيها القباب .

ابـــن بطـــوطـــــة

لمع فى عصر بنى مرين اسم آخر ، كان له أثر بليغ فى الاوساط المغربية وغيرها من بلدان العالم ، ذلك الاسم هو ابن بطوطة المغربى الذى طبقت شهرته الآفاق وطار صيته فى كل محفل ومقام حتى أصبح ، حسب لغة العصر ، من الشخصيات الدولية التى يقام لها ويقعد فى كل المناسبات . عرف العصر المرينى ميلاد هذه الشخصية بل عرف بها ، فكانت دليلا عليه وعلامة من علامات ازدهاره ورقى حضارته .

لذلك كان لا مفر لنا ، ونحن نحاول التعرف على مشاهير رجاله ، من التعرض لشخصية ابن بطوطة لابراز معالمها وتوضيح آثارها . لم تختلف المصادر التى ترجمت له لا فى اسمه ولا فى نسبه كما حدث فى ترجمة كثير من الاعلام المغاربة ، فكان الاجماع على أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتى أصلا والطنجى نشأة ، المشهور بابن بطوطة ، فهو اذن من أصل بربرى من قبيلة لواته التى استقرت بالمغرب الاقصى منذ زمن بعيد ، ولا يستبعد أن تكون من القبائل التى اضطرتها الظروف السياسية والاجتماعية الى الهجرة فاختارت المغرب مقرا لها ، فكان منها ابن بطوطة كما كان منها غيره من الشخصيات التى اشتهرت بعلمها أو بصلاحها . كان مسقط رأسه بطنجة حيث ولد سنة 705هـ وكانت نشأته بها فى ظل والديه الى أن بلغ سن الرشد بل ظل فيها حتى أكمل نضجه وقويت شخصيته وألحت عليه الرغبة

---

1) الاحاطة المجلد الاول صفحة 192 (مطبعة مصر بدون تاريخ)

في مغادرتها استجابة لنادي الفريضة المقدسة التي كان عليه أن يؤديها كما أداها غيره من المغاربة الذين فارقوا أوطانهم وأهلهم مستسهلين الصعاب ومتحملين المشاق والاهوال ليحجوا الى بيت الله . انها أمنية غالية ودافع قوى وملح يحرك النفوس فى كل لحظة وفى كل حين ، يخلق فيها تحرقا وتشوقا فلا تعرف اطمئنانا ولا راحة الا بعد بلوغ الهدف المنشود .

الا أن ابن بطوطة ، كما سنرى من بعد ، لم يكن على موعد مع هذه الرحلات القصيرة التى قام بها كثير من معاصريه والتى لا تتجاوز سنتين أو ثلاث : لقد تجاوز الحد المعروف وتعدى النطاق المألوف فقام بأكبر رحلة فى هذا العصر ، وجال فى مختلف عواصم العالم وحقق بذلك في ميدان الرحلات نصرا عظيما وسجل تفوقا كبيرا على من سبقه فى هذا الميدان ، اذ طالت غيبته فى مجموعها وبلغت 28 سنة تقريبا . لسنا ندرى هل كان يدور بخلده أن يتغيب هذه المدة الطويلة أم استهوته الاسفار فكانت غيبته من باب الصدف والعفوية لا يخضع لتصميم مرسوم وخطة محبوكة عزم على تحقيقها قبل سفره الطويل ؟ ان ما يستفاد من رحلته لا يدل على مشروع حضر من قبل وقام صاحبه بتنفيذه وأثناء رحلته . فبقطع النظر عن نية الحج التى كانت تساوره قبل سفره ، نرى ابن بطوطة من خلال رحلته يرمى بعصا التجوال هنا وهناك بقصد الزيادة والاطلاع ، وكثيرا ما ينساق وراء مناظر استهوته بجمالها أو بغرابة أمرها أو شىء كان يسمعه عنها من قبل ، فأقدم على أماكن بعيدة وخطيرة فتجول فى مناطق ما كان ينوى الوصول اليها .

وسواء كانت هذه الرحلة الطويلة عن قصد أو غير قصد فالذى يهمنا هنا هو أنه قبل مغادرته طنجة سنة 725هـ كان قد تلقى تربية اسلامية متينة وثقافة فقهية واسعة الافق الشىء الذى مكنه من أن يتبوأ منصبا للقضاء فى جهات مختلفة بدلهى أو غيرها من الاماكن التى كان يقصدها وهو فى طريقه لاداء فريضة الحج أو لتحقيق أسفاره . فتوليه هذا المنصب العالى يدل على :ثقافته الفقهية . وتشير بعض المصادر التى عنيت برحلته الى أن طنجة فى عصره كانت من المدن الحافلة بالنشاط الفكرى والثقافى بصفة عامة ، نظرا لموقعها الجغرافى القريب من العدوتين كما تفيد أن بيته كان من البيوتات العلمية المشهورة بالتقوى والصلاح .

لذلك كان طبيعيا أن ينهل من هذا المورد الغزير ويتكون هذا التكوين الذى أهله لمناصب سامية فى المغرب أو خارج المغرب .

كما أن هذه التربية الاسلامية التى نشأ عليها فى بيته جعلت منه رجلا ورعا عابدا اينما حل وارتحل فكان بذلك السلوك الروحى يمتاز عن المرافقين له فى سفره ناصحا مرشدا ، متجنبا للمعاصى التى كثيرا ما يقع فيها المسافر فى تنقلاته وحلوله بأماكن أجنبية من ذلك أنه كان «اجتنابا للزنى ، يتزوج كلما نزل ببلاد يطول فيها مقامه فيطمئن الى عمله المشروع ويستقر بالبلاد التى نزل بها الى أن يتركها لبلاد

أخرى فيتزوج بها كما سبق له أن فعل وهكذا الى أن وصل الى طنجة ، وبالاضافة الى ذلك نراه فى رحلته شديد الرغبة فى الاتصال برجال الخير والصلاح باحثا عنهم . مقتفيا آثارهم وكان لا يمر ببلاد الا وسأل عن صلحائها وأوليائها ليأخذ عنهم ويستفيد منهم . مما يؤكد تمكن هذه الروح الاسلامية من نفسه .

ثقـــافتـــه اللغـــويـــة

لقد شك كثير ممن عنوا بدراسة رحلة ابن بطوطة فى كفاءته اللغوية فوصفوه بالقصور وعدم تمكنه من اللغة نظرا لما تضمنته هذه الرحلة من أغلاط نحوية وهفوات أخرى . ونحن ، وان كنا لا ننكر وجود مثل هذه الاغلاط فى الرحلة التى اشتملت على ألفاظ عامية ، الا أننا نستبعد أن يكون ابن بطوطة ارتكبها عن جهل اذ المعروف عنه أنه درس اللغة العربية وتمكن منها حتى أصبح ينتقد على خطيب البصرة وقوعه فى أغلاط كثيرة ، واذا كان ابن بطوطة قد لاحظ على خطيب هذه المدينة المشهورة بزعامتها فى النحو وبقدمها فى علوم اللغة عموما فمعنى ذلك أنه كان يعى ما يقول ، كان شديد الثقة بنفسه . ان ما جاء فى الرحلة من أغلاط لا يستبعد أن يكون عن نسيان وقع فيه ابن بطوطة نفسه أو اهمال منه لعدم مراجعة انشائه واهتمامه بتقاييده اثر رجوعه من بلاد افريقية ؛ وقد يكون السبب فى ذلك ابن جزى نفسه الذى كلف من طرف السلطان ابى عنان لجمع اجزاء الرحلة وتنقيحها واخراجها فى حلة لائقة بها . الا يكون ابن جزى ، رغم نبوغه وكفاءته ، قد وقع عن غير قصد فى بعض الهفوات التى ألصقت بمنشىء الرحلة نفسه ؟ ان الظروف المحيطة بالرجلين تحملنا على الاعتقاد باحتمال الامرين . واذا صرفنا النظر عن هذه الهفوات ورجعنا الى مؤلف الرحلة نفسه فلا يسعنا الا أن نؤمن بمقدرته وجدارته فى اللغة وغيرها . ألم ينظم ابن بطوطة قصيدة فى مدح ملك الهند ؟ أفلا يكون فى نظم هذه الابيات وتوجيهها الى ملك الهند حجة أخرى تدل على تكوينه اللغوى ؟ ان قرض الشعر ليس فى متناول كل أحد !

واذا كان ابن بطوطة لم يترك لنا الا قليلا من شعره فليس بعيدا ، ان تكون هناك عوامل اجتماعية أو نفسية حالت بينه وبين ذلك !

ابن بطوطة والبلاط المرينى

ليس من الغريب أن يتصل ابن بطوطة بالبلاط المرينى بل كان طبيعيا أن ينجذب اليه وان يلج عتباته لما عرف عن ملوك بنى مرين من تقريب لكل ذى فضل وعلم ، واحاطته بعنايتهم الخاصة ، وهم الذين كانوا أشد الناس حرصا على أن يضم

بلاطهم النخبة المثقفة من المغاربة وغيرهم ، فكانوا يتنافسون فى جلب رجال العلم والفكر ، بل كانوا ، ان صح التعبير ، يتصيدون كل من أحسوا فيه نبوغا وتفرسوا فيه نباهة وذكاء ، فكنت لا تسمع بشخصية سامية الا ووجدتها ببلاطهم تشتغل بالكتابة أو بالحجابة أو بمهام أخرى سامية ، فما بالك برجل مغربى أصبح العالم يتحدث عنه لما قام به من رحلات وما وصفه من مناظر ومشاهدات وأماكن وعادات . فكانوا اذن أولى الناس به وأسبقهم الى الاستفادة من شهرته ومجده . وما أن انتهى من رحلته حتى هب أبو عنان وبعث اليه وهو لا يزال فى بلاد افريقية فقفل راجعا منفذا أوامر ملكه ، مطيعا ، ممتثلا . فكانت الغاية هى الاهتمام بتدوين الرحلة وبتنظيمها كى لا تضيع فائدتها . فأعطيت الاوامر لابن جزى وكلف بالسهر على هذا الانتاج حتى تحقق الغاية المرجوة منه .

ابــو العبــاس أحمــد زروق

نسير متتبعين لاحوال البيئة المغربية فى عصر بنى مرين فنجد من المشاهير من تتمثل فيهم هذه البيئة المغربية خير تمثيل ، ذلك لانهم عاشوا فى هذه البيئة منذ حداثة سنهم وتكيفوا مع جوها المادى والمعنوى والروحى ، فنشأوا فيها وهم مرآة تنعكس عليها أحوال المجتمع المغربى وقيمه ومثله ؛ ومن بين هذه الشخصيات التى نشير اليها هنا يجدر بنا أن نتعرض لابى العباس أحمد زروق ، نظرا لما له من أثر على هذه البيئة وسمعة فى كتب الآداب والتاريخ المغربية وغيرها . ولعله كان أكبر حظ من غيره فى هذه المصادر التى تعرضت له ،رغم اغفالها لجوانب كثيرة من شخصيته وحياته . والسر فى ذلك ، على ما نظن ، راجع الى ما كان صاحبنا يتمتع به من شهرة بل من استجابة لروح العصر وللتيار الجارف آنذاك فى عصر بنى مرين حيث أقبل الشعب المغربى فى آخر هذا العصر على تربية روحية نظرا لما حل به من أزمات وعواصف هزت أركانه وألحقت به ضربات اصابته فى الصميم . فكان مترجمنا فى مستوى الاحداث بل كان قائدا من القادة الذين انسجموا بكل قواهم وامكانياتهم مع النخبة المثقفة والجماهير الشعبية التى وجدت فيهم ضالتها المنشودة كما أن صاحبنا ساعد على هذا التعريف بنفسه بما تركه من آثار بقى جلها محفوظا الى اليوم ، ذلك أنه لم يبخل بمجهود فى هذا الباب ، فكان غزير المادة وافر المعلومات ، أفنى عمره تقريبا فى التصنيف والتأليف ، مما أدى الى تخليد اسمه ، وتقوية أثره فى الاوساط المثقفة والشعبية على السواء .

يكنى بابن العباس ويسمى ، حسبما ورد فى عدة مصادر ، احمد ابن احمد ابن محمد المشهور بزروق ولد بفاس سنة 946هـ ، الا أن ولادته ونشأته بفاس لا تعنيان أنه كان من أهل فاس ، عريق النسب فيه . فقد سكنت فاس عدة قبائل بربرية

انتقلت اليه من نواحي مختلفة لاسباب اجتماعية أو اقتصادية أو علمية . وكذلك كان زروق يرجع فى أصله الى قبيلة بربرية ، قبيلة البرانس المشهورة فى المغرب . نشأ يتيما ، فقيرا ، ليس له من يكفله سوى اقاربه أو بعض أصدقاء أبيه ، مما زاد في شقائه وبؤسه وخلق فى نفسه عقدا كان لها أكبر الاثر فى حياته المستقبلة وفى توجيه سلوكه الاجتماعي والخلقى . الا أن الحرمان حسب حقائق علم النفس قد يكون فى بعض الاحيان حافزا للفرد يدفعه الى تعويض النقص ، وذلك ببذل أقصى ما يمكن من الجهود لتدارك ما فات ، ولتكميل ما نقص ، ثم للعمل على البروز والتظاهر بمظهر القوة والغلبة فى مواطن الضعف والميادين التى تكون محور الحديث وقبلة الانظار . ولعل هذه العوامل هى التى حفزت همة مترجمنا وقوت عزيمته وصلبت ارادته وربطته منذ حداثة سنه بأبواب المعرفة ، فولجها بكل شوق ورغبة ، وأقبل عليها اقبال المتعطش على العين ، يرد منها لما فيها من خلاص ووسيلة الى تحقيق مبتغاه ، اقتداء بعلماء عصره ونبغاء بيئته . فكان رغم كبر سنه ، يكد ويجتهد ، ويواصل ليله بنهاره وهو نادم على ما فاته وعامل على قطع المراحل التى لابد من اجتيازها فى عصره . فحفظ القرآن ثم درس أمهات اللغة والفقه فشرع فى التفسير وقراءة الحديث آخذا عن مشايخ الفقهاء والعلماء وكبار المحدثين بفاس حتى حصل له من ذلك ما جعله يطمئن الى نفسه ويشعر بقوة باعه فى هذه العلوم التى درسها . الا أن الظاهرة التى تميزت بها ثقافته الاولى هى أنه كان الى جانب ذلك يعنى بدراسة التصوف عناية خاصة . أكان ذلك ميلا منه أم عنصرا ايجابيا من العناصر التى تشكل الثقافة فى ذلك العصر ؟ لسنا ندرى . كل ما نعلمه فى الموضوع هو أنه كان يدرس من بين العلوم علم التصوف الذى أخذ فيه عن كبار أئمة أمثال العتورى والمجدولى ... ويظهر أن المناهج تغيرت بعض الشىء فى آخر عصر بنى مرين بحيث أصبحت تشتمل على دراسة فى التصوف بعدما كان هذا الفرع من المعرفة كما أسلفنا فى الفصول السابقة لا يتجاوز أنواعا من سلوك عملى خاص يقتصر على ذكر أوراد أو القيام بحركات مختلفة معينة ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت العوامل ، فاحمد زروق درس التصوف دراسة نظرية كما درس الفقه وعلوما أخرى وسعت مداركه وحددت اتجاهه منذ البداية رغم تبحره فى علوم أخرى ، فكانت النتيجة ، وهى حتمية ، ان أصبح أحمد زروق فى عصره من كبار الفقهاء وأئمة المتصوفة فى نفس الوقت ؛ ولقد غلب عليه هذا الاتجاه العلمى وعرف به حتى طغى على ما له من مشاركة فى علوم اللغة والادب والبيان ، فأصبح مترجموه لا يذكرونه الا مع الفقهاء والمتصوفة ناسين حظه فى اللغة وفى الشعر والفصاحة والبيان وتلك ظاهرة نلمسها عند عدد كبير من المؤرخين أو الادباء الذين عنوا بدراسة التراجم فأغفلوا عن قصد أو غير قصد جوانب متعددة من شخصية مترجمهم بحكم الضغط أو التأثير والانسياق وراء الاقتداء والتقليد الذى ضللهم وأنساهم التعرض لجوانب خفية ، قليلة الاهمية فى نظرهم . ولكنها فى نظرنا تعود بفوائد كبرى على الباحث المتتبع لحالات الفرد النفسية والانفعالية والذهنية . أما نحن فنرى أن مترجمنا كان أديبا لا يقل مستواه عن مستوى

أدباء عرفوا بهذه الصفة واشتهروا بها وسنورد له فى محلها أبياتا وقطعا نثرية يتجلى فيها ذوقه الفنى وصناعته الادبية .

أخلاقـــه وسلوكـه العملـي

لا ينتظر من شخص تكون تربيته هذه الا أن يسلك سلوكا يتفق ومبادىء الاسلام وتعاليمه ، وأسسه المتينة ، لان النشأة كانت فى أساسها ومنذ بدايتها مبنية على هذه الروح الاسلامية وهذا الاتجاه الروحى المتغلغل فى أعماق النفس ، فنشأ زروق متشبعا بهذه الروح الخالصة صادرا عنها فى حركاته وسكناته ، فى أفكاره وعواطفه ، وفى سلوكه نحو ربه ، نحو نفسه ، ونحو غيره . واذا كان بعض الفقهاء رغم تضلعهم فى العلوم التى درسوها ظلوا نظريين ومثاليين ، فزروق على العكس منهم كان نظريا وعمليا فى نفس الوقت . لم تقعد به ثقافته النظرية عن خوض المعركة فى ميدان السلوك العلمى ، ولم يكتف بشرح نظرياته وأفكاره وانما كان ، علاوة على ذلك ، من هؤلاء العلماء الذين يتخذون المواقف الصريحة ويعطون من أنفسهم القدرة العملية فيغيرون المنكر ويوقفون الضلال ويهدون الى الرشاد لا بنصحهم فقط ، بل بسلوكهم ، وأعمالهم ، وتصرفاتهم ، وردود أفعالهم مطبقين ما درسوه من أفكـار وحقائق ، منفذين أوامر الشرع الاسلامى ، معارضين ومصطدمين . ان زروق كان ذا مروءة وخصال حميدة ، رجلا عفيفا ، زاهدا ، ناسكا ، لاهيا بهذه الحياة ؛ لقد أعرض عنها وسعى فى التخلص منها ، الا أنه لم يعرض عنها بانسحابه وسلبيته وانمحاء شخصيته . كلا ! لقد فرض شخصيته القوية فنزل الى الميدان وخاض المعركة بنفسه لاصلاح أمته وتقويم اعوجاج بنى وطنه ؛ فكان آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، لاحظا ومنتقدا ، رادعا ومصلحا ، مما تسبب له فى حملات مناوئة من طرف بعض معارضيه الذين يرون فى تدخلاته قضاء على مصالحهم واستخفافا بسلطتهم ونفوذهم المعنوى ؛ فكان ذلك سببا لبعض الانتقادات الموجهة اليه فى زمنه أو فى عصور أخـــرى .

عاش الشيخ زروق فى المغرب عيشة متواضعة عرفنا نوعها واطلعنا على أوجه نشاطه فيها متفاعلا مع بيئته ومؤثرا ككل كائن حى ، فلم يعرف عنه أنه اتصل بأمير أو بوزير أو بذى جاه دنيوى يتقرب منه لينال من خيره ويستفيد من نعمته ، ولم يسجل له التاريخ أنه اتصل بالبلاط المرينى أو ببلاط آخر فى العدوة الاندلسية أو فى افريقيا . ان الظروف كانت يومئذ حالكة ، والضربات تتوالى على المغرب مـــن النصارى ومن غير النصارى ، فقويت العاصفة ، واشتدت الفتن وزحزحت القواعد ، وتخلخل النظام ، وسادت الفتن والاضطرابات ، واكفهر الجو ، وسيطر التشاؤم وا لخوف على الناس ؛ ومع ذلك كان يتحرك ويقف من الاحداث مواقفه المعروفة ويسمع

صوته فى غير ما وجل ولا خوف . استطاع رغم هذه الظروف القاسية أن ينتقل من المغرب الى المشرق ، فأدى فريضة الحج ثم مكث مدة فى مصر فرجع الى وطنه ولكنه ما لبث أن فارقه الى طرابلس حيث اشتهر .

آثـــــــاره

من المؤكد أن الشيخ احمد زروق ترك بعد وفاته تراثا أدبيا غزير المادة ومتنوع الفروع لما عرف عنه فى حياته من انكباب على الدرس والتدريس ، والشرح والتأليف ، وانشغال عن أمور الدنيا وما تستلزمه من نشاط يبذل فى هذا الميدان أو ذاك ؛ فكانت حياته كلها حافلة بأعمال الخير والتقوى وبالكتابة والتصنيف ؛ فكان من ذلك الانتاج الضخم عدة المريد وشرح الحزب الكبير لابى الحسن الشاذلى ، وكتاب القواعد فى التصوف وشرح مختصر خليل ، وغير ذلك من المؤلفات المجيدة ، مما يدل على سعة أفقه وغزارة مادته ومواهبه العقلية الخلاقة .

ابـــــن وشيــــق

نجد فى هذا العصر الذى نؤرخ له شخصية أخرى ورد ذكرها فى بعض المصادر وأشير اليها بالبراعة والنبوغ . وقد رأينا أن نتعرض لها لما كان لها من أثر فى البيئة المغربية وفى الحياة الادبية على الخصوص ، يتعلق الامر بأبى على الحسين ابن عتيق بن الحسن بن رشيق التغلبى المرسى أصلا والسبتى نشأة واستيعانا ، ليس من المستبعد أن يكون انتقاله الى المغرب جرى مع الاسر التى هاجرت مواطنها من الاندلس اثر سقوط القواعد الاسلامية فى يد الاسبان ، لاسيما ونحن نعلم أن أسباب الهجرة قد تعددت فى هذا العصر وان المواطنين الاندلسيين انتقلوا بكثرة الى العدوة المغربية نظرا لما كانوا يجدون فيها من اطمئنان وارتقاء وسلامة خصوصا فى عصر بنى مرين الزاهر حيث أصبح الحكم قويا وحيث كانت المعارك تجرى بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادنى لضمهما الى السلطة المغربية المركزية الراغبة فى استرجاع الامبراطورية الموحدية . الا أننا نرجح أن انتقال ابن رشيق الى المغرب قد تم فى مقتبل عمره وأنه صرف نشاطا كبيرا فى سبتة حيث برز كما قال ابن الخطيب فى احاطته وحيث كان كاتبا لاميرها أبى القاسم العزفى . ولقد حملنا على هذا الاعتقاد ما وجدناه من أثر لصاحبنا فى بعض المراجع وما استنتجناه من هذا الاثر رغم قلته وتناثره هنا وهناك . ان ما وجدناه قد يدل على أنه قليل الصلة بالبيئة الاندلسية ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بالبيئة الاندلسية التى قضى فيها جزءا من عمره

وأنه لم يحمل معه أى شيء منها يتعلق بعادات أهلها وتقاليدهم الاجتماعية . ذلك ما لا ندعيه وما لا تسمح به حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ان التأثير ببيئة ما لا يقاس دائما بالزمن الذى قضاه الفرد فى تلك البيئة لان المسألة ليست مسألة كم فقط بل هى كم وكيف فى نفس الوقت . قد يتفق أن يتأثر الفرد تأثرا قويا بمجتمع لم يقض فيه الا أياما معدودة بينما لا يتأثر بمجتمع آخر أو يتأثر به قليلا رغم كونه عاش فيه زمنا طويلا ، لان ذلك راجع الى عوامل نفسية واجتماعية قد تساعد وقد لا تساعد على التأثر والتاثير ؛ لذلك لا يمكن أن نجزم هنا ونؤكد أن صاحبنا ترك أثرا كبيرا يتعلق بالاندلس وبنشاطه فيها ، كما لا يمكن أن نؤكد أن المصادر التاريخية أو الادبية لم تحتفظ لنا بهذا الاثر انها نقطة استفهام تبقى موضوعة الى أن تتاح لنا الفرصة للاجابة عنها بكل دقة وموضوعية .

أما فيما يرجع لتطور حياة ابن رشيق ونوع تكوينه والدور الذى يمكن أن يكون لعبه فى المغرب ، فلقد وجدنا فى هذين النصين اللذين سنوردهما قصدا ، معلومات تساعدنا على الالمام بعناصر ايجابية فى الموضوع ، وقد تنير لنا السبيل لاستجلاء جوانب قد تكون موضع خلاف أو شك . لقد جاء فى «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فى من كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب(1) مانصه : (أبو على بن رشيق التغلبى ، مرسى ، عالم ، مصنف بارع الخط شاعر المرية ، كتب لاميرها من بنى الاحمر الرئيس أبى الحسن على بن يوسف ابن نصر ولاخيه أبى عبد الله محمد ثم انتقل عنها الى سبتة فولى قضاءها لابى القاسم العزفى وتوفى فى تازة من بلاد المغرب ودفن يوم الاربعاء 9 محرم 696هـ وهو فى وفد يقصد لقاء السلطان أبى سعيد ابن يوسف ...) هذا النص الذى أوردناه لمؤلف معاصر لابن رشيق ظل مجهول الاسم الى اليوم ، رغم التخمينات التى نسجت حوله وهو منقول عن مخطوط وجده الناشر بخزانة مغربية ووجد فى بعض أوراقه تاريخ الاستنساخ وهو سنة 824هـ فهو يعتبر من الوثائق المهمة فى الموضوع .

وللمقارنة والتحقيق نورد كذلك نصا آخر لا يقل أهمية عن ما ورد فى بلغة الامنية وهو لابن الخطيب(2) (يكنى أبا العباس مرسى الاصل سبتى الاستيطان كان فريد دهره اتقانا ومعرفة ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية متبحرا فى التاريخ ريانا من الأدب شاعرا مفلقا عجيب الاستنباط قادرا على اختراع الاوضاع ، جهم المحيا ، موحش الشكل ... تحرف بالعدالة وبرز بمدينة سبتة وكتب عن أميرها وجرت بينه وبين الاديب ابن المرحل من الملاحظات والمهاترات أشد ما يجرى بين

---

1) نشر الاستاذ محمد بن تاويت ، مجلة تطوان منشورات الجامعة المغربية كلية الاداب عدد 9 سنة 1964 صفحة 178

2) الاحاطة تحقيق عبد الله عنان ج الاول (دار المعارف بمصر) ص 481–482 .

متناقضين) الى أن قال : «واستدعاه أمير المغرب السلطان أبو يعقـوب فاستكتبه .. ودخل الاندلس وحط بها بالمرية وقد أصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها ...»

ومن هذين النصين يمكن أن نستفيد استفادة كبيرة تساعدنا على تفهـم شخصية ابن رشيق وكذلك أوضاعه وأحواله ، أما الملاحظة الاولى فهي خلافا لما جاء في مخطوط بلغة الامنية ، ان السلطان الذي كان متربعا على عرش المغرب في السنة التي توفي فيها ابن رشيق مع الوفد الذي كان متوجها الى السلطان سنة 696هـ هو أبو يعقوب يوسف لا السلطان أبو سعيد كما ورد في المخطوط ان السلطان أبا سعيد عثمان لم يتول الملك الا في سنة 710هـ . ونظن أن ذلك خطأ ناتج عن نسيان أو غلط ارتكب في الاستنساخ . ويستفاد كذلك مما سبق ذكره أن ابن رشيق تنقل بين العدوتيـن الاندلسية والمغربية ، الا أن هذا التنقل يكتنفه بعض الغموض لاسيما فيما يرجع لتاريخه وترتيبه . هل كان ابن رشيق في الاندلس ثم استقر نهائيا في المغرب الى أن مات ؟ ذلك ما رواه صاحب بلغة الامنية الذي اخبرنا أنه ولي قضاء سبتة . وتوفي بتازة ودفن يوم الاربعاء 9 محرم سنة 696هـ أما ابن الخطيب فلا يذكر أن وفاته كانت بالمغرب بل يستنتج من كلامه على العكس أنه ارتحل الى الاندلس بعدما قضى أعواما في المغرب رغم كونه يتفق مع النص الاول في كون مترجمنا كان بالمرية ونشط فيها كما نشط بسبتة .

مهما يكن من اختلاف بين ابن الخطيب وبين مؤلف بلغة الامنية ، فالشيء الذي يكاد يكون من المتفق عليه هو أن ابن رشيق نشط في مدينة سبتة حتى أصبح فيها كاتبا وقاضيا لاميرها أبي القاسم العزفي ، وكاتبا كذلك لابي يعقوب يوسف . وناهيك بهذه المناصب السامية في عصر بني مرين ، ولاسيما في بلاطهم ، فقد رأينا أن هذه الوظائف لا تسند الا لمن كان من النبغاء والفضلاء وذوي المكانـة السامية والشهرة الواسعة في العلم والادب ، ومن ثم اذا كان صاحبنا تقلد هذه المناصب كلها وتقلب فيها من كاتب الى قاض وبالعكس ، فمعنى ذلك بكل وضوح أنه كان من النخبة المثقفة ومن العناصر التي يتوفر فيها الاستحقاق والجدارة . فقد سبق أن رأينا ونحن نترجم لبعض مشاهير هذا العصر ما كان يتوفر عليه هؤلاء من استعداد فكري، ومواهب عقلية ، ونبوغ وعلم غزير ، ومعرفة واسعة في شتى الميادين . فلا نطيل اذن الكلام ولا نستمر في الشرح والتعليل للدلالة على كفاءة وثقافة ابن رشيق الذي كان الى ذلك (وكما شهد له به ابن الخطيب) ذا مشاركة في الفنون اللسانية ومتبحرا في التاريخ وريانا في الادب . فهذه الصفات كلها اذا جمعت في شخص واحد كانت برهانا قاطعا ودليلا على معلوماته الواسعة كما تدل على تخصصه في فروع مختلفة من العلوم ، فكان أديبا وفقيها ، مؤرخا وشاعرا عالما لغويا .

أما فيما يرجع لاخلاقه ومميزات شخصيته فآثاره الادبية وما قاله فيه ابن الخطيب ، وتصرفاته الخاصة والعامة ، سواء في المغرب أو خارجه ، كل ذلك يعطينا

فكرة عن جوانب كثيرة من شخصيته ويطلعنا على مواطن قوته وضعفه ؛ ذلك أن الفرد في المجتمع له سلوكان يختلفان ويتناقضان فى كثير من الاحيان حسب الظروف والعادات المحيطة به ، والقيود التى تحد من حريته وانطلاقه . قد يرغب شخص فى شيء ويومن بشيء يختلف تماما عن ما يانى به من أفعال فى بيئته وأمام رؤسائه ورفقائه وأهله . فالواقع النفسى لا يعرف على حقيقته الا اذا ألـم الباحث بجميـع العوامل التى تحرك الفرد ، ما خفى منها وما ظهر ، وخصوصا تلك العوامل المتعلقة بالتلقائية والافعال الصادرة بصفة عفوية ولا شعورية ونتيجـة لذلك وجدنـا فى مترجمنا ونحن نحاول تحليل شخصيته ظواهر نفسية خاصة . كان يتوفر على طاقة انفعالية كبيرة تبحث لنفسها عن متنفس لتنصب على الاشياء والاشخاص ، تـلك الطاقة التى كثيرا ما جعلت ابن رشيق يسلط لسانه وجام غضبه على الغير ، فينال من عرض الناس وكرامتهم ومروؤتهم وأخلاقهم قصدا وعن غير قصد أو حـسب اصطلاح علم النفس شعوريا ولا شعوريا ان ردود فعله كانت قوية الى درجة العدوان والتهجم ، والتاريخ شاهد على ما نقول ومحافظ فى سجله على هذه الظاهرة النفسية التى صبغت سلوك ابن رشيق نحو نفسه ونحو غيره لقد تصدى لمالك ابن المرحل وهما معا فى سبتة فوجه اليه سهام نقده اللاذع ، بل الفاحش المغرض الذى لا يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا أبرزها وشخصها وجسمها وصورها أشنع تصوير وأقبحه ، مما يذكرنا بما كان يدور من هجاء مقذع ومن سباب بين جرير والفرزدق والاخطل . ان التاريخ لا يزال يحتفظ بتلك القصيدة التى نظمها صاحبنا فى ابن المرحل وهو يومئذ شيخ طاعن فى السن يصرف نشاطه كله فى عبادة الله وفى أعمال البر والاحسان ؛ ان ابن رشيق لم يراع هذه الاعتبارات ولم يحترم لا السن ولا مستوى الاخلاق العامة فصب كلامه البذيء وسخطه المتفجر على شيخنا مالك ، مما ينم عن طبع غير سليم ويكشف عن سريرة غير عادية . ولقد أدى بنا الامر ونحن نلاحظ مظاهر هذه الظاهرة النفسية الى التساؤل عن البواعث أو الدوافع التى عملت على خلقها أو انمائها فى مترجمنا : أيكون الدافع نفسيا محضا أو اجتماعيا محضا أو هما معا ؟ أيكون ذلك من قبيل الوراثة أو من قبيل البيئة المضطربة التى عاش فيها ابن رشيق ؟ واذا كان من الصعب فى مثل هذه الاحوال القطع فان من الممكن أن تكون البيئة بالنسبة لصاحبنا من العوامل التى شجعت فيه هذا الخلق الشاذ وهذا السلوك العدائى الذى كان الهجاء الفاحش مظهرا من مظاهره . ان البيئة المغربية كانت يومئذ مضطربة تعصف بها الحوادث والفتن من كل جانب ، وتهز أركانها الدسائس السياسية والاطماع الشخصية والاحقاد والظغائن التى تفشت فى البيوتات المترفة وفى البلاطات الملكية وحول كل ذى نعمة وجاه . وما بالك بالاندلس حيث توالت عليها الضربات القاسية من طرف الاسبان وحيث فقد الناس ثقتهم بالرؤساء نظرا لخذلانهم وتقلباتهم الكثيرة وتحالفهم مع العدو ضد بنى مرين ، غلبت عليهم المصالح الشخصية ، ففتت فى عضدهم ومالت بهم الاغراض ، فكانوا مراوغين متظاهرين بالمحبة والاخلاص لغزاة بنى مرين . ألا تكون هذه الاحداث الاجتماعية وهذه المحن السياسية مصدر تشاؤم

كبير وانقباض في النفوس ويأس من الحياة كلها قد نجد في مكان آخر ما قد يعلل هذا الاتجاه النفسي ويفسر هذه الظاهرة التى طغت على طبع ابن رشيق حتى كان منه ما كان . ان هذا العامل الذى نبحث عنه نجده كامنا في نفسه مرتبطا به لقد سبق لابن الخطيب أن وصفه قائلا : (جهم المحيا ، موحش الشكل) . وابن الخطيب في وصفه هذا كان شاهد عيان ، لانه رأى صاحبنا ولاحظ هيأته وأحواله والصفات الغالبة عليه ، ان هذه الصفات تتناول المظهر الخارجي قبل كل شيء أى ما يعبر عنه الوجه : سماته وأساريره وملامحه القارة ان «موحش الشكل» صفة توحى بالغرابة وبالخلقة التى تخالف ما هو عادى ومتداول . أليس في هذه الصفات الجسمية ما يؤكد تلك الظاهرة التى لمسناها في شخصية مترجمنا ؟

مما تقدم نستطيع أن نقول ان ابن رشيق كان من الناحية العقلية يتوفـر على ذكاء ثاقب ، واستعداد فكرى ، ملحوظ ، ومواهب أخرى من المرجح أنها كانت نتيجة وراثية أكثر منها بيئية ، وان ما كان يتوفر عليه من دقة احساس وشدة انتباه وقوة ملاحظة يدل على ملكات فطرية أكثر مما يدل على عمليات تكون من نتائج التربية وقد ذكر ابن الخطيب(1) (أنه كان عجيب الاستنباط قادرا على الاختراع والاوضاع) . ان الاختراع والاستنباط علامتان من علامات الذكاء والنبوغ وسعة الخيال وبعد النظر ، الشيء الذى لا يتوفر لذوى العقول البسيطة والامكانيات الذهنية المحدودة .

آثـــــــاره

ترك لنا ابن رشيق حسب ما في الجذوة(2) علاوة على قصائد وأبيات متناثرة هنا وهناك الكتاب الكبير في التاريخ والتلخيص المسمى بميزان العمل . الا أن هذه المؤلفات والقصائد لم يصفها المؤرخون ولا الادباء ولم يولوها عنايتهم الخاصة ؛ فقد يكون ترك أكثر من ذلك لاكنه كان مصيره الضياع أو نتيجة الاهمال والنكبات التى توالت على أهل المغرب والاندلس معا في آخر عهد بنى مرين .

أبو عبد اللـه محمد العبدرى

يتعلق الامر هنا بشخصية كان لها حظ في تنمية الحركة الثقافية والادبية بصفة عامة . وأول ما يلفت النظر هنا هو ذلك الخلاف الذى وقع فيه من ترجموا لهذه الشخصية أو حاولوا اعطاء فكرة عنها ، والحقيقة أن المصادر القديمة لم تهتم بحياة مترجمنا باستثناء جذوة الاقتباس لابى القاضى الذى أفادنا قليلا عما رواه عن ابن المرحل،

---

(1) الاحاطة صفحة 221 .

(2) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس صفحة 192 (الطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ) .

اما نقطة الخلاف التي أشرنا اليها فهي تتلخص في أمرين اثنين : أولا كنية العبدرى ، ثانيا نسبه .

فكنيته عند البعض هي أبو عبد الله وعند البعض الآخر هي أبو محمد ، بقي هذا الخلاف قائما الى اليوم ولم نعثر بعد على وثيقة تاريخية أو مصدر من نوع آخر يحسم هذا الخلاف ويثبت الواقع رغم ما كتب من أبحاث ومقالات عن العبدرى . ورغم التحقيق الذى قام به أخيرا الاستاذ احمد بن جدو(1) حول الرحلة التي خلفها صاحبنا ! فلقد أفادنا في هذا التحقيق ان الاستاذ ابن أبي شنب يكنى العبدرى بأبي محمد بينما يحمل مخطوط بلده أبا عبد الله ويعتبر الاستاذ ابن جدو هذه الكنية الاخيرة غلطا ، لانها كما قال ، كنية ابن الحاج صاحب المدخل ؛ وفي الوقت نفسه نجد الاستاذ محمد الفاسي يخالف هذا الرأى ويؤكد(2) أن كنية العبدرى هي أبو عبد الله ؛ فأين اذن الحقيقة من بين هذا وذاك . أما نحن فنرى أن الاستاذ ابن جدو الذى قام بالتحقيق لم يطلع ، رغم تحرياته ، على نسخ كثيرة للرحلة باعتراف منه ، وذلك نظرا للظروف السياسية التي كانت تجتازها الجزائر والتي حالت بينه وبين الاطلاع على نسخ أخرى موجودة بالرباط وتونس وفاس والاسكوريال . فهو «لم ينتفع بمطالعتها ومنازلتها» ولهذا السبب نرى أنه كان من الممكن أن يغير الاستاذ المحقق رأيه بعد الاطلاع على أكبر عدد ممكن من النسخ الموجودة في المغرب على الخصوص ؛ ولذلك وجدنا قول الاستاذ محمد الفاسي يتفق مع كثير من الروايات ولا غرابة في ذلك نظرا لاطلاعه الواسع وتوفره على امكانيات وفرص متعددة لم تكن من حظ صاحب التحقيق .

أما وجه الخلاف الثاني فهو يتناول كما أشرنا نسب العبدرى . فالامر هنا ذو أهمية وخطورة لما له من تأثير وانعكاسات على الموضوع كله . والخلاف في هذه النقطة راجع ، كما سبق أن رأينا ، الى أن كثيرا من المغاربة غادروا ، لسبب من الاسباب ، بلادهم كما أن عددا كثيرا من الاندلسيين هاجروا بلادهم خوفا من العدوان أو رغبة في الحصول على امتيازات في البلاط المريني أو لاسباب لا مجال لتفصيلها هنا . وسبب ثان لهذا الخلاف المتعلق بنسب العبدرى هو أن القدماء درجوا على اعتبار المهاجر من أهل البلاد اذا مات فيها ولو لم يقض فيها سوى بضعة شهور لذلك وقع الارتباك والالتباس في رد الافراد الى أصلهم ، وذلك شيء سبق أن أثرنا الانتباه اليه . وعلى كل حال فالعبدرى أصبح في نظر كثير من المؤرخين كابن أبي شنب وبروكلمان وجورجي زيدان من أهل الاندلس بل من بلنسية ويذهب بعضهم الى أنه انتقل الى المغرب مع أسرته كسائر الاسر المهاجرة وهو صغير السن ، الشيء الذى

---

1) الاستاذ ابن جدو قام بتحقيق ونشر الرحلة (كلية الاداب الجزائرية) لكنه نشرها مبتورة وناقصة .

2) مجلة دعوة الحق بحث للاستاذ رئيس الجامعة المغربية سنة 1957 عدد 4 صفحة 67 . قام الاستاذ محمد الفاسي بتحقيق ونشر رحلة العبدرى تحقيقا ونشرا علميين .

لم يقبله الاستاذ محمد الفاسي الذى جزم بمغربيته الاصلية بمسقط رأسه ببلاد حاحة . وسعيا وراء التحقيق ، وبما أن المصادر لم تحفل بهذا الجانب عمدنا الى رحلة المؤلف علنا نجد فيها ما يفيدنا من قريب أو من بعيد في الموضوع ، وبعد قراءتها وامعان النظر فيها اتضح لنا أن صاحب الرحلة سبق له أن زار الاندلس واطلع على معالم بعض مدنها لانه يصفها وصف عيان في ثنايا الرحلة الا أن هذا الوصف لا يعنى أنه عاش فيها أو ارتبط بأسرها ، أو بعض أوساطها ، لان رحلته خالية من كل عاطفة أو شعور نحوها كالحنين اليها أو التحدث عن أهله فيها أو أى شيء من هذا القبيل . فالكلام عن الاندلس فى الرحلة كلام عابر شكلى لا علاقة له بعاطفة وطنية أو «بأرض الاجداد» ، وعلى هذا فيكاد يكون من المحقق ان العبدرى مغربى بالمعنى العصرى للكلمة وان ما ادعاه بعض المؤرخين يكون من قبيل الالتباس والتأثير المحض ، ذلك أن كثيرا من الاندلسيين ينسبون الى بنى عبد الدار كما لاحظه الاستاذ الفاسى فى بحثه .

ونستنتج من هذا كله أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن مسعود الحيحى أو الحاحى نسبة الى حاحا الكائنة قرب مدينة الصويرة ، وهى قبيلة بربرية لا تزال الى اليوم تحمل نفس الاسم وتكتسى صبغة بربرية أيضا ، وبناء على ذلك فالعبدرى بربرى أصلا ونشأة ، وله المام باللهجة البربرية كما يستفاد من رحلته . أما عن حياته أو ولادته أو وفاته فلا نجد لذلك ذكرا فى المصادر التى وقفنا عليها لحد الآن . لذلك كانت وسيلتنا للتعويض عن هذا النقص ، هى دراسة الرحلة وتقصى ما ورد فيها لاستنباط منها ما عساه ينير السبيل ، ويفيد القارىء الراغب فى الاطلاع على جانب حياة هذا الرجل الذى خلد اسمه بنفسه عن طريق رحلته . وليس الامر ببسيط كما قد يتبادر الى الذهن ، لان كل ما ورد فى الرحلة لا يمكن أن يعد من الامور المسلم بها لاسيما ونحن نعلم أن صاحبها ألفها فى ظروف خاصة ، ظروف الاسى والحزن والاضطراب والفوضى ، ظروف كما قال بنفسه «أصبح فيها المسافر عندما يخرج من أقطار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء لا يامن على ماله ولا على نفسه»[1] هذا بالاضافة الى كون انتاج مؤلف ما كثيرا ما يتصف بالذاتية ويتدخل فيه عنصر الشخصية الذى يخضعه لتحكم العواطف والانفعالات والحالات النفسية الموقتة التى تفسد الحكم وتشوه الحقيقة . فما يقوله الاديب فى شعره ، أو فى نثره ، أو فى قصته ، أو فى رحلته ، لا يجب أن يعتمد عليه الا بعد التحرى ، وبعد المقارنة ، والالمام بجميع العوامل التى تتداخل فى تكوين الواقع النفسى الذى تنبثق عنه ردود الفعل فى مختلف أنواع السلوك التى تكون وراء الافكار والاحكام .

والذى يتضح للباحث فى الرحلة أن العبدرى غادر قبيلة حاحا سنة 688هـ فى الخامس والعشرين من ذى القعدة كما أكده هو نفسه ؛ وعليه فسفره ياتى بعد

---

1) انظر رحلته ورقة 17 .

مبايعة السلطان أبي يعقوب يوسف الذي تربع على العرش سنة 685هـ وهي السنة التي بدأ فيها القيام بحملاته ضد بني عبد الواد بتلمسان ، اذ قصر نشاطه السياسي والعسكري على هذه الناحية لاخضاعها لحكمه ثم لتوسيع نطاق مملكته نحو افريقيا ؛ فلا غرابة اذن أن يصف العبدري تلك الاحوال في هذه الناحية بتلك الاوصاف المهولة وان يعطي عنها صورة قاتمة نظرا للاضرابات والفتن والمعارك التي كانت تجري آنذاك في تلك البقع . نعم لقد غادر قبيلته تاركا ابنه فيها قصد أداء فريضة الحج والاخذ عن العلماء والفقهاء والاتصال بأهل الفضل والخير .

شخصيتــــــه

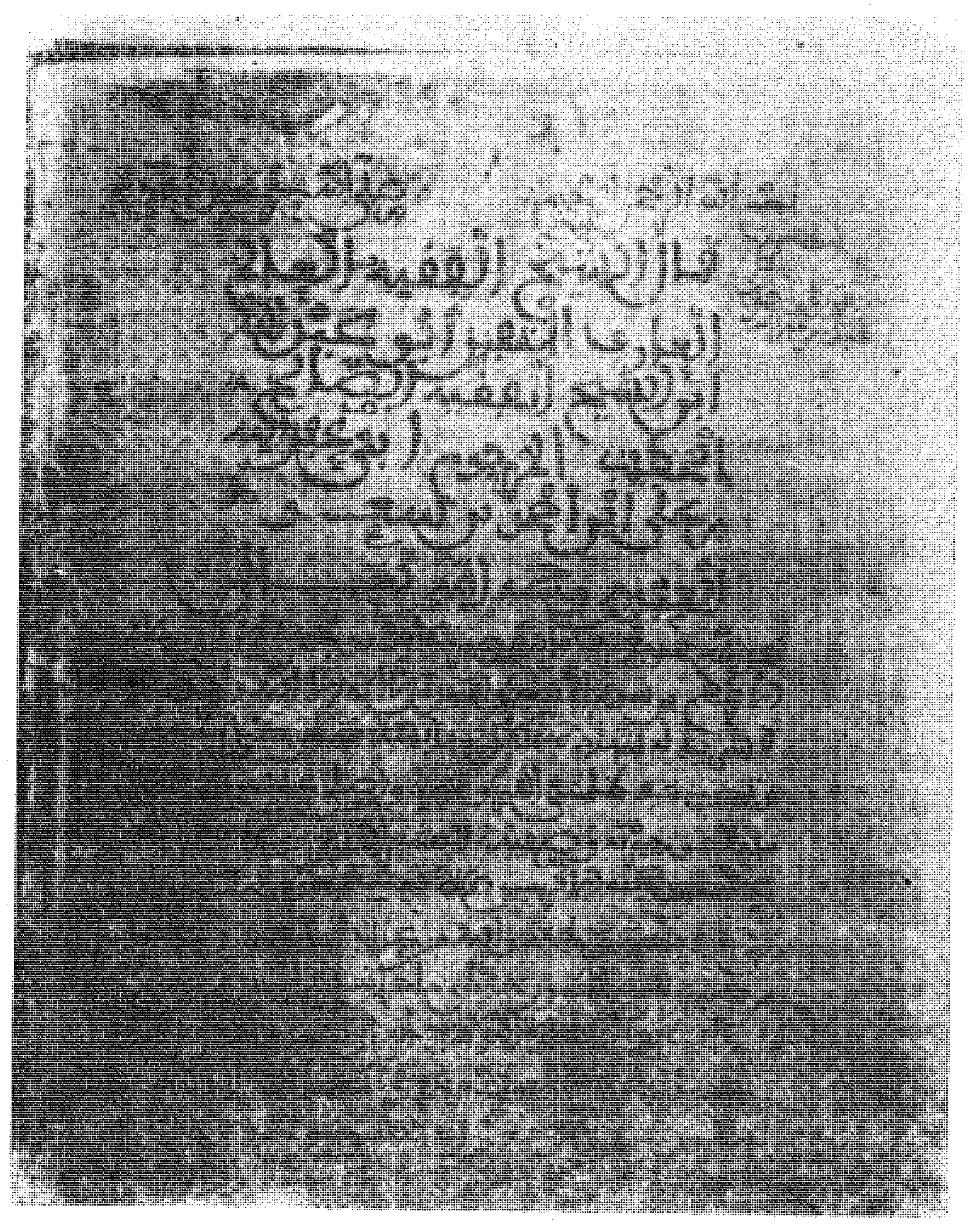
تظهر شخصية العبدري في رحلته قوية عنيفة حادة ، ذات صلابة ومناعة ، يتوفر على ارادة حديدية تجعله يقطع القفار ويقتحم المشاق بل الاخطار متحملا كل عناء وكل خوف وتهديد للوصول الى الغاية المنشودة ؛ وهو في ذلك واصل وبالغ مراده مهما كلفه الامر من ثمن . ونحن في أبرار هذه المميزات الشخصية لم نعتمد على ما قاله أو حكاه فقط ، بل على ما صدر منه من سلوك ، أو ردود فعل تلقائية على الخصوص . تساعد الباحث على سبر غوره وتحليل نفسيته للاطلاع على العوامـل الخفية والظاهرة التي تخلق تلك الشخصية بتفاعلها وتكاملها أو تناقضها . لقد كان العبدري أثناء رحلته في ثورة دائمة ، لا يطمئن له بال ، ولا يستقر له حال ، قليل الاقتناع ، صعب الارضاء ، بعيد الهدف ، كثيرا ما ينفعل ويقلق ويغضب لادنى اصطدام أو مثير بسيط صادر عن البيئة المادية أو الاجتماعية . فهو اذن من النفوس الصعبة ، المعقدة ، الشديدة الانفعال والاحساس ، الشيء الذي جعله يكثر من النقد بل من الهجو ، وتتبع العيوب والعورات وابراز السوآت ، مهتما بالناحية السلبية عـلى الخصوص ، سواء أكان الامر يتعلق بالاشياء أم بالاشخاص ، الا أن هذا الانفعـال السريع وهذه الحساسية الشديدة في شخصية العبدري لم يكونا من ذلك النوع الذي يقعد بالفرد وينزل به الى مستوى الوجدان المجرد وميدان العواطف البسيطة التي تذيب شخصية صاحبها وتقضي على نزوعه وتفكيره ، فيصبح مستسلما ، خاضعا راضيا بالواقع ، مكتفيا بالموجود ، كلا ! ان العبدري لم يكن من هذا النوع السلبي لا في سلوكه النفسي ولا في سلوكه الاجتماعي ، لقد كان بطبعه من النفوس المنغلقة التي يعيش فيها «الانا الداخلي» حسب اصطلاح علم النفس ، عيشة قوية تطغى على الانا الخارجي أو «الانا الاجتماعي» كما يقول علماء النفس التحليلي . لذلك نراه كثير الانقباض ، شديد السخط ، حتى اذا ما اتصل بغيره أو بمعطيات بيئته رأيناه يصطدم بسرعة اصطداما ذهنيا وانفعاليا واجتماعيا ، فينفجر سخطا . لكن هذا الانقباض وهذا الانفعال كانا لمترجمنا بمثابة دافع خلاق لردود فعل قوية ، ونزعات شديدة ، سرعان ما تتحول الى رغبة ، أوفكرة بنـاءة أو نشاط دائـب ، وقد كنـا نرغب في الالمام

بمعطيات البيئة التى عاش فيها لمعرفة العوامل الخفية التى كانت وراء هذا النوع من السلوك النفسى ، الا أننا مع الاسف لم نظفر بقليل.أو بكثير لتحقيق هذه الرغبة، بل كل ما هنالك أن قبيلة حاحا التى عاش فيها العبدرى لم تكن فى ذلك العصر من القبائل التى كان لها نشاط اجتماعى أو ثقافى ملحوظ ؛ فهى تقع بالقرب من مدينة الصويرة ، وتشكل ضاحية من ضواحيها المعروفة بتغلغلها فى الحياة البدوية المنزوية ، ايكون ذلك عاملا من العوامل التى كونت شخصية العبدرى ؟ ذلك ما لا نستطيع الآن الاجابة عنه رغم كون التجارب وحقائق علم النفس التحليلى تثبت أن الانقباض النفسى والتشاؤم المستمر هما نتيجة لحياة فردية ضيقة ، طابعها الانعزال ، وأساسها التمسك بالتقاليد والعادات القديمة .

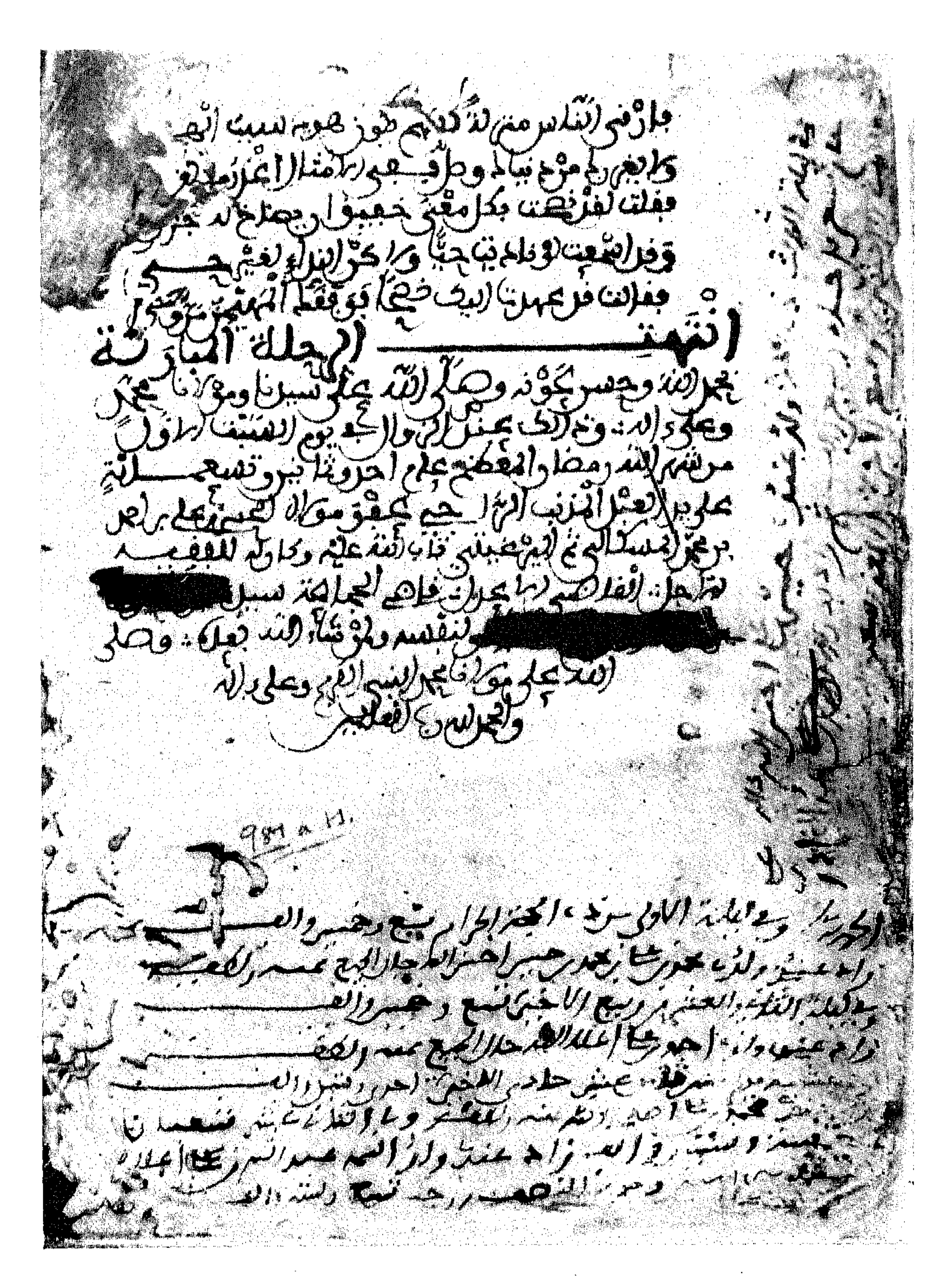
ثقافة العبدرى

ليس من الصعب أن تقف هنا على نوع الثقافة التى تلقاها العبدرى ، وليس بعسير أن نبين فروعها ما دام صاحب الرحلة نفسه يبرهن فى مؤلفه عن جدارته وكفاءته العلمية وسعة اطلاعه وخبرته الادبية ، فهو يكثر من ذكر الآيات القرآنية ويستشهد بأحاديث نبوية تدل على اطلاع واسع ورواية متينة وسند قوى فى علم الحديث . فاذا نزل بمكان ما بادر الى البحث عن ثقاته وشيوخه وفقهائه ليأخذ عنهم أو يحقق فى سندهم أو فيما روى عنهم ؛ فهو فى كل هذا شديد الرغبة فى التحصيل وتوسيع معلوماته ، جاد فى الادراك ، صابر عازم ، متواضع أمام الشيوخ ، غير متساهل فيما يعرض له من اخبار أو روايات ، شديد الثقة بنفسه وثقافته ، وبسلطته الروحية والمعنوية ؛ يجادل ويناقش وينتقد كثيرا ، الشيء الذى يدل على ثقافة واسعة شاملة وامكانيات غزيرة ومواهب فكرية ملحوظة . يتدخل فى المسائل الفقهية فيشرحها ويبين وجهات النظر المختلفة فيها سواء عند القدماء أو عند معاصريه ثم لا يفوته أن يبين موقفه من كل ذلك معارضا أم مؤيدا ؛ أما الفن الادبى فهو الميدان الذى يصول فيه ويجول ، ملم بأسسه وفروعه ، عالم بقديمه وحديثه ، حافظ لكثير منه ، متضلع فى علم البلاغة ، متقن لاقسامها ، يقرض الشعر بسهولة ، وينتقد الشعراء مبينا ما لهم وما عليهم ، ناصحا لهم باتباع أحسن الطرق لاجادة النظم . كل ذلك واضح فى رحلته ولا يتسع له المجال هنا للاستشهاد به .

تلك هى شخصية أبى عبد الله العبدرى وذلك هو تكوينه : مغربى متأثر ببيئته مسلم محافظ على عقيدته ، فقيه أديب وعالم لغوى ....



الصفحة الاولى من «الرحلة المغربية» للعبدرى . مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقـــم د 1012 .



الصفحة الاخيرة من الرحلة المغربية للعبدرى رقم د 1012 .

آثـــاره

لا نعرف للعبدري لحد الآن اثرا سوى رحلته المعروفة باسم «الرحلة المغربية» التي توجد منها نسخ كثيرة في مختلف الخزانات العربية وغيـــرها والتي بقيت مخطوطة الى أن من الله عليها بيد الاستاذ احمد بن جدو الذى اخرجها من طـــي المخطوطات فحققها وامد بها كلية الآداب الجزائرية التي نشرتها بواسطة مطبعـة البعث بقسنطينة (بدون ذكر تاريخ النشر) . الا ان هذا التحقيق بقي ناقصا اذ الرحلة اطول مما يظنه الاستاذ المحقق ومن المؤكد انه لم يعثر الا على جزء منهـــا نظرا لكون الرحلة في تحقيقه لم تصل الى الديار المقدسة ولم تتناول كعادتهـــا هذه الديار بالوصف والخبر . ولقد علمنا ونحن نتصفح اوراق مخطوطها بالخزانة العامة بالرباط ان الاستاذ محمد الفاسي يستعد لنشرها كاملة في اقرب الايام وليس من شك في انها ستسد هذا النقص وتكمل مشروع ابن جدو . (1)

ابـــن رشيـــد

عرف العصر المريني ، من بين العلماء والفقهاء والادباء ، شخصية اخرى لامعة طار صيتها في المشرق وفي المغرب وخلدت شهرتها الى اليوم . لذلك كان لا بد من الاهتمام بها والتعريف بها نظرا لما تركته في البيئـــة المغربية مـن اثر وما سجلته في الميدان الادبي والثقافي على العموم من نتائج كان لها نصيبها الاوفر في تشجيع الحركة العلمية آنذاك ، واعني بها ابن رشيد الـــذي تحدثت عنه بعض المصادر بشيء غير قليل من التبجيل والتعظيم . ولقد ورد اسمه في هذه المصادر بدون التباس او تضارب آراء خلافا لما رأيناه في تراجم الشخصيات الاخرى . فهو باتفاق الجميع ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس ابن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر الفهري السبتي . كانت ولادتـــه سنة 657هـ بمدينة سبتة تلك المدينة التي أشرنا فيما قبل الى ما كانت عليه من حضارة وخير وصلاح ، تلك المدينة التي انجبت من الفقهاء والعلماء والادباء ما لم تنجبه الا كبريات المدن المغربية وبعض البيوتات العلمية التي لا يتسع المجال لذكرها هنا . والمهم في الامر ان صاحبنا ولد ونشأ بهذه المدينة وتربى في تياراتها الفكرية وموجاتها العلمية والادبية . فكان من الطبيعي بل حتميـــا ان ينال منها وتنال مـــنه بالتفاعـــل والتكيف المـــادي والاجتماعي . وبالفعل أخـــذ مترجمنـــا كعادة اهل بلاده وزمانه يحفظ القرآن وامهات النحو واللغة والادب والفقه والحديث .

---

1) لقد انجز الاستاذ محمد الفاسي هذا المشروع الثمين الذى افاد كثيرا من المتعطشـــين للرحلة المغربيـــة .

فتضلع من كل ذلك وتشبع خصوصا بروح الاسلام وعقيدته الخالصة من كل بدعة او تحريف او زيف ، ولم يزل على ذلك الى ان بلغ من السن رشده ، ومن الثقافة حظا وافرا ، فجلبه التيار الاجتماعي الذى كان سائدا فى عصره الى أن يقتدي بمن سنوا السنة ، وشرعوا الطريقة للوصول الى الهدف الاسمى ، والحصول على القيم والمثل الاجتماعية السائدة ، ذلك ان فريضة الحج اصبحت مقرونة برغبة اخرى قد تكون هي الوسيلة او الغاية عند جماعة يتسابق افرادها نحو اداء الواجب الديني ونيل المعرفة والاحتكاك بأهلها والاستفادة من مصادرها الاصلية ردا للامور الى نصابها وضبطا للاحكام والسنة والرواية .

بهذا المحصول العلمي المتين سافر ابن رشيد سنة 683هـ الى البقاع المقدسة سالكا الطريق التى تفيده ، ومعرجا على الاماكن التى تعجبه وتشتد اليها رغبته ، فاتصل بكبار العلماء ومشاهير الفقهاء والمحدثين مجالسا ، مناظرا ، آخذا او معطيا الى أن اشفى غليله ، ثم قفل راجعا الى وطنه ومسقط رأسه سبتة بعد تغيبه عنها نحو ثلاث سنوات (680) فكانت هذه الرحلة من أهم الاحداث وأخطرها فى حياته ، اذ زادته شهرة ونبوغا ، ووضحت انجاهاته الفكرية والروحية ، وأبرزت ميوله ، وأفسحت المجال لمواهبه واستعداداته ، وقوت مكانته فى الشرق والغرب ، وبعبارة أوجز عملت على تكوين شخصيته وتثبيت معالمها وتركيز اسسها وتحديد مصيرها ، الشيء الذى جعل ابن الخطيب يحكم له بما نصه (1) : «كان فريد دهره عدالة ، وجلالة حفظا وادبا وسمتا وهديا ، واسع السمعة ، عالى الإسناد ، صحيح النقل، أصيل الضبط ، تام العناية بصناعة الحديث قيما عليها بصيرا بها محكما فيها ، ذاكرا للرجال ، جماعة للكتب ، محافظا على الطريقة مضطلعا بغيرها من العربية واللغة والعروض ، فقيها ، أصيل النظر ، ذاكرا للتفسير ريانا من الادب ، حافظا للاخبار والتواريخ مشاركا فى الاصلين ، عارفا بالقرآن عظيم الوقار والسكينة بارع الخط ، حسن الخلق ، كثير التواضع» تلك هى شهادة ابن الخطيب فى ابن رشيد وهى شهادة كافية للدلالة على نوع ثقافته وكميتها ، اذ يبدو فيها محيطا بانواع كثيرة من العلوم والفنون وكانه دائرة معارف ، وبناء على ذلك فهو أديب ، وفقيه ، ولغوى ، ونحوى ، ومحدث ، ومؤرخ وراوية ومقرىء ، ورجل خير وصلاح . وتلك امكانيات وصفات لا تتوفر الا لمن كان ذا حظ وافر من المواهب العقلية والاستعدادات الخلقية ، فهو من الناحية العقلية ذكى ، لان الالمام بتلك العلوم والتفوق فيها ليس فى متناول عقل متوسط ، ومن الناحية الخلقية قوى الارادة ، شديد الرغبة ، عامل على تحقيقها ، جاد فى تنفيذ اهدافه ومشاريعه مهما كانت العقبات والاهوال المحن . اما من الناحية النفسية فلقد كان منشرحا ، منبسطا ، كثير الاتصال بغيره ، مقبلا على الاجتماعات والمجالس ، ميالا الى المؤانسة والتعاطف

1) الاحاطة المجلد الاول صفحة 136

والتعايش ، كما شهد بذلك ابن الخطيب حيث يقول في احاطته(1) : «... كثير التواضع ، رقيق الوجه ، متحملا كلف الخاصة والعامة ، مبذول الجاه والشفاعة» وأما من الناحية الدينية الصرفة فالمعروف عنه أنه كان كثير العبادة ، شديد التقوى . بل زاهدا ومنصرفا عن ملذات الحياة ونعيمها ، متمسكا بظاهر الحديث والسنـــة الى درجة جعلت البعض يشك في اخلاصه لمذهب مالك ويتهمه باعتنـــاق المذهـب الظاهـري .

ذلك هـو ابن رشيد كما يتجـلى في آثـاره ، وتلك ثقافته وأخلاقـه ، وتربيته بصفة عامة . اعتمدنا في تحليلها على ما رواه عنه معاصروه او من ترجموا له ، كما رجعنا في ذلك الى آثاره وخصوصا رحلته التي سجل فيها نزوعه وميوله واتجاهاته وسلوكه عن قصد او غير قصد ، وكذا انفعالاته وردود فعله التلقائيـة التي كثيرا ما تعبر عن ما يختلج في نفسه من مشاعر وعواطف واحاسيس قد لا تتاح لها الفرصة للتعبير عن نفسها داخل الاطار الاجتماعي المقنن بالقيود الاخلاقية والمثل العليا المجتمعية التي تكون حجر عثرة في التعرف على الـــواقع النفسي واكتشاف السريرة واكتناه ما تخفيه الصدور وتحجبه طبقات اللاشعور .

وكانت تلك الثقافة الواسعة ، وتلك الشهرة الذائعة من اهم اسباب تطور حياته الاجتماعية واقباله على مراحل حاسمة بل خطيرة في بعض الاحيان ، ذلك انه سرعان ما انتقل ، بعد مدة قصيرة قضاها في سبتة بعد رجوعه من رحلتـه الى العدوة الاندلسية ، ملبيا بذلك دعوة صديق حميم له ، الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم الذي زين له المقام وحبب له الهجرة ومهد له الجو ، وهيأ له اسبـــاب السلطة والجاه والمكانة المرموقة في الحضارة الغرناطية حيث أصبح اماما وخطيبا بمسجدها الاعظم ثم قاضيا من قضاتها . لقد ظل يتحمل اعباء هذه المسؤوليات الضخمة ويتمتع بهذه المكانة السامية الى ان انقلبت الاحوال في تلك الظروف وفي تلك البيئات ففاجأته بمصيبة اصابته في شخص سيده وولي نعمته الوزير ابـــن الحكيم الذي ربط مصيره بمصيره ، فاضطر لمغادرة العدوة الاندلسية خوفا من أن يذهب ضحية اغتيال كصديقه ، ففر راجعا الى وطنه سنة 708هـ ولم ينج بنفسه الا بمعجـزة .

ابن رشيد في البلاط المريني

اقبل ابن رشيد بعد هذه الفاجعة على مرحلة اخرى من مراحل حياته الطافحة بالاحداث والمسؤوليات على الصعيد الاجتماعي وعلى الصعيد الرسمي ، فكانت ثقافته وتكوينه مرة اخرى سببا لرقيه ورفع شأنه ، اذ سرعان ما تلقفته ايدي ملـــوك بني مرين ، وقربته منها باذلة له كل السهولات وخصته بعطفها وكرمها حتى نال

1) نفس المصدر صفحة 137 .

من العز والسؤدد فى وطنه ما كان له خارج وطنه وكان ذلك على أيدى السلطان ابى الربيع ثم على ايدى السلطان ابى سعيد بصفة خاصة وظل مقربا ، معزز الجانب، موفور الكرامة سواء اثناء مقامه بمراكش (1) أو بعد رجوعه منها الى ان توفى سنة 721هـ و «دفن خارج باب الفتوح بمطرح الجنة»

آثـــاره

ترك لنا ابن رشيد مؤلفات كثيرة منها قصائد وابيات متناثرة فى طيـــات الكتب الادبية والتاريخية ، نذكر من هذه المؤلفات :

1) المحاكمة بين البخارى ومسلم
2) ايضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم صاحب
3) السند الابين فى السنن المعنعن
4) ايراد المريع لرائد التشجيع والترصيع
5) احكام التأسيس فى احكام التجنيس
6) وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أمثلة القوافى
7) جزء فى مختصر فى العروض
8) تقييد على كتاب سيبويه

الا ان اهم ما خلفه لنا ابن رشيد هو رحلته « ملء العيبة فيما جمع بطـــول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين مكة وطيبة »

ولقد اجمع المؤرخون والادباء على أن هذه الرحلة هى اعظم رحلة مغربية الفت فى هذا العصر ، نظرا لقيمتها العلمية وما انطوت عليه من فوائد جمـــة لا يمكن معرفتها الا بعد الاطلاع عليها والقيام بتحليلها .

ابـن داود السلوى

ليس من شك فى أن كثيرا من المشاهير المغاربة قاموا فى ميدان العلم والمعرفة بخدمات جليلة ادوها سباكتين ، راضين ، مطمئنين ، غير مبالين بامتيازات مادية او

1) يذكر ابن القاضى فى الجذوة صفحة 192 انه بعد فراره من الاندلس ورجوعه الى المغرب اختار ان ينتقل الى مراكش فتولى بها الخطابة والامامة وذلك بعد موافقة السلطان ابى الربيع المرينى على هذا الاختيار .

عطايا مالية كانت تغدق على كثير ممن خدموا البلاطات وتقربوا من الملوك والرؤساء وذوى الجاه والنفوذ طمعا فى مالهم ، او فى وظائفهم ، او فى هدايا مختلفة تعود عليهم بالمال أو بالنفوذ . ولعل صاحبنا هذا كان من هذا النوع البشرى الذى يحب العمل فـيالخفاء ويسلك سبيل الانزواء والانطواء ، ويفضل التستر على الجهر ، والظهور بمظهر الرئاسة ، وكثيرون هم الذين سلكوا هذا السلوك واخفوا به نبوغهم وعبقريتهم ، فلم يهتم بآرائهم او ابحاثهم احد ، لانهم جنوا على انفسهم بهذا الانزواء والانقباض . ولقد سبق ان رأينا ونحن نتعـــرض لبعض الشخصيات المغربية ان كثيرا منهم من اهمل نفسه ، وقبع في زاوية اجتنابا لكل اتصال ، وكـــل احتكاك وظهور . من هؤلاء ابو العباس القباب الذى ، رغم غزارة علمه ، وطـول باعـه فى الادب والشعر ، كان يتستر وراء حجب كثيفة وكاد اسمه ينمحى لولا جهود الباحثين المنقبين عن آثار الاجداد ، وكذلك كان الامر بالنسبـة لعبد العزيز الملــزوزى ، فقد ظل هو الآخر مجهولا مغمورا رغم ما نقله بعض المؤرخين وكتاب التراجم من ابيات ارجوزته استشهدوا بها عند الحاجة

على أن السبب فى هذا الانزواء وهذا الاختفاء اذا كان راجعا الى الفرد نفسه ، الى طبعه ، الى ميوله ووجدانه ومزاجه ، فان الظروف الاجتماعية كثيرا ما تطغى على الفرد وتسلبه فعاليته وايجابيته ، وتقعد به الى الدرك الاسفل جاعلة منه شخصا منسحبا ، منسلبا ، قابعـــا وراء سلسلة من الحوادث ، رغـــم ارادته القوية ، وقدرته على الخلق والابداع ، وخوض المعارك جنبا الى جنب مع الفطاحلة والعباقرة .

ثم ان هناك ظاهرة اخرى لا يجب ان نغفلها لما لها مـــن خطورة على تاريخ الحضارة العربية بوجه عام والحضارة المغربية بوجه خاص ، ذلك ان جل المثقفين الذين تعرضت لهم المصادر التاريخية بقليل او بكثير من التفاصيل كانوا فى أغلبهم من ملازمي الملوك او من المقربين اليهم ، اما غيرهم فقد ظلوا مهجوزين مغمورين رغم ثقافتهم الغزيرة وتضلعهم فى العلوم النقلية والعقلية . هذه ظاهرة اجتماعية يجب أن يقام لها وزنها نظرا لما تتركه من تاثير فى ذهن المؤرخين والادباء ومـن ضغط غير مباشر يجعل الباحث ينساق وراء احكام مخالفة للحقيقة وللواقع .

لذلك يجب على الباحث ان يتزود بكثير من التحرى والاحتياط كي لا تنبنى احكامه على الدعاية الناشئة عن كثرة ترديد القول والحديث عن شخصية ما . ان هذه الاعتبارات هى التى تجعلنا نرجح ان الادب المغربى ، لاسيما فى «القرون الوسطى» ، أدب استقراطى وبرجوازى فى نفس الوقت .

ومهما يكن من أمر ، وسواء كان السبب راجعا الى عوامل نفسية أو اجتماعية فمترجمنا ظل مغمورا مجهولا ، لم تشر اليه المصادر التاريخية أو الادبية ولو اشارة خفيفة ، بل لم تذكر حتى اسمه فضلا عن ان تتعرض لحياته او لآثاره . ولذلـــك يمكننا ان ندعى اننا اول من يتناول الحديث عنه واول من يتعرض لآثاره للتعريف بها واطلاع القراء عليها تعميما للفائدة ، واحياء لتراثنا الادبى الذى ظل في مجمله

غير معروف ، رغم ما نشر منه من مقالات أو أبحاث وكتب نعتبرها كلها نسبة ضئيلة من ذلك التراث الضخم الذى خلفه اجدادنا المثقفون .

وبعد فبينما كنا نبحث(1) فى المصادر التى تهم بحثنا هذا اذا بنا نجد فى قسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط ، مخطوطا تحت رقم ح ك 360 يحمل العنوان الآتى : «نوادر النظام فى شرف سيدى الانام» . وبعد تصفحنا لاوراقنا ادركنا أن مؤلفه كان معاصرا للدولة المرينية وان من المحتمل أن يكون كاتبه هو مؤلفه نفسه . ذلك ان الصفحة الاخيرة منه كما يتضح فى الصورة المقابلة تنص على أن وقت الفراغ من كتابته كان أواسط شوال سنة 812 هجرية .

فمن هو اذن ابن داود السلوى ؟

نظرا للاسباب التى ذكرناها آنفا ، لقد تعذر علينا الوقوف على معلومات تتعلق بحياته او بتربيته او بثقافته وتكوينه .كل ما استطعنا ان نقوم به هو اننا ، تعويضا لهذا النقص ، لجأنا الى مؤلفه علنا نعثر على شىء يفيد فى الموضوع . الا أننا مع الاسف لم نظفر بشىء لان المؤلف نفسه لم يتعرض لاى جانب من جوانب حياته ، خلافا لما فعله بعض الادباء والمؤرخين الذين تحدثوا فى ثنايا كتبهم بصفة مباشرة او غير مباشرة عن الظروف التى عاشوا فيها والاحداث التى مروا بها قرأنا بامعان هذا المخطوط الذى نحن بصدده ومع ذلك فلم نجد مع الاسف اشارة خفيفة او كلمة عابرة تنير السبيل او تلقى بعض الضوء على جانب من جوانب حياة المؤلف لقد ذكر ، كما يرى فى الصورة التى اثبتناها هنا . اسمه واصله حيث يقول فى الصفحة الثانية : «يقول العبد الفقير الى رحمة ربه من كل جهاته المتوكل عليه فى حركاته وسكناته محمد بن قاسم ابن داود السلوى .» اما كنيته فهى ابو عبد الله كما يستفاد من عنوان المخطوط . ذلك كل ما وقفنا عليه فيما يرجع لاسمه ونسبه وحياته .

أما فيما يتعلق بثقافته وتربيته فللباحث أن يرجع الى مؤلفه «نوادر النظام فى شرف سيدى الانام» ليجد فيه أن مترجمنا كان متشبعا بروح الاسلام وبتعاليمه ، محافظا على الاخلاق النبيلة ، مناجيا ربه فى كل وقت وحين كى «يعفو عنه ويطهر روحه» مما قد يكون أصابها من دنس وخساسة فى هذه الحياة . وهنا تظهر بكيفية واضحة نزعته الروحية الخالصة بل نزعته الصوفية التى غلبت على شعره حتى جعلته فى بعض المواقف مغاليا متطرفا فى المناجاة والاستسلام تفانيا فى حب الله وسعيا وراء الالتحاق به كى «يخلص نفسه ويطهرها» وهو ان مدح النبى فى منظومته مدحا خالصا نابعا من أعماق القلب ، فان مدحه هذا كان وسيلة اتخذها لتحقيق مآربه . ولا

---

1) يرجع الفضل ايضا الى الاستاذ سيدى ابراهيم الكتانى الذى لم يبخل علينا بنصائحه فى هذا الباب .

غرابة فى كون ابن داود السلوى ينزع هذه النزعة الصوفية فى حياته اذا تذكرنا أن البيئة المغربية فى عهده كانت بيئة خصبة للزهد والتصوف ومجالا فسيحا وجد فيه المتصوفة عوامل كثيرة شجعتهم على المضى قدما فى طريقهم محققين أغراضهم الروحية ، عاملين على كسب ثقة الجماهير الشعبية كى تنضم الى صفوفهم وتتبع طرقهم . وبالفعل تحققت هذه الاغراض وعمت البلاد موجة عميقة من الروحانية والتصوف ، تلك الموجة التى كان لها ما بعدها فيما يرجع لسياسة المغرب الخارجية

والى جانب هذا نرى مترجمنا من خلال شعره فقيها عالما بالاصول راويا للحديث متمكنا من العلوم العربية ، متضلعا فى علم البلاغة والبيان .

والآن ما هى «نوادر النظام فى شرف سيدى الانام»

منظومة تقع فى 185 صفحة وتشتمل على 2 960 بيتا . كتبت بخط مغربى جميل ، فى ورق متوسط الحجم ، لم تنل الرطوبة منه الا فى بعض صفحاته ؛ (10 — 18 — 75 — 82) وهى كلها ، كما يدل عليها عنوانها ، فى مدح النبى واظهار فضله على البرية ، وابراز مزاياه الخفية ، وخلقه الكريم وصفاته الحميدة ، وخصوصا المعجزات التى حققها عندما نزل عليه الوحى الى آخر لحظة من حياته يعدد المؤلف هذه الصفات وهذه المعجزات فى كثير من الابداع والتصوير والتجسيم وضرب الامثلة المحسوسة وغير المحسوسة ، دون أن يعتريه ضجر أو ملل ، لان عاطفته صادقة واحساسه قوى وحبه للنبى خالص كما يتجلى ذلك فى مقدمته التى تقتبس منها هذه العبارات : «وبعد فانى لما تملكنى فى الجناب النبوى شامخ الغرام ، وتعبدنى الشغف فى محاسنه المفردة ، واسترقنى الهيام ، استسقيت من سحائب منته الشامخ بواسطة أمداحه الشريفة صيب الغمام ، واستوعبت من طرف المقال فى ثنائه الفاخر أعذب الكلام وسميت ذلك بنوادر النظام فى شرف سيدى الانام ، ورفعته للذى أبرأ بلمسه السقام» .

تشمل هذه المنظومة على 101 نادرة وكل نادرة تتضمن ما بين 30 و 45 بيتا ، وتختلف القوافى باختلاف النوادر ؛ فالنادرة الاولى دالية والثانية ميمية والثالثة رائية وهكذا بدون ترتيب الفبائى . كل نادرة تدور حول معنى رئيسى من معانى الحب والاخلاص يشفعه الناظم ببعض التفاصيل والامثلة الدالة على معجزات الرسول وعلى أخلاقه النادرة التى امتاز بها عن سائر المخلوقات وابن داود فى هذا كله لا يسأم ولا يمل ، بل على العكس نراه يطلق لعاطفته ولخياله العنان حتى انه وقع فى كثير من التكرار اللفظى والمعنوى ، والاستطراءات التى تخرج به فى بعض الاحيان عن الحدود التى رسمها لموضوعه . وهكذا جاء فى النادرة التسعين ما جاء تقريبا فى النادرة 14 والنادرة 70 . أما اذا غضضنا الطرف عن هذه الملاحظات أمكننا أن نقول ان المنظومة حافظت على وحدتها الموضوعية وعلى انسجام العناصر المتألفة منها وهى الى ذلك غنية بالكلمات والمعانى الدينية والمترادفات اللغوية والتراكيب المتينة والتعابير السليمة .

صاغها صاحبها بلغة سهلة خالية من التعقيد ووحشى الكلام ومن الاسجاع المتكلفة التى تقضى على المعنى وتفنيه لما كان يتوفر عليه من قدرة على نظم الكلام وعلى تنسيقه وتنقيحه واختيار اعذبه وأسلسه ، مما يتناسب والهدف الذى نشده ، والمقام الذى رفع اليه مديحه ، ولاعطاء فكرة عن ما قلناه نورد فى ما يلى بعض الابيات من هذه المنظومة نتخذها كنمودج .

النـادرة الاولـى

نور الوجود وسر معنى الجـود	لاحا لاجـل محمـد المحمـــود
فالكائنــات جليهــا وخفيهــا	فى كلهــا معنــاه بالمشهــود
أى الطريق سوى طريق محمد	للبيض طاب مسيرهــا والسود
أى الثنــاء سوى ثنــاه محمـد	قد صار فى الملكوت ذا تخليد

وبالجملة فان هذه المنظومة عمل أدبى ضخم ، بذل فيه ابن داود السلوى مجهودا كبيرا وعناية فائقة من حيث الشكل ومن حيث المضمون . لذلك نعتبرها من المؤلفات النفسية التى جادت بها القرائح المغربية فى عصر بنى مرين ؛ وهى جديرة بالتحقيق والنشر نظرا لقيمتها هذه ونظرا لكونها لا تزال الى يومنا هذا غير معروفة . واننا نامل أن تتاح لنا الفرصة فى أقرب وقت لتحقيق هذا المشروع احياء للتراث الادبى المغربى ومساهمة منا فى خدمة الحضارة العربية بصفة عامة .

ابن عبد الملـك المـراكشى

يظل الباحث عن هذه الشخصية المغربية ينقب فى ثنايا الكتب لمعرفة حياة ابن عبد الملك أو الاطلاع على جانب من جوانبها أو الوقوف على شىء ينير له الطريق ، ويستدل به على هذه الظاهرة أو تلك ، لكن تلك المساعى كثيرا ما تبوء بالفشل لاصطدامها بعقبات وعرة ومسالك غامضة لا تجدى نفعا فى الغرض المنشود . ومع ذلك فابن عبد الملك المراكشى من الشخصيات البارزة فى هذا العصر ، ومن الاعلام الذين كان من المنتظر أن يسجل لهم التاريخ بعض المواقف السياسية والاجتماعية أمام الاحداث التى اجتازتها البيئة المغربية فى هذا العصر . كان من المنتظر أن يقف ابن عبد الملك مـن تلك الاحداث موقفا معينا ، لـه أثـره وعواقبه على هـذه البيئه . لان رجلا كهذا ما كان له أن يقف منفصلا ، سلبيا ، لا يؤثـر ولا يقـوم بردود فعل تتجسم فى بعض الحالات أو بعض الاعمال . ذلك ما كنا نتوقعه عندما شرعنا فى تصفح المصادر المختلفة التى تعرضت لابن عبد الملك وأمثاله . الا أننا لم نظفر بمعلومات كافية أو باشارات تكون نواة لتكوين فكرة عن مترجمنا . ذلك ما

جعلنا نتساءل عن هذا السكوت وعن اسبـابه . ولعل ابن عبد الملك لم يكن في هذا العصر هو الوحيد الذى منى بهذا الاجحاف . كثيرون هم الذين وقعوا فى نفس الظاهرة ولم تنصفهم بيئتهم لا بقليل ولا بكثير ، بل لم ينصفوا أنفسهم لانهم ظلوا يعملون فى الخفاء ، منزوين ، مجتنبين الظهور والبروز لاسباب راجعة الى جسمهم أو نفسيتهم ، أو تكوينهم التربوى ، أو عوامل أخرى تحول دون ظهورهم على مسرح الاحـداث الجارية فى مجتمعهم . ان الامثلة لكثيرة . يكفى أن نشير الى أن العبدرى كان هو الآخر مغمورا مهجورا ، لا ذكر له فى ما نتوفر عليه من مصادر الا بصفة عابرة . وعندى أن العبدرى شبيه الى حد بعيد بابن عبد الملك المراكشى فى كثير من الصفـات والحالات النفسية والظروف التى لابست حياتهما . فكلاهما من الجنوب ، وكلاهما رحل عن بلاده لاسباب معينة . فابن عبد الملك ، كما يستفاد من آثاره ، ومن المصادر التى أشارت اليه ، من مواليد مراكش (634) ؛ ومراكش هذه أصبحت فى عصر بنى مرين مدينة تكاد تكون مهجورة من الناحية الثقافية اذا استثنينا وجود شخصية ابن البناء الذى كان بمثابة نور يشع فى ظلام حالك . اننا لا ننسى أن هذه المدينة هى عاصمة الدولة الموحدية المنهارة ، حيث جرت المعارك الطاحنة ، ونهبت الاموال والامتعة ، وخربت الدور والمنازل الفاخرة ؛ فكانت بها الضربة القاسية التى قضت على سلطة بنى عبد المومن . هذه الحوادث جعلت أبناءها الافذاذ يهجرونها خوفا من السوء والاذى ، أو طمعا فى جاه ومال الدولة المنتصرة . ان المصادر التاريخية تحدثنا أن ابن عبد الملك بقى وحيدا فى هذه المدينة باستثناء بعض الافراد المثقفين ، (على رأسهم ابن البناء) زد على ذلك أن مراكش عاصمة المرابطين ، ثم عاصمة بنى عبد المومن مدينة طغت عليها الصبغة البربرية وأصبحت بحكم ذلك وبحكم العصبية القبلية معقلا من معاقل البربر المناوئين لسلطة بنى مرين ، فكانت المعارضة قوية والهزيمة حديثة ، والجروح «طرية» . واذا علمنا أن ابن عبد الملك يرجع فى نسبه الى أصل عربى ، أدركنا مدى بعد الشقة بينه وبين مجتمعه الصغير . ألا يكون ذلك عاملا من العوامل التى كانت وراء اختفائه أو اخفائه ، وطمس معالمه ورقيه ؟ أكان ابن عبد الملك يحس بغربة أو يشعر بضغط مباشر أو غير مباشر ؟ ان مراكش ، بحكم موقعها الجغرافى ، بقربها من الجبال وبعدها عن الشاطىء لم يكن يقصدها من العدوة الاندلسية الا عدد قليل من المهاجرين ، اذا نظرنا الى ما كانت عليه فاس من حركة دائبة وتعايش بين الاسر الاندلسية المهاجرة وبين السكان الاهليين . ما كان أبعد مراكش عن هذه الحركة الهجرية التى عاشها المغرب فى عهد بنى مرين ! ومع ذلك فابن عبد الملك كان قاضيها الكبير فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف ثم تركها وارتحل الى تلمسان حيث توفى سنة 703هـ .

ألا يدل ذلك كله ، من الناحية النفسية ، على شخصية منقبضـة شديـدة الحساسية ... ثائرة على الاوضاع ، نزاعة الى اجتناب المحافل والمجالس الرسمية التى يكثر فيها الجلساء والندماء والراغبون فى الحظوة والجاه ؟ قد يكون ذلك وقد

لا يكون ؛ وانما الثابت عن صاحبنا أنه كان حاد الطبع ، قوى المزاج ، شديد اللهجة ، لاذع النقد ، كثيره ، سريع الانفعال غزير ردود الفعل . تلك ظاهرة واضحة فى مؤلفه حيث وقف من المؤرخين والادباء الذين ترجم لهم مواقف خاصة ، تقريبا عدائية ؛ وتلك سمات خلقية راجعة الى الوراثة كما يكون السبب فيها البيئة التى عاش فيها الفرد ونما . وفى البيئة التى عاش فيها صاحبنا ما يكفى لخلق هذه الحدة ، وهذه القوة الانفعالية التى تجعل من «الفرد عنصرا قوى ردود الفعل ، وبالتالى كثير الاصطدام ، الشيء الذى يعتبره الناس نقدا جارحا ، أو تهجما ، أو تحاملا على الغير . ذلك ما امتاز به مترجمنا كما يستدل به بعض من تحدثوا عنه أو كما يستنتج من آثاره . وهو يلتقى مرة أخرى فى هذه الصفات وفى هذا النوع من الشخصية مع صديقه وأستاذه العبدرى صاحب الرحلة المغربية ؛ فكلاهما اشتهر بالنقد اللاذع وبتتبع سوآت الادباء وعيوب المؤرخين ، مع هذا الفرق وهو أن العبدرى كان يصب غضبه على الانسان وعلى الاشياء بينما كان ابن عبد الملك يسلط لسانه خصوصا على مترجميه . لقد عاشا جميعا منزويين ، فى بيئة أقرب الى البداوة منها الى الحضارة بالنسبة لما كانت عليه فاس من رقى ، وازدهار عمرانى ، ونشاط فكرى وعملى فى هذا العصر الذى نؤرخ له .

ألا يكون ذلك «الاندفاع ، وتلك الفعالية ، وتلك القوة التعبيرية المتجسمة فى النقد الصريح وفى اظهار مواطن الضعف والقوة ، وتمييز القبيح من الخبيث ، وفى البحث عن الجيد ، ألا يكون ذلك علامة من علامات الذكاء والنبوغ ؟ ان روح النقد لا تتأتى عادة الا لمن يتوفر على مواهب عقلية خاصة تجعله يفطن لما خفى من الامور ، ولا يتأثر بالمظاهر السطحية البراقة التى تخفى وراءها الضعف والفشل ، كما تجعله حساسا بأدنى فلتات اللسان وأبسط الزلات . ان روح النقد دليل على دقة الملاحظة ، وشدة الانتباه ، وقوة الادراك ؛ كما أنها تجعل الفرد قليل التساهل ، بعيد النظر ، من الصعب ارضاؤه وكذلك كان ابن عبد الملك بشهادة معاصريه أو بعض من ترجموا له أو كما يستفاد من آثاره .

ثقـــافتــــــــه

علمنا أن ابن عبد الملك المراكشى كان قاضيا ، بل قاضى الجماعة بمراكش وفى ذلك دليل على نوع ثقافته وتكوينه . ان هذه الخطة الرفيعة كانت لا تسند الا لمن كان له باع طويل فى الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الشرعية . لان المفروض فى قاضى الجماعة ان يحدث فى أمور دينية محضة وفى مسائل ونوازل فقهية قد تستعصى على الفقهاء والعلماء ؛ كما يكون قاضى الجماعة ، حسب التقاليد المرعية آنذاك ، اماما وخطيبا يحدث الناس ويفقههم فى أمور دينهم ، ويشرح لهم ما صعب عليهم من قضايا وأحكام . فهذه الخطة وحدها كفيلة بأن تجعل من يتولاها فى

المستوى المطلوب ، لاسيما في زمن بني مرين حيث كانت المقاييس صعبة ، والشروط كثيرة وحيث كثر التنافس والتسابق على مثل هذه الوظائف وغيرها ، نظرا لكون المغرب فتح أبوابه على مصراعيها لابناء العدوة الاندلسية ، ولغيرهم من الجزائريين والتونسيين ، مما يؤدى الى رفع المستوى وعدم التساهل فى الحصول على الوظائف الرسمية . على أن ابن عبد الملك كان الى جانب ذلك ، كما ذكره صاحب صلة الصلة(1)، أديبا وشاعرا ومتضلعا فى علوم اللغة . له الملم كبير بالتاريخ وبالحديث ، مما يدل على ثقافة اسلامية واسعة ، متينة الاسس ومتشعبة الفروع . أخذ هذه العلوم عن عدة أساتذة وشيوخ نذكر منهم مالك ابن المرحل وأبا جعفر بن الزبير ، وأبا اسحاق الغشاس وأبا الحسن الرعينى وأبا عبد الله بن خميس والعبدرى(2)

آثـــــــاره

ترك ابن عبد الملك المراكشى شعرا ونثرا ، فكان حظ الاول النسيان أو الاهمال ، أو الفقدان ، لان ما وقفنا عليه منه يعد شيئا قليلا بالنسبة لما أشار اليه نفسه أو مؤرخوه . أما فيما يرجع لانتاجه فى النثر فقد خلف مؤلفا ضخما عظيما كان السبب فى تخليد اسمه وتركيز شهرته ؛ ذلك المؤلف العظيم هو : «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» اختلف المؤرخون فى عدة اجزائه الا أنها فى الغالب تقع فى تسعة مجلدات . وقد بذل ابن عبد الملك فيه جهودا جبارة وعناية خاصة تجلت فى التراجم الوافية التى أتى بها فى كتابه ، والتى لم يسبقه اليها أحد من مؤلفى كتب السير والتراجم . ويبرهن فى كتابه هذا عن مقدرة علمية فائقة ، وعن تصرف فى اللغة تصرفا مطلقا جعله فى بعض الاحيان يتلاعب بالمفردات ، ويسخرها بكل حرية وطلاقة لتأدية معانيه ؛ وهو وان لم يكثر من السجع ، فان جمله وعباراته لا تكاد تخلو من تعقيد نظرا لما يطغى عليها من جناس وطباق وصور مختلفة تتجلى فى الاستعارات التى كثيرا ما يلجأ اليها ، مما يدل على تكوينه الادبى المتين وعلى شاعريته التى تظهر متفتقة فى غير هذا الكتاب .

---

1) انظر ابن الزبير ، صلة الصلة (نشر ليفى بروفنسال الرباط 1938) صفحة 95 .

2) انظر فى هذا الموضوع بحثا مفصلا للبحاثة محمد العابد الفاسى الفهرى مجلة دعوة الحق السنة الثانية ع 4 و 5 و 6 .

ابـن البنـــاء المراكـشي

كان القرن السابع هـ على موعد مع ميلاد أعظم شخصية مغربية عرفها العصر المريني فيما يرجع للعلوم العقلية وبالاخص منها علوم الهيئة والكيمياء والرياضيات ؛ بل لم يسبق للمغرب أن عرف مثل هذه الشخصية النادرة ، الفذة ، العبقرية ، الخارقة للعادة بذكائها الوقاد ، بذهنها الثاقب ، وبمواهبها الفطرية التى أدهشت المغرب والمشرق بقدرتها على الخلق والابتكار ، وبتفتحها لانواع شتى من العلوم النقلية والعقلية ، تستوعبها كلها وتهضمها بدون ما ضجر وفي أقصر مدة ممكنة .

انها شخصية ابن البناء المراكشي ، ذلك الاسم الذى كان بمثابة نور ساطع ، ظل يلمع في هذا العصر وفي العصور التالية التى انتفعت باشعاعه وباشراقه . فكان مفخرة لدولة بنى مرين وللبيئة المغربية ، وللعالم العربى كله . ملأ الدنيا بسمعته ، وشغل الافكار ، وجلب اليه الانظار من كل ناحية ، فتصدت اليه اقلام لتتعرف عليه وتعرف به ، ولتبحث تراثه وتحلله وتترجمه الى لغات أجنبية مختلفة ، نظرا لقيمته النفسية ولآثاره البعيدة المدى فى التفكير الانسانى بأجمعه .

تحدث عن ابن البناء معاصروه وغير معاصريه من المتقدمين والمتأخرين ؛ وتعرض له جهابذة الفكر ، وأعلام الثقافة فى المشرق والغـرب ، ورواد الفلسفة والسياسة ، ومشاهير المؤرخين والادباء فتناولوه كلهم بالثناء ، والتعظيم ، والتبجيل، واعترفوا له بالفضل الكبير . يكفيك أن ابن خلدون (وناهيك به) ذكره في مقدمته وعلق على انتاجه بكثير من التقدير والاعجاب ؛ فلنسمعه يقول فى الفصل الذى عقده للحديث عن العلوم العددية : «ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ، ولابن البناء المراكشى فيه تلخيص ، ضابط لقوانين أعماله ، مقيد ثم شرحه بكتاب سماه : (رفع الحجاب) وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المبانى ، وهو كتاب جليل القدر ، أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك»(1) ذلك ما قاله عنه ابن خلدون . نكتفى به اذ ليس من الممكن أن ناتى بأقوال جميع من نوهوا به واعترفوا بجدارته واستحقاقه ، ذلك لانهم كثيرون ، وأحكامهم تكاد تكون كلها واحدة ، مجمعة على شيء واحد وهو التقدير والاعجاب .

مـولـده

ولد ابـوالعباس احمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشى ، الملقب بابـن البناء بمراكش سنة 654 هـ. لم يقع اى اختلاف بين المؤرخين في هذا التاريخ كما جرى بالنسبة لعدد كبير من اعلام هذا العصر ، الا ان هـؤلاء المؤرخين كانوا متضاربين متناقضين عند ما تحدثوا عن تاريخ وفاته . ومع ذلك فالرأى السائـد

1) المقدمة (المطبعة البهية المصريـة بدون تاريخ) ص. 421-422 .

هو أن هذه الوفاة كانت سنة 721هـ أما مكان ازدياده فقد كان بحي قاعة بناهض ، وهو حي من الاحياء المراكشية العتيقة المشهورة بحضارتها ورقي مستوى سكانها ، وهو قريب ايضا من جامعة ابن يوسف المشهورة ، تلك الجامعة التي ظلت على مر الزمن منبع الثقافة والحضارة الاسلامية في العاصمة الجنوبية كما كـــان الشأن بجامعة القرويين بفاس . اما منزله الخاص فالغالب على الظن انه كان بهذا الحي الذي عرف به ، ولقد حملنا على هذا الظن مـــا استنتجناه من مشاهدتنا لبعض الآثار القديمة ومن الاتصالات المختلفة التي اجريناها مع بعض الشخصيات وبعض سكان أهل مراكش من ذوي الخبرة في هذا الميدان والتجربة المبنيـة على طـول العمر والاهتمام بالآثار . وهذا ما يخالف ما رواه ابن قنفـــذ الذي ذهب الى كون مترجمنا كان «يسكن دارا بفنائها أشجار ، بناها قرب باب أغمات»(1) .

اخـــلاقه وتربيتـــه

كان ابن البناء ، فيما يرجع للاخلاق والتربية ، متشبعا بروح الاسلام وتقاليده، ويحكي عنه معاصروه انه كان متواضعا منبسطا ، مقبلا على الاجتماع ، محبا للخير ، متفتحا للغير ، مستعدا في كل مناسبة وظرف لافادة الطلبة ، متفانيا في خدمـــة العلم ، سالكا سبل التقوى والعبادة .

اتصالـــه بالبـــلاط المرينـي

هل اتصل ابن البناء بالبلاط المريني ؟

لا نظن ان ابن البناء كان له اتصال وثيق بالملوك المرينيين كما اتصل بهم الفقهاء والشعراء في عهده . ولسنا نعلم بالضبط هل كان هو الراغب عنهم ام كانوا هم الذين ينفرون منه كما كانوا ينفرون من الفلاسفة ومن حذا حذوهم . الا أننا يمكننا ان نستنتج من الظروف التي كان المغرب يعيشها آنذاك ان الاوضاع والتقاليد الاجتماعية لم تكن تسمح له باقامة علاقة متينة بينه وبين البلاط المريني رغم كون كثير من المصادر التي تعرضت له ذكرت انه كان يتمتع بسمعة كبيرة وبتقدير وحظوة عظيمة لدى هؤلاء الملوك ، ويحكي ابن قنفذ في هذا الصدد انه راى عند احفاد ابن البناء بمراكش رسالة بخط احد الامراء ينشده فيها بكل الحـــاح ويرجو منه على

1) انظر في مجلة هيسبريس (مجلد 25 سنة 1938 الرباط صفحة 141) بحثا للدكتور رينو تحت عنوان ابن البناء المراكشي الصوفي والعددي .

سبيل الصداقة ان يقدم لزيارته (1) كما تؤكد بعض المصادر انه كان كثير التنقل الى فاس بقصد زيارة هؤلاء الملوك . نعم ، لقد تنقل كثيرا الى فاس لكن ذلــك التنقل كان لغاية علمية اذ من المعلوم ان ابن البناء كان يدرس فى جامعة القرويين وفى بعض المدارس التى أسست فى هذا العهد .

ابن البنـــاء الصوفـــى

كان ابن البناء صوفيا مخلصا لمبادىء التصوف ، عاملا على تطهير نفسه ، سالكا سبل التقرب من ربه ، منشغلا ، منصرفا عن أمور الدنيا كارها ملذاتها ، متفانيا فى التقوى والعبادة . وكان شيخه فى هذا الميدان الصوفى الشهير ، القطب ، صاحب الكرامات ، ابو زيد عبـــد الرحمن الهـــزمرى ، رئيس الطـائفـة الهزمرية باغمات . اخذ عنه ابن البناء طريقته الصوفية كما أخذ عنه علوما كثيرة ، وفوق ذلك كانت تربطهما علاقات ودية خاصة جعلت ابن البناء (كلما اعترضته مشكلة يركب بغلته ويغادر مراكش قاصدا شيخه ليستفتيه فى المسائل المستعصية عليه ، ثم يرجع الى منزله راضيا مطمئنا مقتنعا بنصائح شيخه الوقور) (2) .

ومن انتاج ابن البناء فى هذا الباب كتاب سماه «مراسم الطريقة فى فهـــم الحقيقة من حال الخليقة» وهو مخطوط توجد منه نسخة تحت رقم 72 ن بخزانة وزان ، اطلعنا عليها فوجدناها مبتورة مكتوبة بخط صعب القـــراءة ، متلاشية الاجزاء ، الشىء الذى جعلنا نلجأ الى قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط حيث وجـدنا صورة لهذا المخطوط (ميكروفلم) فأخذنا عنه فكرة كافية تتلخص فى كون ابن البناء فى هذا المؤلف لم يات بشىء جديد وانما اكتفى بالتحدث عن التصوف وعن مبادئه والوسائل التى ينبغى اللجوء اليها لتطهير النفس وتخليصها مما قد لحقها من دنس فى هذه الدار ، وتلك مبادىء عامة معروفة عند الصوفيين تكتسى صبغة عملية اكثر منها نظرية . اما الشرح الذى اتى به فى هذه النسخة فهو موجز كاف لتفسيــر ما قصده . وله ايضا مختصر احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى .

ابن البناء الفقيه المحـدث المفسر

خاض ابن البناء كذلك غمار علوم الدين والفقه ، فكان اماما فيها ، عارفـا بمقاصدها ، ملما بأصولها وفروعها ، مطلعا على جزئياتها ، فدرسها فى مراكش اولا

---

1) م. ن. صفحة 142 .

2) رينو ابن البناء المراكشى ، مجلة هسبريس 25–1938 ص 142 .

ثم بفاس ، كما عقد جلسات خاصة ، وعامة لاعطاء رأيه فى بعض ما اشكل على اهل عصره ، لانه كان يستفتى في النوازل والاحكام ويرشد العامة فى المساجد ، ويفقههم فى أمور دينهم .

وقد ذكر ابن حجر «انه كان فاضلا عاقلا ، نبيها ، انتفع به جماعة فى التعليم، وكان يشتغل من بعد صلاة الصبح الى قرب الزوال » .(1) وقد برهن ابن البناء عن مقدرته الكبيرة فى هذه العلوم بتأليفه عدة كتب منها :

تفسير سورة الكوثر ، تفسير سورة العصر ، تفسير الباء فى البسملة ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها فى أوائل السور ، حاشية على الكشاف ، المتشابه اللفظ في القرآن ، عواطف المعارف ، الفصول فى الفرائض ، عمل الفرائض رسالة فى أسماء الله الحسنى ، مقالة فى الاقرار والانكار . جل هذه الكتب مفقود ، وهى كلها نفيسة رغم كون صاحبها لم يتعد فيها الشرح والتعليق والجمع والاختصار . والتحليل فى بعض الاحيان والغريب أن ابن البناء لم يتأثر فيها بفكره الرياضى لا من حيث الاسلوب ولا من حيث الافكار التى شرحها او حللها . فهى اذن فى الجملة شبيهة بالمصنفات الكبيرة التى الفت فى ميدان العلوم الدينية فى هذا العصر .

ابن البناء الرياضى الكبير

نصل هنا الى الميدان الذى صال فيه ابن البناء وجال واصبح موضوعا تتناوله الالسنة والاقلام . لقد مر بنا فى موضع غير هذا ان ابن البناء كان استاذ الرياضيات بل كان الاستاذ الوحيد الذى أخذ عنه كثير من علماء عصره كما راينا أن جل الرياضيين كانوا من تلامذته . فلنكتف اذن بما قلناه سابقا اجتنابا للاطالة والملل ولننتقل الى مؤلفاته فى هذا الميدان . بدأت شهرة ابن البناء عند ما لخص كتاب الحصار(2) ثم شرحه وهذا التلخيص عبارة عن كتيب وجيز المحتوى لا تتعدى صفحاته 16 من الحجم الصغير ، توجد منه نسخة مخطوطة تحمل رقم ج 1149 بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط وقد بداها بقوله : «الغرض فى هذا الكتاب تلخيص اعمال الحساب ، وتقريب ابوابه ومعانيه وضبط قواعده ومبانيه وهو يشتمل على جزأين : الاول فى اعمال العد المعلوم ، والثانى فى القواعد التى يمكن بها الوصول الى معرفة المجهول المطلوب من المعلوم المفروض

1) الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة (حيدر اباد 1950) ج 2 صفحة 147 .
2) ابن خلدون المقدمة ، صفحة 423 .

اذا كانت بينها صلة تقتضى ذلك(1) » وهو فى الحقيقة كتاب مفيد لكنه صعب الفهم بالنسبة للمبتدىء على الخصوص نظرا لكونه جاء مركزا مختصرا خاليا من الامثلة المحسوسة الكثيرة التى تساعد الطالب على فهم الحقائق المجردة التى تحتاج فى تبسيطها الى كثير من الجهود لجعلها فى متناول العقول . ولعل السبب فى هذا التعقيد وهذه الصعوبة التى يصطبغ بها هذا الكتيب راجع الى كون ابن البنـــاء بالغ فى اختصار كتابه هذا كما فعل بالنسبة للكتب الاخــرى التى ألفها فـى الرياضيات وغير الرياضيات ولا عجب فى هذا لان العصر ، كما راينا ، عصر المختصرات والشروح ، واختصار المختصرات ، وشرح الشروح ، والتعليق عليها ، ولان ابن البناء اتخذها عادة لا تكاد تفارقه فى انتاجه . الـــم يعتذر عــــن ذلك بقـــوله :(2)

قصدت الى الوجازة فى كلامـى	لعلمـى بالصواب والاختصـــار
ولم احذر فهـــوما دون فهمى	ولكـــن خفت ازواء الكبـــار
فشأن فحولة العلماء شانـــى	وشأن البسيط تفهيم الصغار

وابن خلدون نفسه سبق ان لاحظ هذه الصعوبة بقوله : « .... وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المبانى . وانما جاءه هذا الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم»(3) . على أن ابن البناء ، تلافيا لكل هذا ، وتداركا لما فات ، رجع الى مؤلفه الملخص فشرحه شرحا كافيا سماه : «رفع الحجاب» .

مؤلفات ابن البناء فـى الرياضيات والتنجيم والعلوم المرتبطة بها

سبق ان رأينا ان ابن البناء كان استاذا فى الرياضيات وفى العلـــوم التى ترتبط بها . فكان اماما ، وحيد عصره لا يضاهيه احد فى ذلـــك ولقد لاحظنا بالفعل ، عند ما كنا نبحث عن الشخصيات المغربية البارزة فى هذا الميدان ، ان جل المثقفين فى هذه العلوم كانوا من تلامذته بمراكش أو بفاس . هذه حقيقة تاريخية لا يمكن التغاضى عنها(4) فلا عجب اذن أن يترك لنا ابن البناء مؤلفات قيمة فى الرياضيات ، وفى التنجيم ، وفى التوقيت ، وما يتبع ذلك من فنون ترتكز على الحساب والهندسة . اهم هذه الكتب :

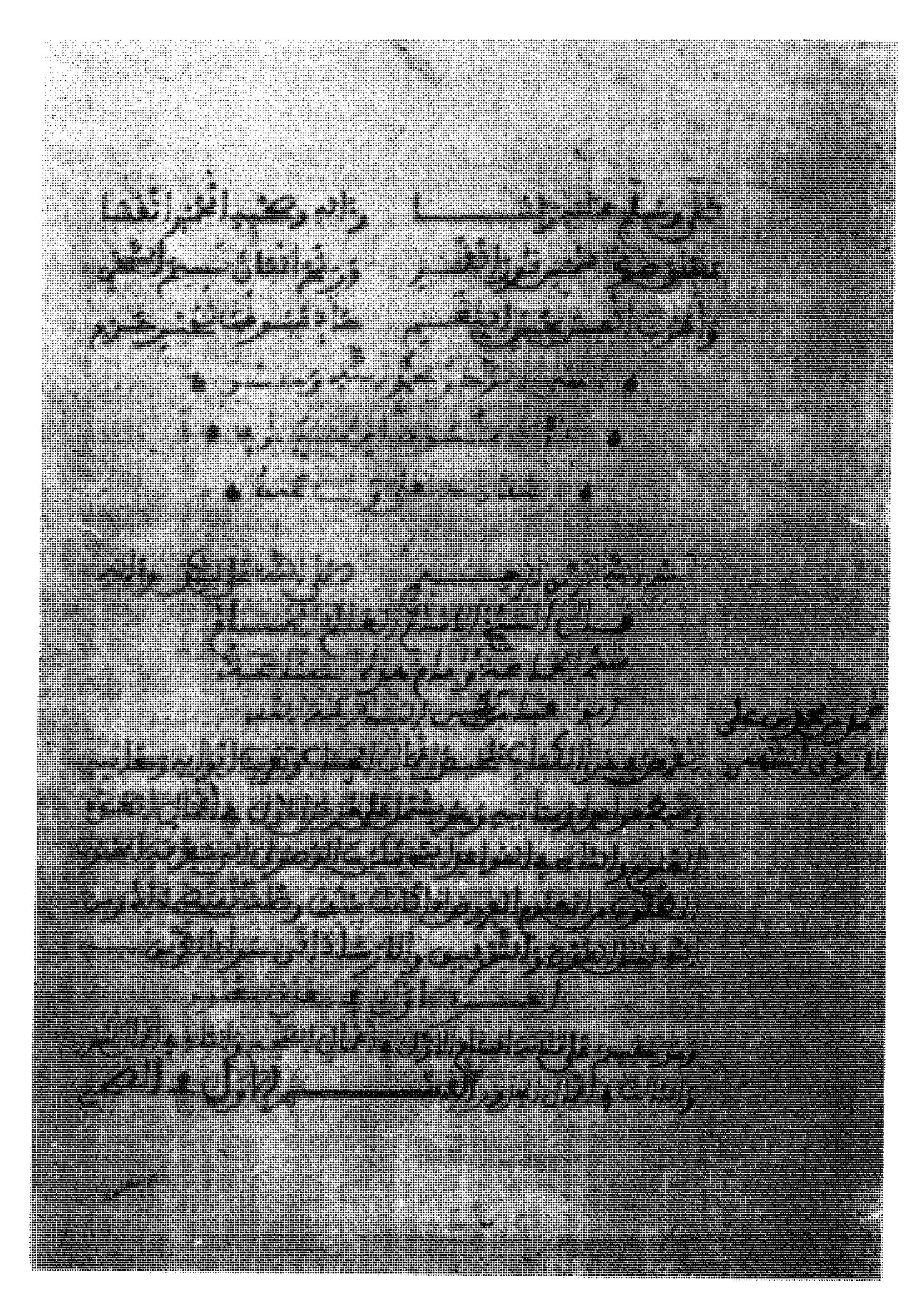
---

1) م. ن. صفحـــة 1 .

2) ابن البناء ، منهاج الطالب فى تعديل الكواكب . مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقـــم 325 صفحـــة 1

3) المقدمة صفحـــة 483 .

4) انظر الباب الثانى من هذا البحث .



الصفحة الاولى والثانية من تلخيص اعمال الحساب «لابن البنـاء المراكشي.
مخطوط الخزانة العامة رقم ج 1149 .

كتاب اعمال الفرائض ، كتاب الفصول فى الفرائض ، مقدمة كتاب اقليدوس، المقدمة الاربعة فى العدد والحساب ، الاصول فى المقدمات فى الجبـــر والمقابلة ، القوانين في العدد ، المستطيل ، التأليف فى احكام النجوم ، مقالة فى علم الاسطرلاب، جزء فى الانواع فيه صور الكواكب ، رسالة فى ذكر الجهات وبيان القبلة ، اختصار فى الفلاحة ، قانون في ترحيل الشمس ، قانون فى معرفــة الـــوقت بالحساب ، قانون فى فصول السنة ، قانون فى ترحيل الشمس ، المناخ فى تعديل الكواكب ، المناخ فى رؤية الاهلة ، المداخل الثلاثة الى صناعة الاحكام النجومية .

على أن اهم كتاب بالنسبة للطلبة لا سيما اولئك الذين لـــم يتقدم لهم أن مارسوا هذا الفن هو : «منهاج الطالب فى تعديــل الكواكب» توجـــد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ـ قسم المخطوطات رقم 325 . وهى ، رغم تلاشى بعض أجزائها ، لا تزال محتفظة بطابعها المغربى ، لم تنل منها الرطوبة والارضة الا فى بعض صحافتها التى يبلغ عددها 96 من الحجم الكبير .

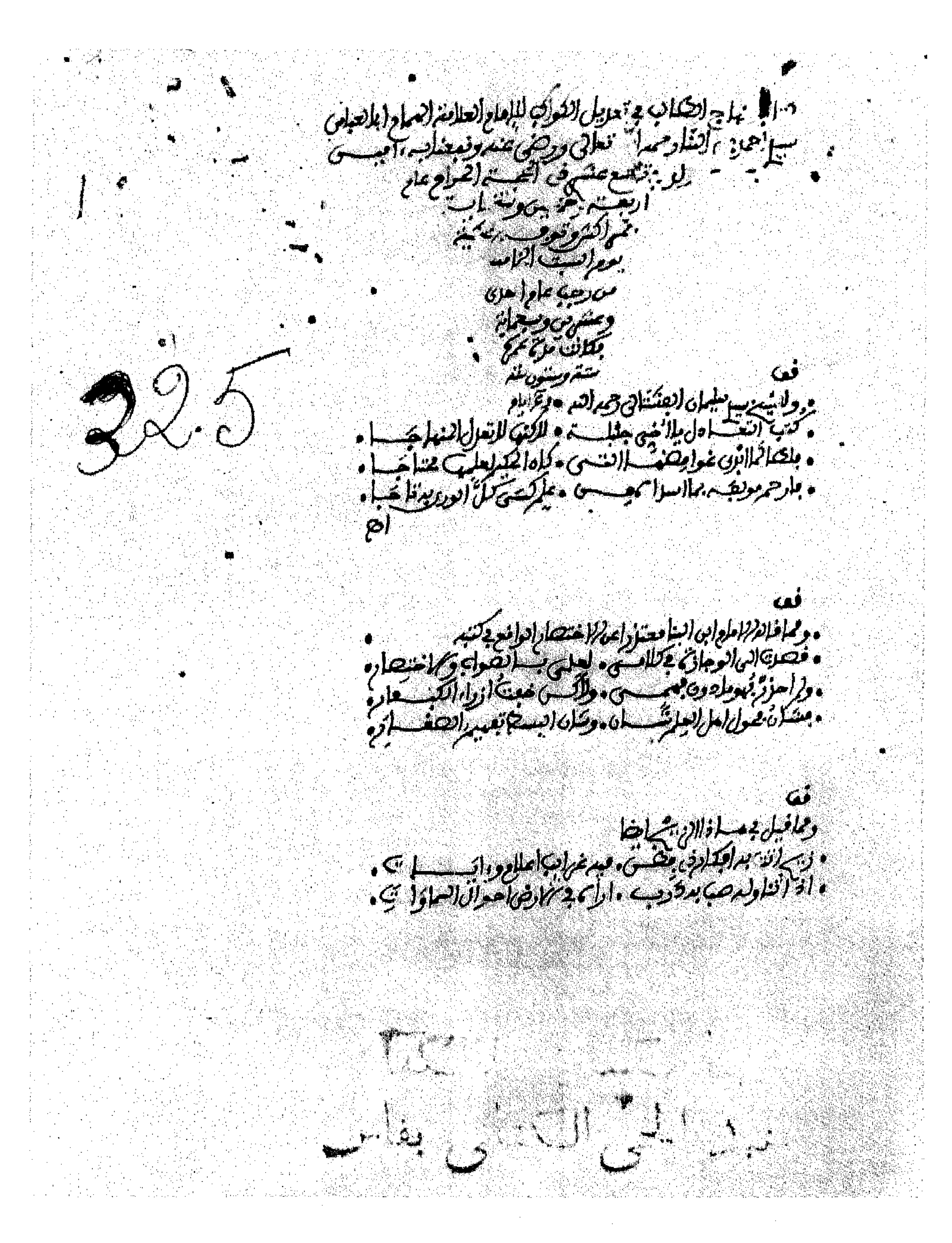
قسم ابن البناء كتابه هذا تقسيما واضحا ، وبوبه تبويبا يسهل على طـالب التوقيت كثيرا من الصعوبات التى تعترضه فى تتبع سير الكـــواكب والنظام التى تخضع له فى تنقلها وتغيرها . يتضمن الكتاب أربعة وعشرين بابا ، خصص المؤلف الباب الاول منها لمعرفة التواريخ وأوائل الشهور ثم تحدث عن القواعد الحسابية المتبعة فى هذا الشأن ، ثم أتى بجداول مضبوطة خاصة بالتطبيق والتمارين التى يجب على الطالب أن يقوم بها كى يتأكد من معلوماته النظرية ، وهـــى طريقة لا تخلو من فوائد تربوية ، لها تأثير كبير فى تكوين شخصية الطالب ، وهى أيضا من الطرق البداجوجية التى يدعو اليها علم النفس الحديث . وقد بدأ ابن البنـــاء مؤلفه هذا ، كما يتضح فى الصورة التى اخذنا عنه ، بقوله : «الحمد لله الذى خلق الافلاك الدائرة ، وزينها بالنجوم السائرة ، وصلى الله على سيدنا محمد سيدى الامم السالفة والغابرة ، وعلى آله وسلم كثيرا»(1) : مقدمة خالية من التعقيد ، لا اطناب فيها ولا استطراد ، وان كان صاحبنا يغلب عليه السجع الذى طبع سائر مؤلفات هذا العصر ، الا ان هذا السجع خفيف ومقبول لا تكلف فيه ولا افتعال .

ابن البناء الساحر

اشتغل ابن البناء بالسحر ، وبالكهانة ، وبالطلسمة لكونه رياضيا كبـــيرا ولكون هذه الفنون مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم الهيئة والفلك والتنجيم ، فليس اذن فى الامر غرابة ما دام صاحبنا يلم بذلك كله ، ويتقنن فيـــه تفننا خاصا . وكان

(1) منهاج الطالب فى تعديل الكواكب صفحـــة 1

الصفحة الاولى من «منهاج الطالب فى تعديل الكواكب» (لابن البناء المراكشى) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 325 .



الصفحة الاخيرة «منهاج الطالب فى تعديل الكواكب» لابن البناء رقم 325 .

اشتغاله بهذه العلوم التى ذكرناها اشتغالا نظريا وعمليا فى نفس الوقت . ألف فيها كتبا سناتى على ذكرها من بعد كما مارسها عمليا واستغلها لغاية ماديــة محضة . يحكى صاحب نيل الابتهاج(1) أن رجلا قصد ابن البناء طالبا منــه أن يدله عـلى مكان كنز بمنزله . وحكى عنه كذلك مؤلف الدرر الكامنة «انه امتنع عن اكل كل ما فيه روح . وصار يكاشف كل داخل عليه بما هو فيه ، ويخبره ببعض المغيبات ، ويستعمل الاشكال الهندسية والحساب فى أمور غريبة ، ومنها انه استعمل احد الاشكال الهندسية ضد شرطي ظلم بعض خدمه فلم يتم كتابته حتى خر الشرطي صريعا » (2) ويحكى عنه ايضا (3) ان السلطان ابا سعيد عثمان المرينى استدعاه يوما ليسأله عن اجله ، فأخبره ابن البناء انه سيموت بتازة وهو مشرف على اشغال بنائية . فكان الامر كذلك .

اما مؤلفاته فى هذا الميدان فهى :

كلام على العزائم والرمى ، كلام على الطلمسات ، كلام على الــزجر والفــال والكهانة ، كلام على خط الرمل ، رسالة فى الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجــزة والكرامة والسحر ، عنوان الدليل فى رسم خط التنزيل .

ذلك هو ابن البناء المراكشى ، وتلك شخصيته العلمية المتعددة الجوانب ، الغنية بمعارفها النقلية والعقلية ، استطاع ان يحقق هذه المعجزة العلمية فى أقل من 67 سنة ، وهى مدة وجيزة بالنسبة لنشاطه الثقافي وما خلفه من آثار تجلت معالمها فى هذه المؤلفات الضخمة الكثيرة التى ذكرنا منها ما استطعنا الوقــوف عليه ، وهكذا قضى حياته منذ حداثة سنه الى أن وافاه الاجل سنة 721هـ. بمراكش حيث دفن بباب ايلان بحى جنان بوسكرى على حد قول عدد كبير من المراكشيين الذين يعرفون الى اليوم مكان قبره ويذهب بعضهم الى زيارته (4)

شخصيــات مشتركـة

نريد هنا التعرض لثالوث عظيم ، طبع البيئة المغربية بطابع خاص ، تجلت آثاره فى الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، ويتكون هذا الثالوث من عناصر قوية ، متينة الاسس ، متشابهة فى كثير من معالمها ومظاهرها ، يتكون من اندلسى .

---

1) احمد بابا السودانى : نيل الابتهاج بتكميل الديباج (طبعة مصر 1351) صفحة 143 .

2) ابن حجر (الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة) صفحة 73 .

3) انظر رينو ابن البناء العددى والصوفى مجلة هيسبريس مجلد 25 سنة 1938 صفحة 242 .

4) خالف مؤلف «السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» (طبعة فاس 1336 صفحة 69) هذا الراى ويؤكد ان قبر ابن البناء مجهول رغم كون عدد كبير من أهل مراكش يعتقدون انه لا زال موجودا بباب ايلان .

لسان الدين ابن الخطيب السلماني (713-776 هـ.) ومن تونسي ، عبد الرحمان ابن خلدون (732-808) ومن جزائري ، الخطيب ابن مرزوق (710-781) . هؤلاء الثلاثة بل هؤلاء الاعلام كانوا كلهم أعظم وأبرز الشخصيات التي عرفها القرن الثامن الهجري ، بل لم يكن أعظم منهم وأقوى وأكثر ايجابية في ميدان العلم والسياسة ،وفي ميدان الاجتماع والثقافة ، لعبوا في هذه الميادين كلها دورا فعالا كان له تأثير على البيئة المغربية في عهد بني مرين ، فكانوا دهاة هذا العصر ، وأفذاذه ، وزعماءه ، وصناديده وعباقرته ، كانوا كذلك بغزارة علمهم ، وبتعدد أنواع معرفتهم ، وبقوة شخصيتهم ، وبذكائهم المفرط ، وبارادتهم الجبارة ، وبطبهم القوي ، وبسرعة تكيفهم مع الاحداث والظروف الاجتماعية والسياسية ، كما كانوا ، الى جانب ذلك ، من اصحاب الحيل والدسائس ، والمغامرات ، والمناورات ، ميالين بطبعهم الى الظهور واكتساب النفوذ، يطمعون في الجاه والمال ، ولا يتورعون عن اتخاذ انواعشتى من الوسائل والحيل للتسلط على المناصب السامية ، والاستئثار بالزعامة ، ولو ادى بهم الامر الى ما ادى من تقلب ونفاق ، وتزلف واسفاف في بعض الاحيان . تعايشوا كلهم (أحيانا) في المغرب واتصلوا اتصالا مباشرا وغير مباشر برجاله ، وتلاقوا في بلاط بني مرين ، واحتك بعضهم ببعض ، فكانوا يتبادلون المساجلات والمراسلات ، متوادين احيـانا ومتنافرين احيانا أخرى ، يسلكون تقريبا نفس السلوك من حيث السياسة ومن حيث الاخلاق ، ويتنافسون ويتسابقون نحو الزعامة الفكرية ، والرئاسة الزمنية ، فطبعوا الحياة المغربية بطابعهم ، وأثروا في سياستها قصد ا او عن غير قصد ، وكانت لهم مشاركة في نهضتها الادبية .

هؤلاء الاعلام ، ترجمتهم معروفة ، غنية عن البيان ، موجـودة في المصادر العربية وغير العربية ، اذ كان ، وما زال ، صيتهم بعيد المدى ، وشهرتهم واسعة الانتشار بحيث تعدت حدود المغرب والمشرق الى دول أخرى أجنبيـة ، أوروبية وأمريكية وغيرها من بلدان العالم . تصدت لهم الاقلام في كل زمن وفي كل مكان ، فتحدثت عنهم في الصحف والمجلات ، وخلدت آثارهم في امهات الكتب كما عقدت ، ولا تزال تعقد المؤتمرات لدراسة شخصيتهم المتعددة الجوانب ، ومؤلفاتهم القيمـة الوافرة العدد .

لذلك لن نتعرض لهم ، فيما يرجع لهذه الناحية ، الا بشيء من الايجاز لان موضوعنا لا يتسع لاكثر مما له ارتباط بالحدود التي رسمناها له ، وهي البيئـة المغربية كما عرفها التاريخ في زمن بني مرين ، تلك البيئة التي فتحت ابوابها لهذه الشخصيات (1) التي نحن بصددها ، فاستظلوا بظلالها ، ونعموا بخيراتها ، وتقلبوا في مناصبها السامية ، وحظوا لدى ملوكها بمنزلة عالية ، واتصلوا بكبـار رجالها ، وعلمائها ، ومثقفيها ، وأدبائها وشعرائها واحتكوا بهم احتكاكا اثر فيهم ، فقاموا بردود فعل نفسية وفكرية .

---

1) ولغـيرها .

الصفحة الاولى من كتاب الوصول لحفظ الصحة فى الفصول ، ابن الخطيب السلماني مخطوط الخزانة العامة رقم 85 .

فهم اذن مدينون لهذه البيئة ماديا ومعنويا وفكريا ، وهذه الناحية الاخيرة هى التى تهمنا الآن .

ابــن الخطيب

ولد ابن الخطيب ، كما هو معلوم ، ببــلاد الاندلس ، بمدينة لوشة سنــة 713 هـ. وتلقى دراسته بغرناطة ، فظهرت عليه منذ حداثة سنه معالم النبوغ والذكاء الشىء الذى جعله يقبل على علوم شتى ، نقلية وعقلية ، درسها كلها وتفوق فيهـــا تفوق الامام الاستاذ . فكان فقيها ، واديبا ، وشاعــرا ، وفيلســوفا ، وطبيبــا ومؤرخا ، ومتصوفا ، ووزيرا لبنى الاحمر فى مملكة غرناطة .

بهذا المحصول العلمى الوافر ، وبهذا الوزن الثقيل ، انتقل ابــن الخطيب للمرة الاولى الى المغرب كسفير اوفده السلطان يوسف ابن الاحمر سنة 748 هـ. على ابى عنان المرينى لتقديم تعازيه اليه اثر وفاة ابيه ابى الحسن . وفى سنة 755 هـ. جاء الى المغرب بنفس الصفة مبعوثا من قبل محمد بن يوسف الغنى بالله ، الذى كان فى حاجة ماسة الى عون بنى مرين . فاستنجد بهم بواسطة سفيره ابن الخطيب ، فتحقق الغرض المنشود ، واستجاب ابو عنان لطلب ابن الاحمر ، ورجع السفـــير مظفرا ، معزز الجانب لانه نجح فى مهمته .

الا ان الظروف سرعان ما تغيرت ، فانقلبت الاحوال على سفيرنا ، واضطر لمغادرة بلاده سنة 761هـ ووفد على المغرب هو وسلطانه المخلوع محمد الغنى بالله . فوجدا فى ابى سالم المرينى خير نصير واكبر مواسى . فاستقبلهما استقبالا خاصا ، ووفر لهما ما كانا فى حاجة اليه . فانتهز ابن الخطيب اللاجىء هذه الفرصة ورمى بنفسه فى احضان البيئة المغربية ، يتنقل بــين مدنها وقـــراها ، متصــلا بكبار شخصياتها ، جاعلا من نفسه فى بعض الاحيان رجلا متواضعا ، ناسكـــا ، قاصدا الاولياء وذوى الكرامات ، وفى أحيان اخرى شخصا حاقدا ، ناقما ، يصب جـــام غضبه على الاشخاص والاشياء ، فكان تجاوبه فى هذه الفترة التى استغرقت ثلاث سنوات) مع البيئة المغربية تجاوبا متكاملا ، سجل صداه هو نفسه فيما حرره من رسائل وما ألفه من كتب أثناء اقامته منفيا بالمغرب .

ومن المفيد أن نتعرف على هذا الانتاج الذى خلفه ابن الخطيب والذى كان فى الواقع ، ثمرة تفاعله مع البيئة المغربية المادية والاجتماعية .

من مؤلفاته التى كتبها فى هذه المدة التى قضاها منفيا بالمغرب كتاب فى الطب سماه : «عمل من طب لمن حب» توجد منه نسخة محفوظة بخزانة القرويين تحت رقم 3657 . وقفنا عليها بهذه الخزانة واطلعنا على محتوياتها ، فوجدناها مفيدة للغاية بما تضمنته من معلومات طبية ، وقواعد صحية ، وطرق العلاج والوقاية

الصفحة الاولى من «الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام» لسان الدين ابن الخطيب مخطوط الخزانة العامة رقم د 1552 .



الصفحة الاولى من «معيار الاختيار فى ذكر المعاهـد والديار» لابـن الخطيب السلمانى مخطوط الخزانة العامة رقم 1092 .

المختلفة . تحمل في أول صفحة منها هذه الديباجة : «الحمد لله الذي خلق الانسان من نطفة امشاج» يذكر فيها ابن الخطيب ، بعد مدح طويل للسلطان ابي سالم المريني ، انه لم ير في خدمته احسن من الطب والكتاب يتضمن جزأين : الجزء الاول خاص بتعديد ووصف الامراض من الرأس الى القدم ، والثاني يعدد الامراض التي تعترى الجسم كله . اما اسلوبه في طريقة العرض فهو واضح ، وان كان فيه اطناب وشرح طويل يبعث في بعض الاحيان على الملل والرجوع الى القواعد الاساسية لتتبع انواع العلاج والوقاية . الا ان الطريقة المتبعة في عرض المرض وشرحه وبيان طرق علاجه تعوض هذا النقص نظرا لانطباعها بطابع منطقي وطبيعي في نفس الوقت. ذلك ان المؤلف يبدأ أولا بذكر المرض ويسميه باسمائه المعروفة ، ثم يعرف به ، ثم يشرح علاماته والاوجاع التي تنتج عنه ، ثم يذكر انواع العلاج ، ثم ياتي اخيرا بالادوية المناسبة ، ويحللها ويذكر مكان وجودها . وينصح ابن الخطيب باتباع الحمية واتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة فيما يرجع للاغذية . ويلح على الوقاية قبل ان يصاب المريض بمرض ربما تعذر علاجه . والواقع ان هذا الكتاب مفيد جدا لما تضمنه من معلومات نظرية وقواعد عملية من السهل تطبيقها على بعض الامراض «البسيطة» «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» .

هذا كتاب آخر ألفه ابن الخطيب عند ما كان منفيا بالمغرب . توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط عثرنا عليها وتصفحناها ورقة ورقة ، فوجدناها مكتوبة بخط مغربي جميل مذهب ، تحمل رقم د 1092 ، لا تتعدى صفحاتها 122 صفحة . تكلم بروكلمان عن هذا المؤلف في ملحقة ج : 2 صفحة 372 وسريكس في معجمه صفحة 1591 واعتنى الاستاذ موليز بنشر نبذة منه في مونيخ سنة 1866 . وأخيرا نشره الدكتور احمد مختار العبادي بالقاهرة سنة 1958 تحت عنوان : « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس » نشر كلية الآداب، مطبعة جامعة الاسكندرية . وهذا الكتاب يتضمن بالاضافة الى «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» رحلات أخرى قام بها ابن الخطيب في المغرب وفي الاندلس .

اما موضوع الكتاب فهو عبارة عن مقامات وضعت على لسان مدن الاندلس والمغرب ، كما يتضمن بعض التراجم الاندلسية ، وفيما يرجع للمغرب تحدث ابن الخطيب فيه عن فاس بكثرة ثم عن تازة ثم مكناس . ثم مراكش ثم اغمات وسجلماسة الى غيرها من المراكز المغربية الرئيسية في عصره .

أما الاسلوب فهو كله سجع . فيه كثير من التكلف والتصنع اللفظي الذي يغطي في بعض الاحيان على ما يرمي اليه المؤلف من مقاصد ومعلومات جغرافية واجتماعية .

وهذه صورة عنه ، اقتبسناها من الديباجة : «الحمد لله الذي انفردت صفاته بالاشتمال على اشتات الكمال ، والاستقلال باعباء الجلال ، المنزه عن اختلال الاخلال، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال » .

« مثـل الطريقـة فى ذم الوثيقـة »

لقد سبق ان تحدثنا فى غير هذا الموضوع عن تنقلات ابن الخطيب ومقامه بفاس وبسلا وباحتكاكه فيهما بكثير من الشخصيات ، كما سبق ان تعرضنا للنزاع الذى وقع بينه وبين ابى العباس القباب . والسبب بسيط هو ان هذا الاخير لم يلب الدعوة التى وجهها له ابن الخطيب فقام هذا الاخير وقعد وصنف رسالة تحت العنوان المذكور ، تناول أبا العباس ومن كان يحترف حرفته بكثير من النقد ، والشتم ، والوصف الشنيع . فصب ثورته الانفعالية وجام غضبه فى قالب سماه «مثل الطريقة فى ذم الوثيقة» وأسلوبه فيها أسلوب ساخر لا يخلو من تعقيد وتحديف وتشويه للحقيقة والواقع ، وليس الامر بغريب ما دمنا نعرف أنه كان منساقا وراء عاطفته الثائرة ، فلم يكن ينتظر منه سوى ما قال وسوى ما صاغه فى هذه الرسالة من قذف وشتم . ولقد حطت هذه الرسالة الواضحة بسمعته وأبانت عن سريرته ، وكشفت النقاب عما كان يكنه لبعض علماء المغرب .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع ، موجودمنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم د 1552 . وهو مؤلف ضخم يقع فى 267 ورقة كتبه (1) ابن الخطيب وهو منفى بالمغرب للمرة الثانية اثر وفاة السلطان المرينى عبد العزيز وتولية ابى بكر بن غازى الوزير لولده سعيد ، ونتيجة للضجة التى ثارت حول هذا الطفل ، قام ابن الخطيب فألف هذا الكتاب تبريرا للموقف ، وتقربا من الوزير صاحب السلطة المطلقة . فكان هذا الكتاب بمثابة فتوى مستمدة من التاريخ الاسلامى الذى سجل فى ثنايا صفحاته كثيرا من الاحداث المماثلة التى وقعت فى مختلف الممالك الاسلامية والتى تبرر ما وقع فى المغرب بمناسبة تنصيب طفل كملك للبلاد . فاختار ابن الخطيب من التاريخ الاسلامى كثيرا من الحجج قدمها بمهارة ودهاء دفاعا عن الوزير أبى بكر ولاقناع خصومه الثـائرين .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع . اكتفينا بهذه الامثلة التى سردناها ، وهى كلها تتصل بالبيئـة المغربية اتصالا مباشرا اذ انها تستمد مادتها الخام منها وتعكس مظاهر التفاعل الذى تم بين ابن الخطيب وهذه البيئة التى آوته واحتضنته برعايتها الى أن وافاه الاجل المحتوم فلفظ نفسه الاخير بها فشاء القدر ان تحتضنه مرة أخرى لكن تحت ترابها .

---

(1) نشر ليفى بروفنسال القسم الخاص بالشرق والاندلس الرباط 1932 ونشر الاستاذان ابراهيم الكتانى والمختار عبادى القسم الخاص بافريقيا والمغرب الرباط 1964 .

ابن خلدون

ولد أبو زيد ولي الدين عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون بتونس سنة 732هـ وهو كما اشرنا الى ذلك ، من الشخصيات الثلاث التى كان لها دور فعال وسلوك خاص فى هذا العهد الذى نؤرخ له ، فلا حاجة بنا اذن الى التعريف به والتحدث عن شهرته الكبيرة وعواملها المختلفة . ما دمنا قد تعرضنا لذلك فى بداية هذا الفصل والتزمنا بترك هذا الجانب الذى طرقه عدد كبير من المؤرخين والادباء والمفكرين لنهتم بالخصوص بما له صلة بموضوعنا .

فالذى يهمنا هنا اذن هو ان ابن خلدون استكمل نشأته ودراسته بالمغرب ، وتقلب فى عدة مناصب سامية فى هذه البيئة كما كان له فيها سلوك خاص ، تجلى فى المناورات السياسية التى كان يحيكها ليل نهار ، والمغامرات والدسائس التى كان يقوم بها استغلالا للنفوذ ، وتقربا من أولى الامر فى الدولة ، لا يهمه فى ذلك أن يخالف القوانين أو يراعيها ، هدفه الوحيد هو الوصول الى الغرض المنشود ، مهما كانت الوسائـل .

والقصة معروفة فى عدد كبير من المصادر التى تعرضت له ، بل نجدهـا عنده ، يحكيها بنفسه ، بكل صراحة فى كتابه : «التعريف بابـن خلدون ورحلته غربا وشرقا» (1)

نشأ نشأته الاولى بتونس كما ولد بها ، فتلقـى دراسته الاولى على كبـار علمائها الى ان بلغ سنه الثامنة عشرة حيث اصبح يشعر بميل الى خوض شؤون الدنيا وغمار السياسة ، فكلف من طرف الوزير ابن تافكرين لاول مرة بوظيفـة سامية ، هى كتابة العلامة . لكن الاحداث الاجتماعيـة والاضطرابات السياسيـة التى كانت تعصف بالمغرب (الادنى والاوسط ، والاقصى) وحب المغامرة والظهور، والانسياق وراء الاهواء والشهوات ، كل ذلك دفع بصاحبنا الى التنقل وتتبع اذيال الرياسة والجاه ، وتحسس الاماكن الخصبة الى أن صادف السلطان أبـا عنـان المرينى ، وهو يومئذ يقوم بالحملات المتتالية لاخضاع الطغاة والخارجين عن سلطته بالمغربين الادنى والاوسط ، فاستغلها ابن خلدون فرصة ثمينـة ، وتقرب من السلطان المذكور وخفض له جناحه ، وتملق عواطفه بانـواع شتى من الطـرق والوسائل ، فنال منه ميتغاه ، واستقدمه الى عاصمته فاس سنـة 755 هـ حيث أسند اليه مهمة علمية سامية ، وهى عضوية المجلس العلمى بفاس ، وهكذا اخذ

---

1) نشر محمد بن تاويت الطنجى القاهرة 1951 .

يباشر هذه المهمة بكل جدارة واستحقاق ، مبرهنا عن اخلاصه فى عمله ، عاملا على اثارة انتباه مخدومه اليه كى يطلع بنفسه على هذه المقدرة وعلى هذه الكفاءة ، فتحقق ابو عنان من ذلك ، وقربه اليه مرة اخرى ، ورفع من مكانته حتى اصبح بعد انصرام سنة واحدة من كتابه واصحاب علامته . وفى هذه الاثناء لم ينصرف ابن خلدون عن الدراسة والتحصيل ، لمافى ذلك من وسائل الضغط والظهور والبروز ، لا سيما فى هذا العهد الذى كثر فيه الفقهاء والعلماء ، واصبح التنافس شديدا بينهم والتسابق حادا نحو الاستئثار بمناصب الدولة وبنفوذها . فبدأ ابن خلدون يتصل بكبار فقهاء عصره كى يستكمل دراسته التى بدأها بتونس فاخذ عن عدد كبير من علماء المغرب وغيره الى أن شعر باستعداد نفسه ، وقوة ادراكه ، وتفتح ذهنه ، وتمكنه من اللغة والادب والفقه وعلوم اخرى برهن عن تضلعه فيها حينما الف كتابه الضخم فى التاريخ ولا سيما منه المقدمة . وما ان تمكن من نفسه وتحقق من كفاءته حتى اصبح بدافع المغامرة والطموح المفرط يبحث عن منافذ اخرى علها تبوئه مكانة اعلى وجاها اقوى . وهكذا بدأ يحيك المؤامرات ، ويدبر الدسائس ضد مخدومه ابى عنان . وكان شريكه فى هذه المرة هو الامير ابو عبد الله محمد الحفصى ، صاحب بجاية المخلوع ، الذى أسره بفاس أبو عنان نفسه . فكانت الغاية هى تحرير هذا الامير كي يسترجع ملكه ويثبت محرره ابن خلدون بتوليه وزارة او حجابة . لكن المؤامرة المدبرة لم تنجح ، فاحبطها ابو عنان فى مهدها واسر ابن خلدون بمجرد ما بلغه الخبر ، وبقى هذا الاخير سجينا ما يقرب من سنتين قضاها كلها فى البكاء والاستعطاف ، والتضرع والتوسل ، ولم تفده تلك الاستعطافات ولا تلك القصائد التي نظمها فى مدح ابى عنان كى يخلصه من هذا السجن ، ذلك ان ابا عنان وافاه الاجل المحتوم ، وترك اسيره فى السجن منتظرا ظروفا اخرى علها تكون السبب فى انقاذه .

1) ابن خلدون بعد وفاة ابى عنان

مات أبو عنان وابن خلدون فى سجنه ، وكان من المنتظر أن يخلفه ابنه وولى عهده محمد ابو زيان ، لكنه ذهب ضحية احد الوزراء المستبدين بأمور الدولة ، الحسن بن عمر الفودودى الذى كان آنذاك مسيطرا على شؤون المخزن ومحجرا على الملوك والامراء ، فأقصاه وقتله ، ثم عين مكانه طفلا من اطفال ابى عنان ، هو ابو بكر السعيد البالغ من العمر 10 سنين . والمهم ، بالنسبة لابن خلدون ، هو انه اطلق سراحه على يد هذا الوزير المستبد واسترجع مكانته وسابق وظائفه .

لكن الامور لم تدم طويلا نظرا لعدم استقرار الامن وكثرة الخلافات والثورات الناشئة هنا وهناك ، اذ فى هذا الوقت بالضبط قام احد احفاد يعقوب بن عبد

الحق ، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق (1) وثار ضد الحسن بن عمر وانتزع من يده السلطة وما كاد يبدأ فى مباشرة مهامه حتى انضم اليه ابن خلدون غادرا بالوزير كما غدر بابى عنان وغيـــره ، فعينـــه منصور كاتبا له .

2) ابن خلدون والسلطان ابو سالم ابن ابى الحسن المرينى

هل استقر ابن خلدون ، واخذ العبرة من هذه الاحداث والتقلبات ورجع الى نفسه كي يقوم من اعوجاجها ، ويسلك سلوكا يتصف بالمروءة وبالاخلاق الحميدة ؟ كلا ؛ لقد تمادى فى سلوكه ، متحينا الفرص ، مستغلا جميع الظروف والمناسبات كي يصعد ويسمو على حساب الغير . ذلك انه عاد الى التآمر مرة اخرى ضد السلطة القائمة لتأكده من سرعة زوالها ، وكان شريكه فى هذه المرة الثانية الخطيب ابن مرزوق . تحكي المصادر التاريخية عن هذا الاخير انه اتصل بابن خلدون بصفة سرية مسلما اياه رسالة خاصة من أبى سالم بن أبى الحسن المرينى يناشده فيها بتحريض الشعب على منصور واقامة ثوره ضده كي يحتل عرش أخيه أبى عنان . فكان الامر كذلك ، واستجاب ابن خلدون لهذا المطلب الذى يرى فى تحقيقه تحقيقا لبعض مقاصده . فعمل بكل جد واخلاص مستعملا جميع قواه وحيله لانجاح المؤامرة، فنجحت بالفعل ، واستقر الامر ، بعد نشوب اضطرابات ، لابى سالم الذى جلس على عرش اخيه فعين ابن خلدون كاتب السر والانشاء والمراسيم السلطانية ، ثم ولاه خطة القضاء بعد ذلك ، وظل يستغل هذه الوظائف السامية ما يقرب من سنتين، اى الى آخر سنة 762 هـ وهى السنة التي ثار فيها الشعب على أبى سالم المرينى الذى قتل سنة 762هـ . وكان قائد الثورة فى هذه الظروف المضطربة الوزير عمـــر ابن عبد الله .

---

1) انظر الناصرى ، الاستقصا ج : 4 صفحة 5 اما مؤرخ الدولة المرينية ابو الوليد أسماعيل ابن الاحمر ، صاحب «روضة النسرين فى دولة بنى مرين» فقد ضرب صفحا عن اسمه ولم يشر اليه ولو باشارة خفيفة . ولعل السبب فى ذلك ان منصور هذا لم يستقر نهائيا فى ملكه لذلك لم يتعرض لترجمتـــه .

3) ابن خلدون والسلطان تاشفين والوزير عمر بن عبد الله صاحب السلطة المطلقة

سعى الوزير عمر بن عبد الله فى قتل السلطان ، فنجح مسعاه ، ونصب ملكا على البلاد أبا عمر تاشفين المرينى الذى لم يتجاوز عهده ثلاثة أشهر ويومين(1) . لم يتردد ابن خلدون ولو ساعة فى الانضمام الى صاحب السلطة الوزير عمر بن عبد الله الذى «أقره فى وظائفه وزاد فى اقطاعه لرزقه»(2) . لكن طموحه كان فوق هذا ، اذ كان يطمح فى مناصب اعلى كما عبر عن ذلك بنفسه حيث قال : «كنت اسمو بطغيان الشباب الى أرفع مما كنت فيه »(3) .

لم ترضه هذه الوظائف رغم سموها ، وقوة نفوذها ، فقدم اسبتقالته وطلب من مخدومه الاذن بمغادرة البلاد ، فحصل على الاذن المطلوب بعد أخذ ورد وتضرع ، وتوسل ، وبشرط ان لا يذهب الى تلمسان . فغادر المغرب سنة 763 هـ. بعد ما نعم بخيراته وتقلب فى مناصبه السامية ، لكن دافع الغرور المتمكن من نفسه ، وحب الزعامة والرياسة المسيطر على وجدانه ساقاه الى بيئة اخرى ، الاندلس ، عله يظفر فيها بما كانت تصبو اليه نفسه .

وهكذا نرى الى اى حد تاثر ابن خلدون بالبيئة المغربية كما تاثرت به . لقد لعب فيها دورا رئيسيا من الناحية السياسية والاجتماعية ومن الناحية الفكرية والثقافية . الم تكن هذه الاحداث المتقلبة التى عاشها فى هذه البيئة ، الم تكن هذه التاثيرات المادية والاجتماعية والمعنوية عاملا من عوامل تكييفه وتكوينه . لقد مكنته هذه الظروف من اكتساب خبرة واسعة ، وتجربة كبيرة ، وثقافة غزيرة . ففضل البيئة المغربية عليه حقيقة تاريخية لا يمكن التغافل عنها . وكنتيجة حتمية لذلك ، فهو مدين ــ الى حد ما ــ بآثاره القيمة الخالدة لهذه البيئة التى عاش فى أحضانها مدة حافلة بالاحداث والوقائع الاجتماعية الخطيرة .

فالى اى حد كان تأثير هذه البيئة متجليا فى انتاج ابن خلدون ؟

اهم ما ترك لنا ابن خلدون هو كتابه الضخم القيم الذى يعرفه الكل : « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » يمكننا أن نقسمه من حيث أهميته الى ثلاثة أقسام رئيسية :

---

2) الدكتور عبد الواحد وافى ، ابن خلدون (مصر ، مكتبة النهضة) صفحة 30 .
3) التعريف ص 88 .

1) المقدمة

2) القسم المخصص للتاريخ

3) القسم المتعلق بترجمة ابن خلدون نفسه وهو «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » .

أما المقدمة فشهرتها لا تخفى ، وهي التي خلدت ذكر صاحبها على مر الازمان والاجيال ، وهي التي برهنت على غزارة علمه وقوة ادراكه ، ودقة ملاحظاته وتوقد ذكائه ، وبذلك كانت له الزعامة الفكرية في عصره اذ اتى بشيء جديد في ميدان العلم والمعرفة ، ذلك انه التمس علما جديدا سمي فيما بعد بعلم الاجتماع. وكفى ابن خلدون فخرا هذا المجهود الذى وضعه فى مقدمة مفكرى الاسلام بل فى مقدمة رواد الفكر في العالم اجمع .

على أن المهم بالنسبة لموضوعنا هو ان ابن خلدون فى هذه المقدمة استقى معلوماته وحججه وادلته من البيئة المغربية التى عاش فيها ، وسواء كان يتحدث عن البيئة المادية أو عن مظاهرها الاجتماعية فحديثه هذا يكاد يكون مقصورا على هذه البيئة وما تضمنته من امكانيات بشرية ومادية ، وما دار فيها من احداث وفتن كانت مسرحا لها ، وهذه الظاهرة هي التى جعلت النقاد ياخذون عليه هذا الاقتصار وهذه النظرة الضيقة التي جعلته يعمم احكامه بدون ان ينظر ، فيما يرجع للظواهر الاجتماعية ، الى البيئات الاخرى التى كانت تجاور المغرب او التى كانت بعيدة عنه . فالاحكام ، اذا كانت موضوعية ، تصدر عن فكر استطاع ان ينظر الى الاشياء والاشخاص نظرة عامة شاملة لان القوانين التى يخضع لها كل علم يجب ان تتصف «بالدقة والشمولية قبل كل شيء . ذلك ان علم الاجتماع من العلوم الوضعية لا من العلوم المعيارية النسبية .

وعلى كل ، فتأثير البيئة المغربية في هذا القسم من انتاج ابن خلدون تاثير واضح لا يحتاج الى ادلة كثيرة ، فما على الباحث الا أن يتصفح المقدمة ليتبين هذه الظاهرة ، عليه ان يقرأ مثلا الفصول التى عقدها ابن خلدون عن العلوم والمناهج والاساليب التربوية .

فابن خلدون حتى فى الجزئيات ياتى بأمثلة مستمدة من بيئة المغرب . وهكذا مثلا عند ما عرض للتعاليم لم يفته ان اشار الى ابن البناء المراكشى ، بل علق عليه ونوه كثيرا بثقافته وبذكائه وبانتاجه وهو التلخيص فى اعمال الحساب الذى وقف عليه ابن خلدون نفسه .

واذا تركنا جانبا المقدمة والقينا نظرة على ما كتبه ابن خلدون فى التاريخ وجدناه يخصص اكبر قسط منه للتحدث عن البربر واصلهم وبطولتهم المتشعبة ، وما قاموا به من ادوار وما اتصفوا به من بطولة فى المغرب . ولقد تناول على الخصوص فى هذا القسم الثانى الذى هو الكتاب الثانى من مؤلفه الضخم (أو المجلدان

السادس والسابع اذا اعتبرنا المجلدان السبعة التى ضمنها تاريخه كله) قبائل صنهاجة ثم المصامدة وأخيرا زناتة التى افاض فيها القول واطنب ، واتى بكل تفصيل وجزئية لا سيما فيما يرجع لبنى مرين . فلماذا اذن هذه العناية الخاصة التى أولاها لزناتة ولبنى مرين منهم على الخصوص ؟ ان المجلد السابع كله خاص بهذه القبائل الاخيرة التى صرف فى التحدث عنها مجهودا كبيرا . أيعتبر هذا تحيزا منه أو تملقا لدولة بنى مرين القائمة فى عهده ، والتى نال على يدها حظا كبيرا من الجاه والمال والنفوذ ؟ ليس ذلك من المستبعد ولا من الغريب فى شيء اذا تذكرنا اخلاق ابـــن خلدون ومواقفه المتقلبة التى وقفها من أمراء وملوك هذه الدولة حينما كان يشغل ببلاطهم المناصب السامية .

وعلى كل ، « فالقسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر هو بعد المقدمة انفس اقسامه ، واوفرها طرافة ، واقواها عرضا وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن احوال تلك الامم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه اى مؤرخ قبل ابن خلدون او بعده » (1)

واذا كان ابن خلدون ، فى بداية كتابة تاريخه ، قصد الكلام عن القطـــر المغربى بمعناه الواسع كما صرح بذلك هو نفسه فى مقدمته(2) فان كلامه هذا يكاد يكون مقصورا على بيئة المغرب الاقصى بالضبط .

أما فيما يرجع «للتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» فهو سجل لهذه الاحداث التي عاشها ابن خلدون فى المغرب فى ظل بنى مرين ، تحدث فيه عـــن المناصب التى شغلها ، والمؤامرات التى قام بها ، والدسائس التى حبكها فى ميدان السياسة والطرق التي سلكها لتحقيق أغراضه الشخصية ، والعلاقات التى كانت تربطه بالملوك والامراء وبعض الشخصيات التى كانت تتعاون معـــه فى المناورات التى كان يدبرها . بل نراه فى هذا «التعريف» يتحدث حتى عن ثقافته الادبية ، وأسلوبه الانشائى والطرق التى أصبح يسلكها فى صياغة الرسائل وقرض الشعر . ولا بأس بايراد ما قاله فى هذا الموضوع : «وكان اكثر الرسائل يصدر عنى بالكلام المرسل ، لم يشاركنى احد ممن ينتحل الكتابة فى الاسجاع ، لضعف انتحالها . وخفاء العالى منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة ثم أخذت نفسى بالشعر تنثال على منه بحور»(3) ونجد فى التعريف ايضا قصائد شعرية ، منها القصيدة التى نظمها بمناسبة حلول عيد المولد النبوى ورفعها الى السلطان ابى سالم المرينى الذى عينه كاتب السر والانشاء . نقتطف منها هذه الابيات :

---

1) محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون (الطبعة الثانية القاهرة 1953) صفحة 139 .
2) أنظر المقدمة صفحـــة 28 .
3) ابن خلدون ، التعريف ، صفحة 88 .

اسرفن فى هجرى وفى تعذيبى	واطلن موقف عبرتى ونحيبى
وابين يوم البين موقف ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الطاعنين غادروا	قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح	فشرقت بعدهم بماء قروب(1)

الى غير ذلك من القصائد التى نظمها فى مناسبات شتى والتى لا يتسع لها المجال هنا نظرا لوحدة الموضوع .

وبعد ، ذلك هو ابن خلدون فى البيئة المغربية ، وتلك آثارها فيه وفى انتاجه الضخم الذى ظل رغم مرور قرون طويلة المرجع الاساسى فى كثير من الابحاث التاريخية والعلمية والفلسفية والاجتماعية بل وحتى الاقتصادية .

فهو كما قلنا مدين لهذه البيئة وهى مدينة له . اخذ منها واعطى ، وبذلك كمل التفاعل بينهما وانسجم ، وبذلك ازدهرت العلوم فى عصر بنى مرين ورقى مستواها .

ابن مرزوق

ننتقل الى الشخصية الثالثة المكونة للثالوث الذى أشرنا اليه فى مقدمة هذا الحديث ، وهى شخصية الخطيب ابن مرزوق الذى عاش فى كنف الدولة المرينية ، وتقلب هو الآخر فى وظائفها السامية ، ولعب دورا فى حياتها السياسية وشؤونها الثقافية . فكان مصيره تقريبا مصير معاصريه ابن الخطيب وابن خلدون ؛ لان ما عرف به من أخلاق غير مستقيمة ، ومن دسائس ومناورات سياسية ، وما عرف به من كفاءة فكرية وأدبية ونفوذ معنوى ، كل ذلك جعله يضاهى هاتين الشخصيتين المتقدمتين ويرقى الى مصافهما .

ونظرا لتعدد افراد أسرة ابن مرزوق الشهيرة بالعلم والمعرفة ، والخير والفضل نرى ضروريا هنا أن نعرض بعض الشيء لصاحبنا ، رفعا للالتباس ، وتمييزا له عن غيره ممن ينتسب الى ابن مرزوق . ذلك أن هؤلاء الافراد كانوا ، كما قلنا ، كلهم علماء فقهاء ، تركوا صيتا ذاع فى المشرق وفى المغرب . ومؤلفات نفيسة خلدت شهرتهم الى الآن . هناك العم ، وهناك الجد ، والاب والابناء ، والاحفاد ، وحفدة الاحفاد ، كلهم رجال خير وعلم . اشتهر من بينهم على الخصوص ابن مرزوق الكفيف ، وابن مرزوق الخطيب الذى يهم موضوعنا نظرا للصلة التى كانت تربطه بالبيئة المغربية فى زمن بنى مرين .

---

1) رجعنا فى نقل هذه الابيات الى محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون صفحة 32 .

ترجم له ابن خلدون في العبر ، وابن الخطيب في الاحاطة ، وابن حجر العسقلاني في الدرر ، ثم تعرض له بتفصيل المقرى في نفح الطيب حيث خصص لترجمته الكافية ما يزيد على 22 صفحة(1) أتى فيها باخباره وقصائد شعرية نظمها بغرناطة وبالمغرب أيضا . وقد نقل المقرى بالحرف ما جاء في كلام ابن الخطيب وما أورده ابن خلدون في نفس الموضوع ، مع الاشارة الى بعض الفروق التي لاحظها فيما يرجع لتاريخ وفاته وبعض الاحداث التي ميزت حياته .

وعلى كل ، فمترجمنا هو الخطيب أبو عبد الله محمد بن احمد ابن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق الملقب بشمس الدين . ولد بتلمسان سنة 710هـ . ونشأ بها الى أن رافق أباه الى المشرق حيث أدى هذا الاخير فريضة الحج وبقى معتكفا هناك . أما الابن فقد رجع الى المغرب بعد أن أخذ عن عدد كبير من علماء المشرق، وكان رجوعه الى وطنه سنة 733هـ فصادف رجوعه هذا وجود السلطان أبي الحسن المريني الذي كان محاصرا لتلمسان . فاغتنم مترجمنا هذه الفرصة واستغلها لاغراضه الشخصية ، فتقرب من السلطان المريني الذي أولاه عطفه وتقديره نظرا لما كانت عليه أسرته من علم وثقافة ونبل ، فأسند اليه بعد وفاة عمه امامة المسجد الذي بناه بالعباد . فأخذ ابن مرزوق في كل مناسبة يمدح مخدومه ويشيد بذكره ، فزاده ذلك تقربا من أبي الحسن ، وارتفعت مكانته لديه وحظي بكبير ثقته . فكانت النتيجة أن أصبح من ملازميه ومن خواصه الاقربين . فقام ابن مرزوق بمهامه هذه أحسن قيام ، وأخلص لرئيسه ايما اخلاص حيث رافقه في وقعة طريف وترأس السفارة التي تفاوضت مع ملك قشتالة الادفنس الحادي عشر لابرام معاهدة صلح . فوفق سفيرنا في مهمته .

ابن مرزوق بعد وفاة السلطان أبي الحسن

ولما توفي السلطان أبو الحسن المريني قدم ابن مرزوق الى المغرب عله يسترجع لدى الملك الجديد ، أبي عنان، مقامه السابق ؛ لكن الظروف لم تكن مواتية، فقفل راجعا الى تلمسان حيث أقام بالعباد . الا أن الطموح السياسي وحب المغامرة والسيطرة على مناصب الدولة الرئيسية ، كل ذلك دفعه الى استغلال ظروف أخرى حيث اتصل ببني عبد الواد وصار في خدمتهم الى أن زجوا به في السجن ، لخذلانه وتآمره على سلطانهم . فلبث في السجن الى أن التحق بالعدوة الاندلسية حيث عين خطيبا بمسجد غرناطة الاعظم .

---

1) أنظر ج : 2 صفحة 309 — 333 .

ابن مرزوق فى خدمة بنى مرين مرة أخرى

نظرا للشهرة التى اكتسبها ، ولدهائه وثقافته الواسعة ، ومهارته فى خدمة الملوك ، استدعاه أبو عنان المرينى سنة 754هـ بعد استرجاعه تلمسان وقربه منه ، حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه . وبعد مدة بلغت أربع سنوات ، كلفه بمهمة شخصية عالية وهى الاتصال بالسلطان الحفصى أبى يحيى ليخطب منه ابنته التى كان أبو عنان يرغب فى التزوج بها . لكنه لم يوفق فى هذه المهمة الثمينة ، فرجع خائبا . وقد قيل لابى عنان ان السبب فى هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذى قصر فى الامر ولم يستغل نفوذه ولا الوسائل التى كان فى استطاعته أن يستعملها لانجاح المهمة . فثار أبو عنان ثورة عاطفية لم يستطع معها أن يقبض على زمام أمره . فما كان منه الا أن قبض على السفير والقى به فى السجن عقابا له وانتقاما منه فمكث فيه مدة تقرب من سنتين أطلق صراحه بعد انصرامها .

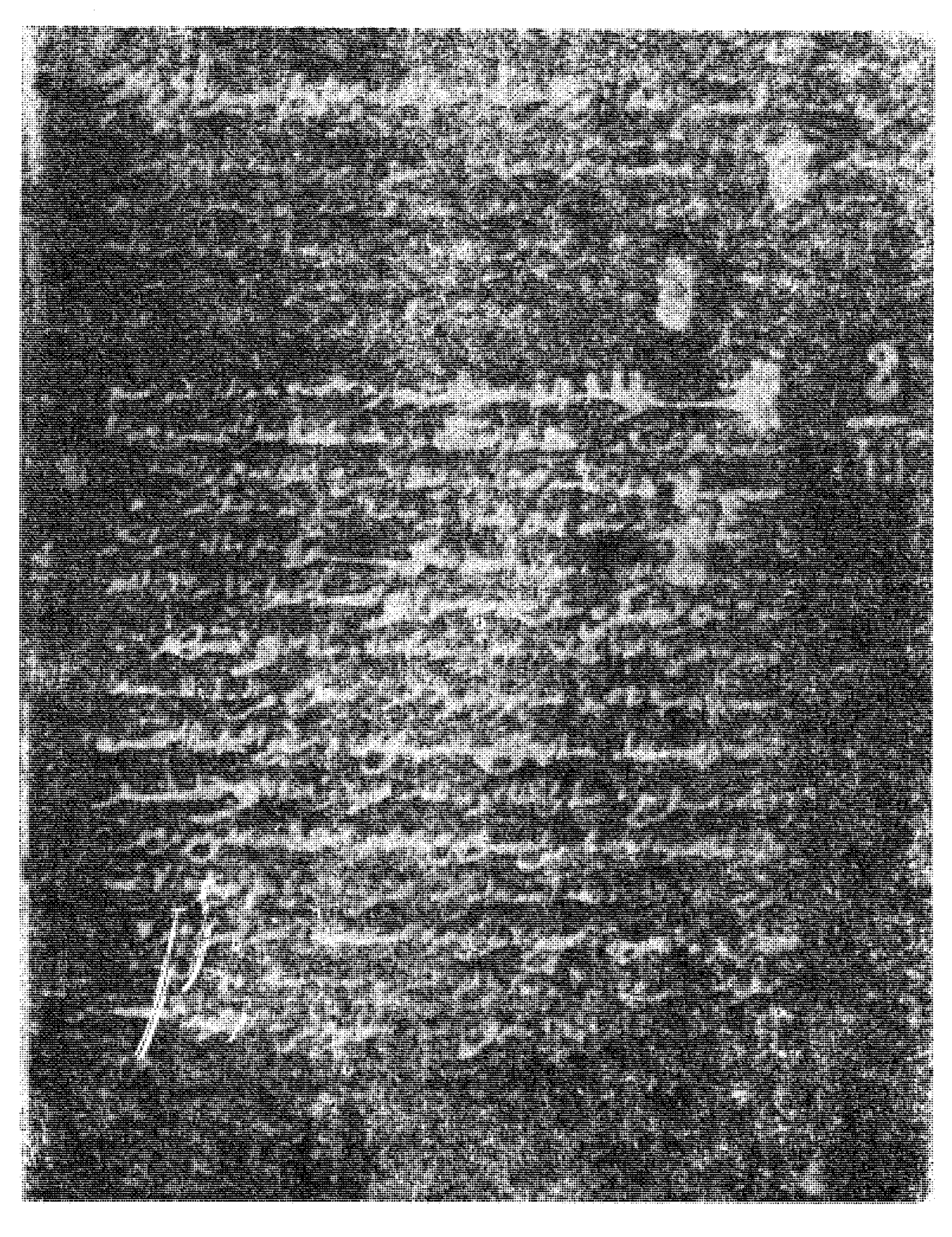
ابن مرزوق فى خدمة أبى سالم

ومع ذلك فابن مرزوق ، كعادته ، وكعادة معاصريه ابن خلدون وابن الخطيب لم يعتزل السياسة ، ولم يتعظ بهذه الاحداث التى نكبته وألحقت اضرارا خطيرة بجسمه . فعاود الكرة ، واستعمل حيله ونفوذه ودهاءه ، فتقرب من أبى سالم المرينى بمجرد استيلائه على عرش أجداده ، فاسترجع سابق عهده وما كان له من نفوذ أيام أبى الحسن المرينى لكن الاحداث السياسية والفتن الداخلية وتلاعب الوزراء بالسلطة واستبدادهم بشؤون الدولة ، كل ذلك عكر الجو الصافى الذى كان يعيش فيه ونغص حياته وأصابه فى الصميم حينما قبض عليه ورمى به فى السجن مرة أخرى . ذلك أن «الوزير عبد الله استولى على الامر»(1) سنة 762هـ وخلع أبا سالم وسعى فى قتله .

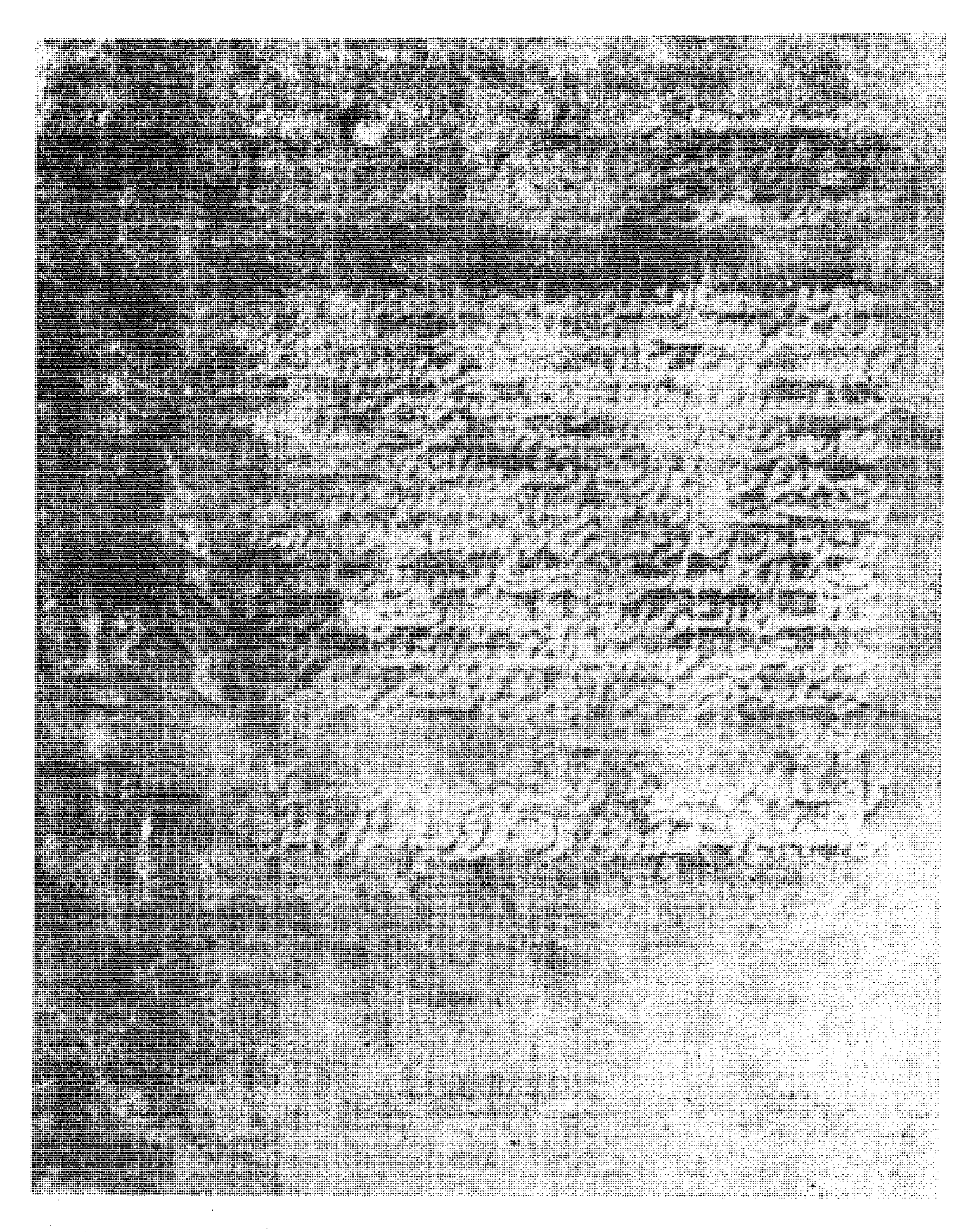
تلك هى الظروف التى عاشها ابن مرزوق فى المغرب وهى ، كما رأينا ، ظروف خطيرة ومهمة فى نفس الوقت ، احتك فيها مترجمنا بالملوك ، والوزراء ، وكبار الدولة ، وشخصيات المغرب الثقافية التى كانت تعمل جنبا الى جنب معه فى البلاط المرينى بفاس . وتلك نبذة وجيزة عن حياته فى هذه البيئة ، تعمدنا فيها الاختصار واختيار ما له صلة بموضوع بحثنا . فابن مرزوق ، كما تجلى لنا فى هذه السطور ، شخصية عظيمة لعبت دورا ثقافيا مهما حيث شغلت فى المغرب مناصب سامية ، لم تكن تسند الا لمن برهن عن كفاءة ومقدرة علمية كبيرة كما لعبت ، الى جانب ذلك ، دورا خطيرا فى ميدان السياسة والادارة .

---

1) المقرى ، استنادا الى ابن خلدون انظر ص 320 – 324 .



الصفحة الاولى من «المسند الصحيح فى مآثر مولانا ابى الحسن» للخطيب ابن مرزوق مخطوط الخزانة العامة رقم ق 111 .



الصفحة الاخيرة من «المسند الصحيح فى ماثر مولانا ابى الحسن» للخطيب ابن مرزوق مخطوط الخزانة العامة رقم ق 111 .

فما هي آثاره

ان شخصية كهذه لابد أن تترك ما يخلد ذكرها رغم اشتغالها بالسياسة وأمور الدنيا . ترك ابن مرزوق قصائد شعرية أوردها المقرى فى نفح الطيب مع تعليقات ابن الخطيب عليها(1) وهى قصائد كلها تنم عن ثقافة أدبية واسعة وشاعرية متفتقة . أما فى ميدان الفقه والحديث فقد خلف ابن مرزوق المؤلفات التالية : شرح على ابن حاجب الفرعى ، سماه «ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب» . شرح على العمدة فى خمسة أسفار والعمدة كتاب فى الحديث معروف ألفه الامام عبد الغنى المقدسى الحنبلى المتوفى سنة 203هـ . وهذا الشرح نفيس جدا ويقع فى خمسة أسفار ؛ ثم شرحه الكبير لكتاب الشفاء للقاضى عياض والمهم بالنسبة لبحثنا هو أن ابن مرزوق خلف لنا فى ميدان التاريخ المغربى مؤلفا قيما نادرا سماه : «المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن» .

فما هو اذن «المسند»

نلاحظ أولا أن نسخة خطية منه توجد الآن بقسم المخطاطات بالخزانة العامة بالرباط مسجلة تحت رقم 111 وقفنا عليها أثناء قيامنا بهذا البحث وتصفحناها فوجدناها من حيث الشكل مكتوبة بخط مغربى غير جميل (فيه كثير من أخطاء الرسم والنحو) يتطلب من القارىء عناية كبيرة وصبرا كافيا لاتمام قراءته . وهى النسخة الوحيدة الموجودة بالمغرب . ولا نظن أحدا نشرها لحد الآن حسب ما وقفنا عليه وحسب الاتصالات التى أجريناها مع المسؤولين وذوى الاختصاص ، كل ما عثرنا عليه فى هذا الموضوع هو البحث الذى قام به ليفى بروفنسال حول ابن مرزوق فى مجلة هيسبريس (المجلد الخامس سنة 1925) التى نشر بها الباب الذى خصصه ابن مرزوق من مؤلفه الضخم للحديث عن أبى الحسن المرينى وذلك تحت عنوان : «منتخب جديد فى تاريخ الدولة المرينية» .

يتضمن المسند زيادة على الديباجة خمسة وخمسين بابا كلها تدور حول أصل وتاريخ الدولة المرينية ، ورغم كون الكتاب ألف من أجل أبى الحسن كما يدل عليه عنوانه ، فان المؤلف شمل دولة بنى مرين كلها بالعطف والتقدير وأثنى عليها بمزيد الاعجاب والاحترام ، واذا كان أبو الحسن المرينى هو المعنى بالامر وهو محور الحديث فان ابن مرزوق خصص قسما كبيرا من مؤلفه هذا للحديث عن السلطان أبى يحيى والسلطان أبى يعقوب يوسف بينما لا يتناول أبا عنان وأبا سالم الا بشىء

---

1) أنظر صفحة 314 .

من الايجاز رغم كون الاول يعتبر من أعظم ملوك الدولة المرينية ومن أكثرهم ايجابية وفعالية في ميدان السياسة والاقتصاد والفنون ، فلماذا اذن لم يحظ أبو عنان بعناية ابن مرزوق كما حظى بها أبو الحسن وأبو يعقوب يوسف ؟ لماذا هذا التغاضى وهذا الاجحاف من ابن مرزوق ؟ لعل الجواب يكمن فيما لقيه ابن مرزوق على يد أبى عنان ، على الخصوص ، من تعذيب ومحن .

وهكذا لم يبرهن ابن مرزوق حتى فى ميدان التفكير والتاريخ عن الاستقامة الضرورية والنزاهة التى يجب أن يتصف بها كل باحث ومدقق كى لا تشوه أحكامه ولا تحرف أقواله .

ومع ذلك «فالمسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن» رغم مـا اتصف به من تحيز سافر فى بعض المواضيع ورغم التصاقه بالملوك والرؤساء ، وخلوه من معلومات اجتماعية تتناول الطبقات الشعبية وعلاقاتها بهؤلاء الملوك من حيث الاقتصاد والاجتماع ، رغم ذلك كله ، يعتبر من المصادر التاريخية التى لا يمكن الاستغناء عنها لاسيما فيما يرجع لهذا العهد الذى نؤرخ له

ذلك من حيث الموضوع ، أما من حيث الاسلوب فقد برهن ابن مرزوق فى هذا المؤلف عن مقدرة كبيرة فى التنظيم والتنسيق وربط الاحداث وحسن التخلص من باب الى باب . لا تعقيد فى ذلك ولا تكليف ، ولا صناعة لفظية طاغية على الافكار والمعانى كما هو الشأن بالنسبة لمعاصره ابن الخطيب . فقد جاءت تراكيبه وجمله سهلة ، فى مجملها خالية من الزخرف والتنميق والسجع المقيت المتكلف . وذلك ما يناسب الموضوع الذى تناوله ، لان الامر يتعلق ببسط أفكاره وعرض حوادث معينة ، وشرحها ، وتبيين عواملها الظاهرة والخفية . فلا مجال اذن للعاطفة وجموح الخيـال .

الباب الثالث

الحياة الادبية في عصر بني مرين

1 ـ النهضة الادبية الفنية

2 ـ مكانة الشعر بالنسبة للنثر

3 ـ النزعة الروحية فى الادب المغربى

4 ـ نتائج هذه النزعة بالنسبة للاغراض الاخرى

5 ـ فن الرحلة .

هل كانت هنـاك نهضـة أدبيـة فنيـة

ان الذين كتبوا عن هذا العصر ، سواء من الناحية التاريخية ، وذلك هو الغالب ، أو من نواحي أخرى ، لم يفتهم أن أشاروا الى أن المغرب فى عهد بنى مرين عرف ازدهارا ملحوظا بل هناك منهم من آكد أن هذا العصر امتاز على الخصوص بنهضة أدبية كبرى لم يسبق للمغرب أن عرفها من قبل ، أى فى أى عصر من عصوره الزاهرة ، والدليل على ذلك فى نظر هؤلاء هو بروز عدد كبير من الشخصيات العلمية أو الادبية ووجود انتاج فكرى ضخم ، ما كان للمغرب به عهد فيما مضى ؛ بل كثيرا ما وجدنا فى هذه المصادر التى تتعرض لتاريخ المغرب فى هذه الحقبة عبارات مثل «ازدهار ثقافى» «ونشاط علمى» «وحركة فكرية» «ونبوغ أدبى» وغير ذلك من الاوصاف التى يقصد منها بيان الكم والفعالية ولا يستفاد منها ما يدل على التخصيص والتمييز . لذلك نرى من الضرورى أن نقف هنا ولو قليلا للتعرف على نوع هذا النشاط وتحديد وجهة نظرنا فيه . وأول ملاحظة تواجهنا هنا هى ذلك الخلط الذى وقع فى التعريف بهذا النشاط ، فى تحديد أفقه وأبعاده ، فكانت النتيجة أن أصبح البعض يسميه مرة ازدهارا ثقافيا وأخرى نشاطا علميا ، كما اعتبره البعض الآخر نهضة أدبية وازدهارا ثقافيا ، وهكذا أصبحت هذه الاوصاف كلها تطلق ، وبدون تمييز ، على كل انتاج أدبى أو تاريخى أو تاليف فى الفقه أو الحديث أو التفسير . فأين نحن اذن من الادب وفنونه ؟ أين نحن من البلاغة والبيان ؟ أين نحن من المعانى والافكـار والمخيلـة والعاطفة والموسيقى ...؟ أيعتبر ذلك كله انتاجا أدبيا حتى ما دخل منه فى باب الوعظ والارشاد ؟

ان السبب فى هذا الخلط وهذا الابهام يرجع فى نظرنا الى التطور الذى طرأ على الكلمات المستعملة للدلالة على هذا المعنى أو ذاك ، فبحكم هذا التطور تعنى هذه الكلمات أكثر أو أقل مما كانت تعنيه من قبل حسب الظروف والملابسات ، يتسع مدلولها أحيانا ثم يضيق أحيانا أخرى حتى لا تكاد تجد له استقرارا ، ومجالا معينا ، ونتيجة لذلك يقع الاختلاف بل الخلاف وبالتالى الغموض والالتباس . ولا أدل على ذلك، مثلا من كلمة ثقافة التى ظل مفهومها بين مد وجزر عبر العصور الى أن وصل ما عليه اليوم من شمول واحاطة ، بل ما زلنا الى اليوم نرى استعمالها يختلف من بيئة الى أخرى حسب الظقوس الدينية والمذاهب السياسية والمعتقدات الايديولوجية . ان فى ذلك لتبريرا لهذه المواقف المختلفة التى اتخذها أدباؤنا أو مؤرخو حضارتنا من انتاجنا الفكرى فى عصر بنى مرين كما نجد فيه ما يعلل هذا الخلاف وهذا الالتباس اللذين طبعا مواقفهم وأحكامهم الظاهرة فى شأنه . ان النشاط الثقافى لعصر من العصور أصبح يعنى فى نظر علماء الاجتماع ، على اختلاف مذاهبهم وتباين مدارسهم، كل ازدهار فكرى وكل رقى حضارى ، يجمع بين المعنويات والماديات والروحيات ، يدخل فيه العلم والتاريخ والادب والفلسفة وغير ذلك من فروع المعرفة والانتاج

المادى ، فالانسان هو المحور ، وهو المحرك ، وهو المنتج لكن مع تفاعله مع معطيات بيئته المادية والاجتماعية . فانتاجه اذن عصارة أو حصيلة لهذا التفاعل المستمر الجاري في زمن ومكان معينين .

ومع ذلك ، وبقطع النظر عن هذا التطور العام الذى يصنع المعطيات الكونية والاجتماعية ، اننا نجد سببا آخر لهذا الخلاف الذى وقع فى تحديد وتعريف نشاط البيئة المغربية في ميدانى الفكر والادب . ويتعلق الامر هنا وبصفة أدق بالادب نفسه الذى ظل يتعثر بين أقلام المؤرخين والادباء أنفسهم متأثرا بميولهم الخاصة ، ونزعاتهم الفردية ، دون أن يجد لنفسه ميدانا خاصا ومجالا واضح الابعاد والمعالم . فكان الغموض يكتنف سبيله ، والتناقض يهدد مستواه ومصيره ، واذا كان من الطبيعى أن يخضع هو الآخر ككل كائن حى لقانون التطور العام ، فان البيئة العربية على الخصوص كان لها حظ وافر فى تطبيق أفقه وتحديد وتقليص دائرته حتى أصبح يقتصر على نوع خاص من الانتاج الفكرى دون سواه ، وحتى أصبحت فنون أخرى من القول أجنبية عنه ، وأقصيت من ميادينه لكونها لا تستجيب لهذا المقياس الذى كان يقاس به ولا يخضع لهذا المدلول الذى كان يحدد آفاقه . فكانت النتيجة الحتمية أن وقع الاضطراب والارتباك فى تاريخ الحركة الفكرية أو الادبية ، فأصبحت ترى المؤرخ فى نظر البعض أديبا والفقيه أو المحدث فنانا فى نظر البعض الآخر . وتصبح الحركة العلمية حركة أدبية والعكس بالعكس . كما أصبح الواعظ المرشد يدرج فى طبقة الشعراء المفلقين «والسبب واحد رغم اختلاف مظاهره ، وهو أن هذا يريد للادب محالا ضيقا ، محدود المظاهر بينما الآخر يسمو به ويوسع أرجاءه ، ويسير به بعيدا لكن يشمل جميع أنواع النشاط الفكرى ، وتظل المعركة قائمة ويظل الخلاف مسيطرا ومستمرا .

ومع ذلك فالسؤال الذى ألقيناه على أنفسنا فى بداية هذا الحديث ، ما زال ملحا ينتظر الجواب رغم هذه الاعتبارات التى أوردناها ورغم هذه الملاحظات التى ابرزناها لتسليط بعض الاضواء على الموضوع وتوضيح بعض جوانبه . ان الادب بمعناه الضيق وحسب المدلول التقليدى الذى منحته اياه البيئة العربية لا يتعدى النثر والشعر ، بل حتى فى ميدانى النثر والشعر تشترط شروط دقيقة ، لا يعتبر الانتاج أدبا بدون توافرها . ليس كل ناظم بشاعر كما ليس كل من كتب أو ألف فى الفقه ، أديبا . ان الاديب فنان قبل كل شيء ، يجب عليه أن ينتج أدبا رائعا فيه أثر للصناعة اللفظية والموسيقى الشعرية ، وفيه جمال وابداع ، وابتكار ، ومعانى وصور ، وتشبيهات . ومعنى ذلك أن كل انتاج حفل بالحقائق وحدها ولم يعتمد على الصناعة والخيال والعاطفة لا يعتبر حسب المفهوم الذى أوردناه أدبا خالصا . ان الاصالة والتجربة الشخصية ، وتغلب العنصر الذاتى فيه ، كل ذلك يدخل فى المقاييس التى يحكم بها على كل منتج أراد أن يدخل حضيرته . اذا كان الادب هذا معناه ، واذا ألقينا نظرة على ذلك التراث الفكرى الذى خلفته لنا البيئة المغربية فى عصر بنى

مرين ، اذا نظرنا الى هذا التراث بهذا المنظار الضيق مع اعتبار كميته ، صعب علينا الاعتـراف بوجـود نهضة أدبيـة فنية فى هـذا العصر . ليس مـن شك فى أن هذا الانتاج الفكرى كان ضخما وواسع النطاق ومتشعب الفروع ، كما سنرى من بعد ، وليس من شك فى أن هذا الانتاج كان عظيما ، الا أنه كان من النوع الذى لا يخضع للتعريف الذى أوردناه سابقا ، بمعنى أنه لم يكن فى مجموعه يحفـل بالانفعالات والاحاسيس والحالات النفسية الخاصة المتولدة عن التجارب الشخصية ، كما حفل بالافكار والحقائق العلمية .

ويضاف الى ذلك ما كان ينقصه من اهتمام بعمليات الخلق والابتكار عن طريق استعمال المخيلة وتسخيرها لفائدة الابداع الفنى الذى يتجلى فى حسن التركيب واتقان التأليف ، وفى التصوير والتشبيه ، فالمجهودات التى بذلت فى هذا الميدان لم تكن كافية اذاما نظرنا الى الجهود المبذولة فى التعبير عن الافكار المجردة واستخراج الحقائق واستنتاج القواعد ، وبعبارة أدق وأوجز كان الانتاج الفكرى عبا رةعن شروح وتلخيصات وتعليقات ، وتأليف فى الفروع وفى التفسير وفى الفقه وفى الحديث وفى الاصول والبيان الى جانب ما نظم فى مـيدان التاريخ والقواعـد النحوية وغير ذلك مما سنتعرض له فى موضعه ، وتبعا لذلك فلم تكن هناك نهضة ادبية فنية .

ان هذا الانتاج تغلب عليه الصبغة العلمية فى مجموعه فتبعده عن ميدان الفن الخالص الذى يعتمد قبل كل شىء على المخيلة والعاطفة ، وجمال التعبير ورشاقة الاسلوب . وبناء على ذلك وتطبيقا لما ورد ، فالنهضة التى شهدها عصر بنى مرين كانت نهضة عملية فى جوهرها وفروعها كما يتجلى للقارىء فى فصل آخر . ورب معترض لاحظ فى هذا الحكم نوعا من التعسف واغفالا لبعض الحقائق ، مذكرا بما كان للبيئة المغربية من مشاركة كذلك فى ميدان الفن الادبى الصرف . وجوابنا هو أننا لا ننكر هذه الحقيقة ، ولا ندعى أن الحركة الفكرية فى هذا العصر خلت من كل مجهود أدبى خالص ، بل ، على العكس ، نؤكد مشاركة كثير من الادباء المغاربة فى هذا الميدان ، مساهمتهم بحظ وافر فيه بالمعنى الذى تعارف عليه النقاد العرب، وحسب المفهوم التقليدى للادب ، هؤلاء المغاربة أدلوا بدلوهم فى الدلاء كما يقال فأنتجوا أدبا لا يقل عن أدب غيرهم ، الا أننا كما أسلفنا ننظر الى هذا الانتاج نظرة شاملة ، ترمى الى معرفة مجموعه ، وتقدير كميته فى الجملة ، وتحديد نسبته الفنية . لذلك كان حكمنا حكما عاما ونسبيا فى انتظار ما ستكشف عند دراستنا المقبلة لهذا الانتاج ، وما سنستخلصه من نتائج فى تقييم وتحديد نوعه واتجاهاته على ضوء المفاهيم التى تحكمت الى درجة ما فى تطوره .

على أننا رغم كل ما سبق ، اذا ما نظرنا الى هذه النهضة بتجاوز وعلى ضوء المفاهيم المستحدثة ، أمكننا أن نغير رأينا بعض الشىء ، وان نخفف من حكمنا ، الذى قد يبدو قاسيا لفائدة هذه النهضة التى ازدهرت فى زمن بنى مرين . ذلك أن

الفن الادبي كما هو معلوم يتضمن عنصرين أساسيين ، يكمل أحدهما الآخر ، بتفاعل مستمر ، وتجاوب منسجم ، يشكلان وحدته ويؤسسان قاعدته ، انه شكل ومضمون ، أو عرض وجوهر حسب اصطلاح الفلاسفة ، واذا كان المضمون ، في أساسه ، يعتمد على المخيلة والعاطفة والفكرة والمعنى ، فان الشكل ، الذي هو عنصر مكمل له ، يعنى بالكلمة وباختيارها ، وبالصياغة اللفظية ، وحسن التنسيق وبالاسلوب الجميل الرشيق ذي الوقع الحسن أو التأثير البليغ ، ان الشكل هو الادات أو الوسيلة الموصلة للهدف ، فاذا انعدمت الوسيلة أو ضعفت أو أصيبت بتحريف أو بنقص ، كان من الصعب، اذا لم يكن من المستحيل ، تحقيق الهدف المنشود ؛ بل ان الوسيلة اذا اعتراها ضعف أو تشويه ، اذا كانت غير سليمة ، كان لها تأثير سيء على النتيجة التي تستهدفها . لذلك نرى ، خلافا لما هو شائع ، ان الغاية لا تبرر دائما الوسائل ؛ نرى على العكس أن التناسق والتجانس بينهما أمر ضروري . ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا أن البلاغة بأقسامها وفقه اللغة ، وعلم العروض والقواعد النحوية ، كل ذلك من الوسائل الضرورية للادب لانها جزء منه ، تكون جانبه الشكلي وتساعد على أداء مهمته سواء كان أدبا فنيا محضا أو أدبا بمعناه العام . وليس من شك في أن النشاط الفكري المغربي حفل في هذا العصر ، بأبحاث قيمة في هذا الميدان ، لقد خلف المغاربة كما سنرى في فصل آخر ، في البلاغة وفي علم العروض وفي النحو على الخصوص ، مؤلفات من الوزن الثقيل ، كتبا كثيرة يصعب احصاؤها نظرا لوفرتها وتشعب فروعها واختلاف مظاهرها وفقدان جزء كبير منها . فكان لهم الفضل الكبير والباع الطويل في خدمة اللغة العربية وفي المحافظة على كيانها وتنظيمها ، وتسهيلها ، وتبسيطها وتقريبها من القارىء المبتدىء ، أبدوا فيها وأعادوا ، وحققوا وعلقوا ، وشرحوا وصنفوا الآلاف من الابيات في قواعدها وصرفها لجعلها عالقة بالاذهان ، راسخة في الفكر . فكانت لهم الشهرة الكبيرة في العالم العربي ، شرقه وغربه ، واقترن اسمهم بكل مجهود فكري في هذا الباب . يكفي مثالا على ذلك ما تركته مقدمة ابن جروم من أثر بليغ في الاوساط العلمية ، والمثقفة بصفة عامة . ويكفي للدلالة على ذلك ما نظمه ابن المرحل وغيره من أبيات في العروض واللغة ، تذليلا للعقبات التي تعترض الطالب المبتدىء وتسهيلا لمهمة الاديب أو المتأدب . حسبنا مثالا على ذلك أن نورد هذه الامثلة على سبيل الايجاز ولاعطاء فكرة عن هذه الحركة المزدهرة في عصر بني مرين في انتظار ما سيسفر عنه بحثنا في موضع آخر . ومن ذلك يتضح أن المغاربة كان لهم دور فعال في تنمية الحركة الادبية الفنية ، ومشاركة ايجابية ومستمرة في تثبيت دعائمها عن طريق خدمة اداة فعالة من الادوات التي يعتمد عليها الادب في نشأته وترقيته وازدهاره ... هذه حقيقة لا غبار عليها ، يشهد بها التاريخ وتنطق بها الآثار التي لا زالت الى الآن علامة على نبوغهم وعلو شأنهم في هذا الميدان وبذلك حققوا نهضة أدبية فنية لا يمكن انكارها أو التغافل عنها .

لكن هل معنى هذا أن هذه النهضة الادبية كانت شكلية محضة ؟ ذلك ما يستفاد من عرضنا السابق ومن تحليلنا لجوانب الحركة الفكرية التي سادت في هذا

العصر . الا أننا رغم كل ما ذكر ، نريد رفع التباس وهو أننا لا تقصد التطرف فى الرأى ، ولا ندعى وجود جانب وانعدام جانب آخر ، وانما الذى تقصده هو وجود الجانبين معا فى نفس الوقت ، لكن مع طغيان جانب على آخر فالمسألة هنا مسألة نسبية بعيدة عن التطرف والاطلاق .

ومهما اختلفت الآراء فى هذه النقطة ، ومهما تعددت وجهات النظر ، فالامر المسلم به هو أن العصر المرينى عرف حركة أدبية خاصة نرى من المناسب الآن البحث عن عواملها .

ان هذه العوامل التى سنحاول التعرف عليها مستمدة من البيئة المغربية من واقعها المادي ومن معطياتها الاجتماعية ، وهي ، وان تعددت واختلفت فى مظاهرها، ترجع فى آخر أمرها الى مصدر واحد ، وتعلل وتفسر ظاهرة واحدة هي هذه الحركة الادبية الفنية التى عرفها العصر المرينى .

من أهم هذه العوامل ، يجدر بنا أن لا ننسى عاملا بشريا كان وراء هذه الحركة وساعد على تنميتها بصفة مباشرة أحيانا وغير مباشرة فى ظروف أخرى . هذا العنصر البشرى المحرك يتمثل فى بنى مرين أنفسهم الذين استولوا على الحكم وقبضوا على زمام الامر فى المغرب بعد مدة طويلة ، عرفت فيها البيئة المغربية كما مر بنا ، أحداثا خطيرة وانقلابات متعددة من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها . ان بنى مرين ، كعنصر اجتماعى له خصائصه ومميزاته وعاداته وتقاليده ، بصفاته الفزيولوجية والعقلية والنفسية والخلقية ، أثروا فى هذه الحركة الادبية عن قصد وعن غير قصد وعملوا على تطويرها . ذلك أنهم كما نعلم قوم اندمجوا فى البيئة المغربية بعد احتلالها وانضموا الى العناصر الاخرى التى تكونها ، فخلقوا بذلك تيارا اجتماعيا له وزنه وأثره فى معطياته هذه . ان طبيعتهم ، كما رأينا فى فصل سابق ، وأصلهم الذى كان عربيا أكثر منه بربريا ، وماضيهم المتميز بالبداوة والنزعة العربية وكسب العيش والنظر الى الحياة الاقتصادية ، كل ذلك تضافر فى عامل واحد وأدى الى تطعيم هذه الحركة وتركيز دعائمهما . ان التيار الاجتماعى الذى خلقوه بظهورهم فى المغرب وامتزاجهم بعناصر عربية ساعدا على تقوية مركز اللغة العربية فى البلاد سواء على الصعيد الرسمى أو الصعيد الوطنى . ان الروح المسيطرة على مظاهر النشاط الثقافى كانت عربية فى صميمها وقوية فى انتشارها بين مختلف عناصر السكان . لم يكن يصدر عن بنى مرين ، كما يكون ، صدر عن غيرهم ما يخل بهذه الروح ولا ما يوحى بتيار رجعى يؤثر بصفة شعورية أو لا شعورية فى تطور الحركة الادبية وازدهارها . بل كانوا ، بتكوينهم العام وتشابههم مع العرب فى تقاليدهم وكثير من اخلاقهم ومظاهر سلوكهم يعملون من حيث لا يشعرون أحيانا لتدعيم هذه الحركة . ولقد سبق أن رأينا ما نتج عن هذا التشابه من تعاون وترابط فى مختلف المجالات الاجتماعية والمرافق الاقتصادية ، الشىء الذى خلق شبه وحدة عنصرية كان لها من النتائج ما حاولنا ابرازه فى محله وما نلمسه الآن فى هذا الميدان .

وغير خاف ما لعبته القبائل البدوية النازحة مـــن المشرق الى المغـــرب في المجتمع المغربي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان لهذه القبائل ظهور بارز في مختلف اوجه النشاط ولا سيما في المجلات التى تتفق وطبيعتها . لقد سبق أن رأينا ما كانت عليه هذه القبائل من تقارب وتجاوب مع بنى مرين الذين وجدوا فيهم مساعدين وخداما اعتمدوا عليهم في كثير من المهام الرسمية وغير الرسمية . ان انتشار هذه القبائل في نواحي كثيرة من المغرب كان له اثـــر ، ولو لم يكن مباشرا ، فى تدعيم الحركة الادبية عن طريق نشر اللغة العربية في الميادين التى اكتسحوها حتى اصبحت قبائل بربرية عربية الصبغة والتقاليد عن طريق التأثير والايحاء ، وحتى أصبح من العسير ، فيما بعد ، فى المغرب التمييز بين قبائـــل عربية وقبائل بربرية لشدة التشابه وقوة التمازج وانتشار حركة الاندماج ، فكان ذلك ربحا للغة العربية بصفة خاصة وبالتالى للفنون الادبية وغيرها .

واذا كان هذا العامل يكتسى صبغة شبه تلقائية وغير مباشرة ، فان لنا في بنى مرين كذلك عاملا آخر اقوى وابعد مدى ، لانه يرتكز على الارادة القوية والرغبة الشديدة والجهود المستمرة التى امتازوا بها فى ميدان الحركة الفكرية بصفـــة عامة ورعاية الفنون والآداب بصفة خاصة . بذلك تحقق الازدهار ، وبلغ النضـــج قمته ، وعم البيئة المغربية تيار ثقافي وحضارى كان له ابلغ الاثـــر فى الداخل والخارج ، ذلك التاثير الذى انعكس على صفحات التاريخ وكثير من المصادر التـــى لا تزال الى اليوم تطلعنا على بعض مظاهره ، لذلك رأينا ضروريا التعرض اليه بشيء من التفصيل والتحليل . ويجدر بنا ان نشير الى أن هذا النشاط الذى بذله بنو مرين لرعاية الثقافة والحركة الادبية بوجه خاص يتجلى فى مظاهر ثلاثة :

1) ثقافتهـــم

2) رعايتهم للفنون بصفة عامة

3) اهتمامهم ببناء دور العلم والاماكن الدينية .

لقد كان بنو مرين فى جملتهم ، على جانب كبير من الثقافة العربية ، بل كانـــوا بعضهم مبرزين في ميادين العلم والادب ، فكانت لهم مشاركة فعالة فيه ، ورغبة اكيدة في التقرب من العلماء والادباء ليستفيدوا منهـــم وليتبادلوا معهم الافكـــار والآراء حول شؤون ادبية خاصة ، فكان بلاطهم مدرسة تعج بالاساتذة ورجال العلم والادب يقصدونه من كل حدب وصوب ، تاكدا منهم انهم سيجدون فيـــه مرتعا وميدانا خصبا ، وبذلك كثر التجاوب وقوى التفاعل واشتد الانسجام بين الجانبين، وكان الربح العظيم للحركة الفكرية بصفة عامة وللادب بصفة خاصـــة . ودليلا على ذلك انه قلما نبغت شخصية في الادب او فى الفكر الا ووجدوا اسمها ضمن مشاهير العلماء والادباء الذين كانوا يعيشون فى ظل ملوك بنى مرين وأمرائهم . ان الواقع التاريخى والحضارى يشهد بذلك لكل من الطرفين ، يشهد بالتـــلاقى وبالتآزر وتضافر المجهودات فى هذا الميدان ، فلم يكن هناك حائل او مانع يقف حجر عثرة

فى الطريق . لقد وقع الترفع عن كل وطنية ضيقة تحدد آفاق العلـــم والمعرفــة وتقلص ظل الادب وفنونه ، فكان فى البلاط المرينى المشرقى والمغربى والبربرى والاندلسى وغيرهم بقطع النظر عن حيثياتهم وميولهم ما داموا يحملون العلم وراية الاسلام ، وينتمون الى ميدان اللغة والادب ، ان الامثلة لكثيرة ومتنوعة ، وما نظن اننا بحاجة اليها الآن ما دمنا سنعرض الى تفاصيل هذه النقطة فى مكان آخر بحول الله . يكفى ان نشير هنا الى ملوك بنى مرين وبعض أمرائهم الذين تثقفوا ثقـــافة عصرهم فكانوا رجال فقه ودين قبل كل شىء ، كما كانوا يهتمون بشؤون اللغة والادب ، يناظرون ويجادلون بتكوينهم الدينى والفقهى ، ثم بما حصلوا عليه مــن ثقافة لغوية وادبية ، شهد لهم بذلك معاصروهم فسجلوا لهم منه ما سجلوا . الا ان ما بقى منه اليوم فى بعض المصادر شىء قليل ، لا يظفر به الباحث الا كابيات متناثرة هنا وهناك ، لا تجمعها روابط ، ولا تؤلف بين عناصرها المتفرقة ابحاث او كتب ، بل ان كثيرا من هذه المصادر تكتفى بالاشارة والكلمة العابرة الى ان هذا الملك كان فقيها وشاعرا وذلك الامير كان كاتبا غير حافلة بما كتب او نظم غير آبهة باعطاء فكرة عن نوع هذا الانتاج . وبذلك كثيرا ما يعمد البــــاحث الى الاستقراء والاستنتاج نظرا لقلة او لانعدام المادة التى يبنى عليها احكامه . ومع ذلك فالباحث قد يستفيد من هذا الموضوع من مصادر هامة كــروضة النسرين (1) والمسند الصحيح (2) ونفح الطيب (3) وجذوة الاقتباس (4) والذخيرة السنية (5) وغيرها من المصادر التى يمكن ان تلقى بعض الضوء على هذه الناحية . وتحقيقا لهذه الغاية عثرنا على آثار شعرية للسلطان أبى الحسن ولابى عنان ولابى مالك عبد الواحد بن يعقوب ولابى العباس أحمد بن أبى سالم مما يدل على حظهم فى الثقافة الادبية وما يؤكد نزعتهم الفنية ومبلغ مشاركتهم فى هذه النهضة التى نحن بصددها من ذلك قول أبى الحسن :

ارضى الله فى سر وجهـــر	واحمى العرض من دنس ارتياب
واعطى الوفر من مالى اختيارا	واضرب بالسيف طلى الرقاب (6)

كما قال ابو عنان :

يا راميا بالنبــال من غنــج	وصائلا بالنصــــال من دعــج
وباديا كالهلال فى سحب	وطافحا من سلافــة الفلـــج
وباسما عن لآلىء نسقت	وناسمـــا كـل عـاطـر ارج
رفقا بقلبى فان فيــه هوى	ولا تطـل فى الملال والحــرج

1) لابى الوليد اسماعيل ابن الاحمر .

2) لابـــن مرزوق

3) للقـــرى .

4) لابـــن القاضى

5) مؤلفها مجهول إلى الان نشرها محمد ابن ابى شنب

6) ابن الاحمر ، روضة النسرين ، ص، 26

كما قال ابو مالك بن يعقوب المرينى (1)

فرقت فى الميدان كل مليـــك   وجمعت بـــين جرأة ونســوك
وجعلت للاسلام حدا مالكـــا   كـــى يفيـد العـدا سلوكـا

ومن قول أبى العباس احمد بن أبى سالم بن أبى الحسن المرينى(2) :

اما الهوى يا صاحبى فالفته   وعهدته من عهد ايـام الصبـا
ورايته قوت النفـوس وحليها   فاتخذته دينـــا الى ومذهبـــا
ولبست دون الناس منه حلة   كان الوفاء لها الطراز المذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصـا   لا مرحبا يتفـرق لا مرحبا(3)

هذه ابيات اوردناها قصد اعطاء فكرة عن ثقافة ملوك بنى مرين الادبية وعن مشاركتهم فى قرض الشعر . الا تدل هذه الآثار على ما كان يتوفر عليه هؤلاء الملوك من ذوق فنى وطلاقة لسان ؟ ألم تكن هذه المشاركة الادبية كفيلة بتشجيع الادب وفنونه . لقد أعطوا المثل بأنفسهم ، وما أكثر ما يكون المثل موحيا ومؤثرا وباعثا قويا لا سيما اذا كان صادرا عن سلطة روحـية أو زمنيـة . ناهيك ببنى مريـن وزعامتهم وشهامتهم وقوتهم المادية والمعنوية .

وسواء كانوا مؤثرين او متأثرين او هما معا ، فالنتيجة التى بين ايدينا هى انهم كانوا على حظ وافر من الثقافة الاسلامية والتكوين الادبى فكانوا بهذه الثقافة وبهذا التكوين خير معين للحركة الادبية وخير ناصر ومشجع للادباء ورجال الفكر كما سيتضح من بعد . يكفينا منهم انهم احتضنوا هـذه الحركة ، كما احاطـوا بعنايتهم الخاصة ممثليها .

واذا كانت الحركة الادبية قد استفادت كثيرا من ثقافة بنى مرين وما نتـج عن تلك الثقافة من آثار ، فانها وجدت كذلك فى رعايتهم للفنون عاملا آخر لا يقل أهمية فى هذا الميدان عن باقى العوامل الاخرى التى كانت وراء هذه الحركة . لقد قيل ان عصر بنى مرين عصر ازدهار الفنون وعصر حركة عمرانية قوية فى البيئـة المغربية . ونحن اذا نظرنا الى مآثر هؤلاء الملوك فى هذا الميدان ، اتضح لنا مدى صحة هذا القول ومدى انطباقه على الواقع الذى لا يزال يشهد ببعض ما خلفوه من آثار مادية ، تشهد لهم بالروعة والجلال ، والفخامة ودقة الاسلوب ، وحسن الابداع فيما شيدوه من قصور ومساجد ، ومدارس وفنادق ومرستانات اتسعت رقعتهـا وامتدت الى نواحى كثيرة فى المغرب . يتجلى ذلك الابداع وتلك الروعة فى الزخرف

---

1) الذخيرة السنية ص. 96 .

2) ابو الوليد اسماعيل ابن الاحمر روضة النسرين (مطبوعات القصر الملكى بالرباط 1962) صفحـة 35 .

والنقش والنحت والتزليج الذى حفلت به هذه المؤسسات التى اصبحت آية فى الروعة لدقة ما احتوت عليه من اشكال هندسية ونباتية ، ومن تعاريج فنية بلغت منتهى الاتقان والدقة ، مما يدل على أن يدا ماهرة فنانة ، خلاقة بذلت اقصى الجهود فى العناية والصبر والاستمرار فى العمل الطويل لتحقيق ذلك التراث الفنى الذى بقي بعضه ماثلا الى العين حتى اليوم .

وكان من نتائج تلك الحركة الفنية ان تاثر بها المغاربة حتى اصبحوا يتنافسون ويتسابقون ، لا سيما فى فاس ، فى تشييد القصور وبناء الدور على النمط المتفشى وحسب الاساليب الفنية المعمارية السائدة فى عصر بنى مرين . ولقد شهد بذلك معاصروهم ومن تتبع تطور اساليب البناء فى عهدهم منهم ابن خلدون (1) الذى لاحظ فى عصره «ان الدار بفاس اصبحت تساوى الف دينار ذهبية نظرا لما حوته هذه الدار من نقوش وزخرف وخلق وابداع » ، وفى ذلك ما يدل على مدى نمو الذوق الفنى بين هذه العناصر من السكان وما يؤكد هذه النزعة الفنية التى اصبحت تطبع بعض ظواهر الحياة الاجتماعية المغربية . واذا كان الذوق الفنى نما الى هذه الدرجة وتجلت آثاره فى هذه الظواهر ، فان الادب ، وهو من الفنون ، لا يمكنه الا ان يستفيد من هذه الحركة وينتعش منها ، نظرا لوحدة الاسس وقوة الارتباط وشدة العلاقات بين العناصر التى يعتمد عليها كل فن .

ومن مظاهر هذه الحركة الفنية ايضا ما شاع فى مدينة فاس من عناية بنسخ الكتب وتجليدها وتوريقها واخراجها فى حلة قشيبة تسر الناظر وتاخذ بلب القارىء لما هي عليه من جودة واتقان وصناعة وابداع فنى . ويحدثنا التاريخ عن هذه الظاهرة وتطلعنا بعض الوثائق على مدى انتشارها فى الحضرة الفاسية وغيرها من المدن المشهورة ، وما كان لها من أثر فى الاوساط العلمية والادبية سواء فى المغرب أو خارجه . ان الخطاطة اصبحت فى هذا العصر صناعة فنية مستقلة ، يتعاطاها افراد عرفوا بخطهم الجميل ، وذوقهم الفنى الاصيل ، وعنايتهم الخاصة باستنساخ الكتب وتفننهم فى تجويد خطها وتذهيب عناوينها وتلوين بعض حروفها وتجميل اشكالها حتى تخرج آية فى الروعة والابداع والجمال . ان «الخط الجميل» اصبح من الصفات الممتازة التى كان المرء يجد فى كسبها والتمتع بمزاياها والعمل على تعميمها بين أفراد الاسرة الواحدة . لذلك كنت تجد فى فاس وفى غيرها من المدن المغربية او الاندلسية ، فى زمن بنى مرين ، اسرا عريقة انفردت بهذه الصناعة الفنية واكتسبت بها شهرة عملت على تخليد ذكرها عبر الاجيال والعصور .

وقد احتفظت لنا بعض المصادر التاريخية(2) بأسماء نذكر منها محمد بن

1) أنظر المقدمة ، ص 408 — 409 (مصر المكتبة التجارية بدون تاريخ) .

2) انظر فى مجلة المغرب ، بحثا لمحمد فاضل بن عاشور ، فاس من خلال مخطوطاتها ص 7 (مجلة المغرب (الدار البيضاء 1964)

عبد العزيز الحلو وأسرته التى بقيت هذه الصناعة منتشرة بين أفرادها ، كما يؤكده الاستاذ فاضل ابن عاشور ، الى ما بعد القرن العاشر والحادى عشر هجرى . ولماذا نذهب بعيدا في البحث عن اسماء الخطاطين المشهورين والسلطان ابو الحسن أعطى المثال بنفسه فكتب بخط يده ثلاثة مصاحف بعثها الى المساجد المقدسة . ويذكر لنا المقرى(1) ان أبا الحسن المرينى «كان حسن الكتابة ، ذا بلاغة وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة» . وهكذا يتضح لنا من هذا النص أن «حسن الكتابة » اصبح كما راينا من الالقاب الشهيرة التى يعرف بها الفرد فى زمن بنى مرين ويفتخر بحملها . ولعل القارىء يذكر ان ابن الخطيب عندما يتعرض لترجمة بعض الشخصيات فى عصره سواء بالمغرب أو بالاندلس ، كان لا يفوته ، اذا اقتضى الحال ذلك ، ان يذكر من بين صفات مترجميه انه كان «ذا خط حسن» فالخط الحسن كان اذن شيئا اساسيا فى التعريف بمشاهير الادباء والعلماء .

وهكذا يتضح لنا ما كان للفنون من اثر فى المجتمع المغربى كما يتاكد لنا ان بنى مرين كانوا في مقدمة هذه الحركة اذ اعطوا المثال بانفسهم كى تنمو هذه الحركة وتستمر فى المستقبل .

ان الحاسة الفنية ، اذا تربت ونمت فى فرد من افراد المجتمع ، رققت طبعه ولينت سلوكه ، وهذبت ذوقه وجعلته يتذوق كل انتاج فنى ، وكل عمل فيه صنع دقيق واتقان وجودة وابداع ، مما يخلق فى نفسه دافعا او محركا يجعله بالتالى ينساق نحو هذا الانتاج ويبحث عنه اذا لم يجده . وتلك نتيجة حتمية بالنسبة للفرد وللمجتمع تفرضها عوامل نفسية واجتماعية معينة . ان حقائق علم الاجتماع وعلم النفس والتجارب على الخصوص تؤكد ما لذلك من اثر وضغط يسرى مفعوله بصفة شعورية ولا شعورية فى الطبقات المكونة لبيئة ما . وتلك التجارب تقسمها بينت بكل وضوح ما اتسمت به البيآت العربية وغير العربية فى مختلف العصور من عناية بالفنون الادبية لان فنونا اخرى تطورت فيها ورقى مستواها . لقد ارادوا التنميق والزخرف فى الالفاظ ، وتجميل الاسلوب ، كما احبوا الزخرف والتزويق « والتوشية » فى الجدران والقصور والاوانى والثياب وغير ذلك ، فتأثر الفن الادبى بالفن المعمارى والحضارى على العموم . يكفينا مثالا ان نتذكر البيئة العربية فى القرن الرابع والخامس والبيئة الاندلسية فى عصرها الذهبى . ان فيها لشواهد ناطقة وظواهر مختلفة تدلنا على مدى الترابط والتكامل بين الفنون على اختلاف اشكالها جامدة كانت ام ناطقة .

---

1) نفح الطيب ج 6 ص 136 (مطبعة السعادة مصر 1949)

ويحق للقارىء ونحن نتحدث عن ازدهار هذه الحركة الفنية بالمغرب على عهد بني مرين ان يتساءل عن السر في هذا التطور الذى طرأ على بنى مرين ؟ يحق له ان يتساءل عن : «كيف تحول بنو مرين من قوم رحل عرفوا بحياتهم البدوية الخالصة وبتنقلاتهم عبر الصحراء وبعيشهم تحت الخيمة كسائر القبائل البدوية العربية ، الى رجال حضارة ورقي ، انه لتطور خطير يبعث على التفاؤل والدهشة فى نفس الوقت . لان الامر يتعلق بتطرف واضح . لقد عرفنا بني مرين على ابواب الصحراء المغربية وعرفنا موطنهم بالمغرب الاوسط ، وعرفنا كيف كانوا يعيشون بأساليبهم البدوية التى لم تكن تعرف للاستقرار معنى ولا للحضارة سبيلا . عرفنا تقاليدهم واخلاقهم البدوية يوم اقبلوا على المغرب مستولين على حكمه ، قابضين على شؤون شعبه الزمنية والروحية . ان فى ذلك لمما يدل على عبقرية كامنة وشدة قابلية للتكيف ، وسرعة اندماج ، واقبال شديد على معطيات البيئة المغربية المادية والاجتماعية قصد اخضاعها وتطويرها .

ان سرعة التكيف مع بيئة ما حسب حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ايضا ترجع الى عوامل شتى . منها الذكاء ، ومنها عدم التوفر على ماض طويل ، حافل بتقاليد وبعادات اصيلة قد تصطدم بالمعطيات الجديدة . ومنها الشعور بمركب النقص وبعقد نفسية تحمل الفرد على بذل اقصى ما يمكن من الجهود فى مواطن ضعفه كي يقضى على أسباب ذلك النقص ويظهر فى موطن الضعف بمظهر القوة والغلبة . وفى التاريخ امثلة على ذلك وفى التجارب اليومية انواع كثيرة من نفس السلوك : افراد ضعفاء نعتهم الناس بالقصور والعجز وبعيوب اخرى ، واشارت لهم الاصابع بانحطاط المستوى ، وضعف العزيمة ، نهضوا وقاوموا هذا التخلف او هذا المركب فبذلوا فى ذلك جهودا عظيمة وسرعان ما تغلبوا بفضل ارادتهم القوية على كثير من منافسيهم وتفوقوا على من كان فى درجة اعلى فى ميدانهم واختصاصهم . هذه بعض العوامل النفسية والاجتماعية التى قد تفسر لنا هذه الظاهرة التى واجهتنا فى سلوك بنى مرين وموقفهم من الحضارة والفن فى البيئة المغربية ، ليس يخاف أنهم قبل ولوجهم أبواب المغرب كانوا محتكين بقبائل المصامدة ، تلك القبائل التى حققت امبراطورية المغرب وقام لها الناس وقعدوا فى العالم الاسلامى وفى غيره . وكثيرا ما كانوا يصطدمون بهم نظرا لطبيعتهم الاجنبية وللطابع البدوى المتغلب على سلوكهم، كما كانوا محتكين بالقبائل العربية البدوية وبالعناصر الاندلسية وببني أمية الذين وجدوا فيهم عونا ونصرا لسياستهم ، فهم من هذه الناحية كانوا على علم بماضى المغرب وبالاحداث التى اثرت فى سياسته وتطوره . فمن الطبيعى ان يتكون فيهم ، من هذه العوامل التى اشرنا اليها سابقا ، ما جعلهم مسلحين ، مجهزين ، مستعدين لتحقيق أهدافهم ومحو ما قد يكونون وصموا به من نقص فى المجالات التى كانت مسرحا لتجاربهم . لذلك رأيناهم ، وما ان استتب لهم الامر ، مقبلين على تحقيق مشاريع عمرانية وفنية في غير بطء ولا ارتجال . ومما ساعدهم على ذلك ايضا وجود

كثير من الفنيين والمهندسين الاندلسيين بجانبهم ، فلقد روت لنا مصادر كثيرة(1) ان بني مرين كانوا يعتمدون في تشييد قصورهم ودورهم الفاخرة وفي بناء منشآت أخرى عمرانية وعمومية على عناصر اندلسية من ذوي الخبرة الفنية والهندسية .

ومما هو جدير بالذكر ايضا في هذا المجال ان عصر بني مرين شهد حركة بناء خاصة تتجلى في انشاء مدارس للطلبة في كل ناحية من نواحي المغرب . وهكذا اسست مدرسة او مدرستان (او اكثر) في كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك ، فحظيت بعناية الملوك الخاصة واشرفوا عليها بأنفسهم حتى شيدت في أروع مثال وابهى حلة . وكثيرا ما تجلى فيها الذوق الفني والمهارة الصناعية الرقيقة ، والخلق والابداع في النقش والنحت والزخرف البديع في اعلى الجدران والابواب ، فكانت بذلك آية في الفن المعماري الذي ما زال بعضه قائما الى الآن ، يشهد بذلك الاتقان وبتلك الروعة والعظمة . هذه المدارس التي كثر عددها في هذا العصر ، وتفنن الصناع والمهندسون في تشييدها . اسست لايواء الطلبة الذين وجدوا فيها أمنا وراحة واستقرارا وهدوءا ساعدهم على أداء رسالتهم العلمية والثقافية ، فقصدوها من كل ناحية استكمالا لدراستهم وللاخذ من مشاهير العلماء والادباء . ان تصميم بنائها وموقعها الجغرافي بالنسبة لكل مدينة بنيت فيها جعلاها تستجيب لكثير من حاجياتهم المادية والمعنوية والروحية . وليس بخاف ما كان لهؤلاء الطلبة من مكانة سامية في المجتمع المغربي على عهد بني مرين ، اذ كانوا كما أكدته كثير من المصادر ، عماد الدولة ، كما كانوا يشكلون طبقة اجتماعية خاصة نالت من الحظوة والجاه لدى الملوك وغيرهم ما جعل بعض المؤرخين يتعرضون اليهم بصفة خاصة نظرا لما كان لهم من تأثير في حياة الامة . ومهما كانت الاهداف التي اسست من أجلها هذه المدارس ومهما اختلفت الآراء حول الدور الذي قامت به فيها يرجع لسياسة الدولة ونظمها ، فان الذي يهمنا أن نسجله هنا هو أنها كانت دعامة قوية للحركة الادبية والفكرية في هذا العصر . واذا كان بنو مرين اكثروا منها وتفننوا في تشييدها حتى أصبحت غاية في الروعة والجمال ، فانهم بذلك خدموا مباشرة وبصفة ارادية واضحة هذه الحركة التي ارادوا نشرها وتعميمها بنشر هذه المدارس وبثها في كل ناحية من نواحي المغرب المهمة .

واذا كانت هذه الحركة مدينة لبني مرين في كثير من وجوهها ومظاهرها ، فان المغرب كبيئة مادية او كاطار جغرافي يمتاز خصوصا بحدوده المتاخمة لبحر الابيض المتوسط وقربها من القارة الاوروبية على العموم ، يشكل بهذه الصفة عاملا آخر كان له أكبر الاثر في تنشيط الحركة الثقافية والادبية . يكفيك مثالا ما لعبته

---

1) عبد العزيز بن عبد الله (الفن المغربي الدار البيضاء 1960) تجد في هذا المرجع ومصادر اخرى ان من بين المهندسين الاندلسيين الذين كانوا بالمغرب في خدمة بني مرين محمد بن علي من اشبيلية ومحمد بن الحاج من نفس المدينة .

مدينة سبتة من دور رئيسي فى حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية . لقو سبق ان اشرنا الى ما كانت تمتاز به هذه المدينة من حيوية ونشاط فكرى كان له صداه فى داخل المغرب وخارجه . ان الموقع الجغرافى لهذه المدينة ولغيرها من المدن المتأخمة كطنجة وتطوان ، سهل الاتصال بعلماء وأدباء الاندلس وقـــرب المسافة للتنقل بين العدوتين وشجع الرحلات السياحية والسياسية والدبلوماسية وغيرها ، فكانت هذه المتاخمة ملتقى شخصيات تمثل ثقافات وحضارات مختلفة استفاد منها المغرب في حضارته بصفة عامة وفى حياته الفكرية والادبية بصفة خاصة .

ويدخل فى هذا الاطار ايضا ، وكنتيجة حتمية لتأثيره المباشر وغير المباشر فى سياسة المغرب الداخلية والخارجية ، تلك الحركة الهجرية القوية التى شهدها المغرب فى هذا العصر حيث تواردت عليه من مختلف القواعد الاندلسية المتساقطة فى يـد الاسبان أسر كثيرة اختارت المغرب مقرا لها فاستوطنت بعض مدنه (1) بصفة نهائية. وجدير بالذكر ان نتعرض هنا لشخصية اندلسية كان لها اكبر الاثر في حياة المجتمع المغربى الادبية والثقافية ، انها شخصية ابن الخطيب (2) الفذة ، تلك الشخصية التي ــ كما هو معلوم ــ طبقت شهرتها آفاقا بعيدة فى المغرب وخارجه . ان وجود مثل هذه الشخصية في المغرب لكفيل باعطاء فكرة عن قيمة هذه الحركة الهجرية التى عاشتها البيئة المغربية فى زمن بنى مرين . ان ابن الخطيب بذكائه ، بعبقريته ، بتعلمه الواسع ، بآدابه وفنه ، بنفوذه المعنوى والمادى ، بدهـــائه السياسى بدبلوماسيته وتجاربه ، خلق فى المغرب جوا خاصا كان له اثر حسن على الثقافة وعلى الادب . يكفى ان تمر مثل تلك الشخصية ببيئة ما لتحرك الهمم وتقوى الرغائب وتثير تنافسا وردود فعل مختلفة تستفيد منها الحركة الثقافية على العموم . وكذلك كان الامر بالنسبة لابن الخطيب الذى عاش في البلاط المرينى كما عاش فى مدن اخرى رددت صداه وسجلت نشاطه وتنقلاته وبعض مطارحاته ومناظراته الادبيـة وتعليقاته على أدباء المغرب وعلمائه وانتقاداته الموجهة ضد بعضهـــم واحتكـاكاته المستمرة برجال الفكر والصلاح . ان المغرب الثقافى كله فى هذه الفترة كان يعيش مع ابن الخطيب فى تنقلاته ومحاضراته وفى مسراته ومضراته ، وآلامه ونكباته ، الى أن لفظ بنفسه الاخير بفاس فبكاه البعض وتشفى منه البعض الآخر .

ذلك بايجاز ، هو الجو الذى خلقه ابن الخطيب فى المغرب وذلـــك هو الاثر الذى تركه بصفة عامة عن قصد وغير قصد ، في الاوساط المغربية المثقفة ، ولـم يكن ابن الخطيب وحده فى هذا الميدان بل شاركته كما سنرى شخصيات أخرى اندلسية كان لها وزنها الثقيل سواء في عالم الادب او فى عـــالم الفقه والتشريع

---

1 انظر الفصل الاول

2) ولد لسان الدين ابن الخطيب بالاندلس سنة 713 هـ وتوفى بفاس سنة 776 هـ .

الاسلامي او في ميادين أخرى . وانما خصصنا ابن الخطيب بالذكر نظرا للنفوذ القوي الذي كان يتمتع به في بلاده وغيرها ونظرا لما تركه في المغرب من أثر وما خلفه من انتاج فكري هو وليد البيئة المغربية بالدرجة الاولى(1) .

وهكذا يتضح للقارىء مما سبق ، وبصفة اجمالية ، كيف استفادت الحركة الفنية الادبية في المغرب ، على عهد بني مرين ، من هذه العوامل التي اتينا على ذكرها . منها ، كما رأينا ، ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر ، منها ما ظهرت آثاره بسرعة ومنها ما لم تظهر آثاره الا بعد مدة معينة . ورغم تفاوت هذه العوامل في القوة والضعف ورغم اختلاف مظاهرها ، فالطابع الذي يغلب عليها هو انها كانت في جوهرها من البيئة المغربية ، تستمد اصولها قبل كل شيء من موقعها الجغرافي ومن حدودها الشمالية والشرقية على الخصوص (تلك الحدود التي جلبت اليها الخير كما كانت وبالا عليها) ثم من ابنائها وتفاعلهم معها في ميدان السياسة والاقتصاد وفي ميدان الاجتماع والثقافة .

---

1) سنعرض بتفصيل لاثر ابن الخطيب الثقافي في الحياة الادبية المغربية كما سنتحدث عن شخصيات اخرى اندلسية كان لها دور مباشر في الحركة الفكرية عموما .

مكانة الشعر بالنسبة للنثر

يلاحظ الباحث في هذه الحركة الادبية التى عرفها المغرب فى عصر بنى مرين ملاحظة لا تخلو من مغزى ومن اثر . ذلك ان المجهودات الـــتى بذلت فى هـــذا الميدان كانت تميل الى النثر أكثر من ميلهـــا الى الشعـــر ، بمعنـــى أن النثر حظى بعناية فائقة من طرف الادباء واستأثر باكبر جهودهم فكـــان له المقـــام السامى والمجال الواسع ــ على حساب الشعر طبعا ــ كما كانت له الغلبـــة والسيطرة على سائر الانتاج الادبي بصفة عامة . لذلك كان ما كتبه هؤلاء الادباء اكثر مما نظموه . فكانت نسبة الشعر ضئيلة فى هذا الانتاج الذى خلفته البيئة المغربية فى هذا العصر ، تلك حقيقة تاريخية وظاهرة اجتماعية خاصة امتازت بها الحركة الفكرية والانتاج الادبى بصفة عامة . وليس من الصعب على الباحث ان يلمس هذه الظاهرة اذا اراد أن يتحقق منهـــا ويتأكد . يمكنه أن يلقى نظرة عـــلى انتاج هـــذا العصر ليعـــرف كميته ووزنه ويقف على نوعيته ، ويميز بين اقسامه وفنونه . يكفى القـــارىء ان يتجه الى مكتبة عامة او خاصة ليبحث عن مؤلفات هذا العصر وعن القصائد والابيات التى يرجع عهدها اليه . يتطلب ذلك الاحصاء مجهودا فكريا ووقتا طويلا ، لان عصر بنى مرين يتجاوز القرنين ولان تراثه الفكرى ضخم ومتشعب الفروع ثم لان اجزاءه ما زالت الى اليوم مبعثرة بين المكتبات العامة والخاصة فى المغرب أو خارجه . وتسهيلا لمهمة القارىء وتوفيرا لكثير من العناء والكد الذى يجده فى ذلك ، حاولنا القيام بهذه العملية قصد اعطاء فكرة عن هذا الانتاج فكانت طريقتنا ، نظرا لوفرة المؤلفات وكثرة العلماء والادباء فى هذا العصر ، هى الايجاز والاختصار مع مراعاة نسبة التمثيل الحقيقى للبيئة المغربية ، فاعتمدنا على مشاهير ادباء هذا العصر ، واقتصرنا على نخبة منهم تمثل البيئة المغربية تمثيلا واسع النطاق ، مراعين فى ذلك الاصالة وصدق الشعور والاحساس بمعطيات المجتمع المغربى ومظـــاهره المادية والمعنوية والروحية . وفى ترجمتنا لهؤلاء المشاهير الذين حاولنا مـــا امكننا اطلاع القارىء على أهم جوانب حياتهم النفسية والاجتماعية والثقافية لـــم يفتنا ان ذيلنا ، حسب المصادر التى وقفنا عليها الى الآن ، ، بحثنا بشبه قائمة لمؤلفاتهم ، يتجلى فيها نوع انتاجهم وكميته والنزعة الغالبة عليه . من الممكن ان نعتبر هذه الآثـــار مقياسا نستدل به على حظ النثر من هذا الانتاج وكميته الوافرة ، وسعـــة افقه وتشعب فروعه واستبداده بفكره وجهود العلماء والادباء . يتضح من ذلك أن ما

قالوه وما كتبوه كان نثرا اكثر منه شعرا ، وان اعظم ما تركوه لنا كتراث فكرى هو عبارة عن مؤلفات ضخمة ومصنفات كثيرة من العسير احصاؤها والالمام بجوانبها فى هذا المجال . لننظر اذن الى هؤلاء الاعلام الذين ترجمنا لهم ولنلق نظرة خاطفة على منجزاتهم المختلفة كي نتأكد من مدى صحة هذا الرأى . فالشيخ زروق مثلا اعظم مؤلفاته نثرية رغم كون بعضها يتضمن شعرا ، ورحلة ابن بطوطة كلها نثرا باستثناء بعض الابيات وكذلك رحلتا ابن رشيد والعبدرى ، وان كانتا تنطويان على أبيات كثيرة من الشعر . واذا استثنينا قصائد ومنظومات مالك ابن المرحل وارجوزة الملزوزى فلا نكاد نجد فى هذا التراث الفكرى الا النثر وما شابه النثر وفنونه فلماذا اذن هذا الاتجاه ؟ لماذا كان حظ النثر موفورا وحظ الشعر ضئيلا ؟.

ان هذا السؤال يذكرنا بمعركة قديمة ومعروفة فى تاريخ الادب العربى ، معركة قامت حول النثر والشعر للمفاضلة بينهما وتقييم وضعية الكتاب والشعراء تبعا لذلك ، معركة عرفت خصوما وانصارا ، فكانت الغلبة احيانا للشعر واخرى للنثر، تبعا لمقاييس خاصة ذاتية اكثر منها موضوعية فى اغلب الظروف ، فكانت النتيجة ان جرت هذه المعركة اليها كثيرا من النقاد الذين وجدوا فيها مادة خصبة لترويج بضاعتهم بتغليب تارة الشعر ومرة اخرى النثر مستدلين بحجج ما نظن انفسنا بحاجة الى عرضها هنا لبيان خطئها أو صوابها ، يكفى أن نقول ان عدد النقاد الذين شغلوا بهذه المعركة كان كبيرا وان هذه المعركة لم تحسم رغم طول أمدها وحدة الصراع القائم بين من دخلوا فيها . فالظروف السياسية والاجتماعية والقيم الاخلاقية بل والاغراض الشخصية كثيرا ما تحكمت فيها وحولت مجراها فبقيت قائمة مستمرة ، يكفى ان نشير من ذلك الى ما نشب من خلاف حول هذا الموضوع بين الثعالبى وبين ابى رشيد وبين ابى هلال العسكرى وغيرهم من النقاد . اما نحن فقد وضعنا هذا السؤال على أنفسنا لا للمفاضلة بين النثر والشعر ولا لمعرفة ايهما احسن مقاما وأعلى درجة ، الكاتب ام الشاعر ؟؟ وانما ذكرنا بهذه المعركة القديمة لما لها من صلة بموضوعنا، ونظرا لكون أسبابها قد تتشابه فى بعض الوجوه كما سنرى ، مع العوامل التي تحكمت فى الانتاج الادبى فى عصر بنى مرين واثرت فى اتجاهه بتغليب جانب النثر على جانب الشعر . فما هى اذن هذه العوامل ؟ لقد قيل قديما ان الملوك والامراء وذوى المراتب العالية والخير والفضل يترفعون عن الشعر ويتجنبون انتسابهم الى طبقة الشعراء ، رغم ما نظموا من ابيات ورغم ما عرف عن بعضهم من جودة واتقان وكفاءة فى هذه الناحية الادبية. ذلك لان ظروفهم المجتمعية ووضعيتهم الروحية أو السياسية تأبى عليهم ان ينغمروا فى هذا الميدان الذى قلما سلم من دخله من نقد لاذع ، ودعاية قبيحة تكون السبب فى كثير من الاحيان فى تحطيم سمعتهم والاطاحة بسلطتهم وبنظامهم : لان الشعر لغة العاطفة والوجدان ووليد الخيال قبل كل شيء، يكثر فيه الزيف والافتعال ان لم نقل النفاق والتزليف والاحتيال كما تدور اغراضه ومعانيه فى بعض الاحيان حول مواضيع قد تزول فيها الحشمة ويخلع الوقار . فالشاعر اذا تحدث كان حديثه وصف حبيبة كلف بها وكلفت به أو وصف خمر

يعاقرها او يتلذذ بشربها او اطلاع الناس على مغامرات جنسية خاصة فيتغنى بذلك متفننا في وصفه ، مبدعا في تشبيهاته ومطنبا في تصوير لذاته وشهواته ، وانفعالاته الحسية وغرائزه الجنسية غير مبال بما قد يكون في ذلك من مساس وخلاعة ومجون وفساد ذوق ومرض العواطف ، مما يتنافى والاخلاق العامة وما تنهى عنه الشريعة الاسلامية التى تأمر المومن بالعفة وصيانة اعراض الناس وعدم التعرض الى عورتهم ولا الى شيء فيه مساس بالاخلاق ومبادىء الدين الحنيف .

وفي الموضوع نفسه سبق لابن خلدون (1) ان ادلى برأيه قائلا : «ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوءة والوحى ، وما ادهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكنوا ... » الى ان قال : فصار غرض الشعر فى الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى كانت للاولين كما ذكرناه ، وانف منه لذلك اهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال واصبح تعاطيه (2) هجنة فى الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة » .

واذا كان ابن خلدون قصر السبب فى الكذب والاستجداء وقصر الكلام على ذوى المراتب العالية ، فنحن نرى ان السبب أقوى واخطر ، واكثر مساسا بالدين والقيم الاجتماعية والاخلاقية وأشد ارتباطا لا بذوى المراتب فقط بل بسائر طبقات الشعب .

وما لنا نذهب بعيدا ، وامامنا اديب مغربي من صميم البيئة المغربية ومن مشاهير هذا العصر الذين تشبعوا بروحه وكرعوا من ينابيع تياراته المادية والروحية، ذلك هو العبدرى ، صاحب الرحلة المغربية الذى سبق ان عبر عن نفس الاتجاه بقوله عند ما مر بمراكز التفتيش بالاسكندرية (3)

نذرت النصيحة فى حقكم	وحق الوفاء على النادر
وحبك انطقنى بالقريض	وما ابتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبى	وبيئس البضاعة للتاجر

هذه أبيات من قصيدة نظمها العبدرى ناصحا بها أمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وفيها يعبر بكل وضوح عن ميله عن الشعر وترفعه عنه ، وعدم اللجوء اليه الا فى حالة اضطرار ، لانها بضاعة التاجر البئيس المفلس . وكفانا حجة هذا الراى الذى صدر عفويا عن شخصية مغربية كان لها من الوزن الادبى والثقافي في عهد بنى مرين ما جعلها تحتل مكانة مرموقة فى الشعر وفى النثر .

---

1) المقدمة (مصر ، المكتبة التجارية بدون تاريخ) ص 581 .

2) الشعر

3) الرحلة المغربية للمؤلف (تحقيق ابن جدو مطبوعات كلية الجزائر بدون تاريخ) صفحة 98 .

هل في هذا ما يبرر ، في البيئة المغربية ، قلة الانتاج في الشعر ويعلل انصراف الادباء الى غير الشعر من الفنون الاخرى ؟ ذلك امر محتمل ، لان المجتمع المغربي ، كما راينا في الفصل الاول ، مجتمع تقليدي متشبث الى اقصى حد بتعاليم الاسلام ، عامل على احترام هذه التعاليم وتطبيقها ، حارص كل الحرص على نشرها وتعميمها والسير على هداها في سائر مرافق الحياة ، لقد رأينا كيف كان سلوك بني مرين مع موظفيهم وجنودهم ورعاياهم بصفة عامة ، لا تاخذهم في الله لومة لائم، ولا يتراخون في معالجة كل من صدرت عنه أقوال أو أفعال تخل بهذه الروح الاسلامية المتغلغلة في النفوس . ان الصرامة الشديدة في العقاب كانت تنتظر العابثين بأمور الدين كما كانت المكافأة من نصيب المستقيمين وذوي السلوك الحسن كما راينا انهم ، لنفس الغاية ، عينوا صاحب الصلاة وامروا جندهم بالتوقف في السير عند سماع آذان الصلاة الى ان يؤدوا واجبهم الديني . ولم يكن الشعب باقل حرصا منهم في هذه الناحية على اداء واجبه بل كان كثير التجاوب مع ملوكه شديد الاخلاص لدينه ، حارصا كل الحرص على تطبيق أوامره . واذا كانت هذه هي سمات البيئة المغربية وطابعها العام من الناحية الروحية فليس من شك في أن الشعر بمعانيه الفاحشة ، واغراضه المتهتكة ولغته الماجنة وخلاعته الصارخة ، فليس من شك في أن شعرا من هذا النوع لا يجد في مثل هذه البيئة المحافظة تربة صالحة وميدانا خصبا يشجع نموه ويساعد على توسيع آفاقه وتطوير اغراضه . ليس الشعر كله ، كما قيل ، من هذا النوع السافر الذي لا تراعى فيه أخلاق ولا مبادىء الاسلام ، الا انه اعلق بالوجدان واشد اتصالا بالانفعالات والاحاسيس ، وخلجات النفس البشرية وما يعتمل فيها من حب وكلف ، وحزن والم وشجون قد يكون التعبير عنها بكل واقعية وبكل صراحة من قبيل السلوك الذي يعتبر ماسا بالاخلاق لا سيما في المجتمعات المحافظة كالمغرب في عصر بني مرين .

وليس معنى ما قلنا أن الشعر لم يجد مكانا في البيئة المغربية ولسنا ندعي أن هذه البيئة لم تنجب شعراء ، او لم تساعدهم أو عرقلت نشاطهم بصفة من الصفات ، ذلك ما هو مخالف للواقع ، لان المغرب في هذا العصر عرف شعراء مجدين بل فحولا امتازوا ببراعتهم ومواهبهم الفطرية وارادتهم القوية ، لقد راينا من ملوك بني مرين من كان يقرض الشعر كما سنرى شعراء نبغوا في المجتمع المغربي وشاركوا بجهود وافرة في هذه النهضة الادبية ، الا ان الشعر ظل مع ذلك ، وبالنسبة للنثر ، خافت الصوت ، قابعا وراء ستار حال دون انطلاقه وتحليقه في أجواء بعيدة .

واذا ما استمررنا في البحث عن أسباب هذا الانكماش وجدنا عوامل أخرى تمتد جذورها الى البيئة المغربية نفسها وتنبعث من واقعها النفسي والاجتماعي ؛ ان الظروف السياسية التي كان المغرب يعيشها في هذا العصر ظروف خاصة ، جعلت بني مرين في موقف صارم ، لا تهاون فيه ولا تهاود ؛ كان الشعب ينتظر على أيديهم انفراجا وحلا للازمة التي يتخبط فيها . ليس بخاف ما أصاب هذا الشعب من محن

على ايدي الموحدين الذين حاولوا ، ما أمكنهم وبشتى الوسائل ، القضاء على الفقه المالكي ، مذهب الامة الذي بقي متغلغلا في النفوس رغم الاضطهادات التي مني بها الفقهاء والتعسفات الشديدة التي لقيها الطلبة وغيرهم ، والمحن العسيرة التي أصابت من كـان ينـاوىء دعـوة بنـي عبد المومـن ، الى أن جاء بنـو مرين ، فـوقع الانفراج ، وكـان عليهم أن يسايروا التيـار الشعبي ، محافظة عـلى سلطتهـم وتثبيتا لدعائم دولتهم ، فكانت المعركة قائمة ، والاهداف واضحة ؛ فاستأنف الفقهاء نشاطهم ، وانصرف الطلبة الى مناهج دراستهم المقررة مقبلين عليها بكل شوق وارادة ، سائرين في الطريق التي خطها لهم رؤساؤهم وأساتذتهم والتي تحقق مطامح شعبهم ، فكثرت الدراسة والتصنيف والتأليف في الفقه وفروعه ، كما ظهرت عدة مؤلفات في التحقيق والتعليق والرواية ، فكان الانتاج في هذه الناحية ضخما دقيقا ومتشعب الفروع والاصول ، مما أدى الى حركة فكرية في هذا الميدان ميزت المغرب في هذا العصر عن العصور الاخرى وطبعت نشاطه الثقافي بطابع خاص ، فكان في ذلك اطفاء لعطش وتحقيق لرغبات مكينة أصيلة طالما عبر عنها الشعب في شتى المناسبات ودافع عنها دفاعا مستميتا ، فالطالب الظافر في نظر الشعب هو الذي نال من هذه الثقافة الفقهية حظا وافرا واستطاع أن يفيد بها أبناء وطنه في معاملتهم الخاصة ، في زواجهم وفي ارثهم وفي بيوعاتهم . لقد كان كل أديب فقيها قبل كل شيء ، اذ كانت مادة الفقه أساسا لثقافته ووسيلة أولى لنجاحه ، فالفقيه المحدث هو مصباح تستضيء به أسرته ومفخرة يعتز بها حيه وأهله ، واذا كانت هذه هي منزلة الفقيه في مجتمعه ، فلقد سبق أن رأينا في ترجمة ابن المرحل والعبدري وزروق وابن رشيد وغيرهم ، ما يؤكد هذا الاتجاه الثقافي ، ويجسم هذه الرغائب الشعبية اذ كان كل منهم ، كما رأينا فقيها قبل أن يكون أديبا ولغويا . يكفي أن نتذكر أن الشاعر الملزوزي كان قد استفتي من طرف السلطان أبي يعقوب في مسألة فقهية عندما أراد أن يبذل الموازين . فكان الملزوزي الشاعر المعروف على اتم استعداد لافادة ملكه حتى اذا ما اتخذ الاجراء ونفذ كان مطابقا لاحكام الشرع الاسلامي ومستجيبا لرغبات الشعب الذي كان لا يتساهل في أمور دينه ولا يتعامل في شؤون حياته الا على أساسه ، رافضا، في عمومه ، كل بدعة محرفة وكل تشريع لا يستمد أحكامه من فقه مالك ومن الكتب المصنفة في فروعه .

لذلك فلا غرابة أن تنصرف الهمم الى الكتابة وتدوين الحقائق العلمية والتعبير عن الافكار والنظريات بلغة مناسبة تخاطب العقل قبل أن تخاطب الوجدان والقلب أي بالنثر قبل الشعر . ألم يكن في هذا النشاط أو كما يسمى عند علماء الاجتماع بالضغط الاجتماعي ما يقوى نفوذ النثر ويزكي دعائمه ويشجع طرقه ويوسع آفاقه ؟ ان البيئة الحافلة بهذا النشاط جندت نفسها من بداية معركتها لاحراز نصر ، بل لتحقيق رغبة ملحة ظلت تحركها رغم العواصف والاضطهادات ، فكان عليها أن تنتصر على هذا الضعف الذي ركبها وتتخلص من هذه العقدة النفسية التي كبحت جماحها .ان الكبت من عوامل الانفجار والانطلاق والابداع كما يؤكده علم النفس وكما تؤكده التجارب

قبل كل شيء . فالمسألة مسألة جد ورزانة قبل ان تكون متعة وتسلية وترفيها . ذلك ، في نظرنا ، ما شغل الافكار ، وصرف الهمم عن الشعر واستأثر بمجهودات الفقهاء والادباء واستبد بعنايتهم وبقرائحهم ومواهبهم ، فلم يظفر الشعر بما ظفر به النثر ، رغم بروز شعراء ابدعوا وأجادوا وتفننوا فانتجوا روائع كانت — ولا يزال منها شيء — مفخرة للمغرب ومساهمته في الادب العربي بأجمعه . انها البيئة المغربية، بظروفها الاجتماعية والسياسية ، وبمقوماتها الاخلاقية ، ومثلها الروحية ، ومناهجها الثقافية التي انبعثت منها عوامل ، تضافرت وتكاملت فخلقت تيارا مجتمعيا خالصا له سيطرته وتأثيره المادي والروحي على القيم والمثل والمعتقدات والاتجاه والتصرفات والشعر ، ككل ظاهرة اجتماعية خاضعة في نشأته وتطوره لهذا التيار العام وهذا الاتجاه السائد .

النزعـة الروحيـة

في الشعـــر المغـربـــي

لقد اطلعنا على البيئة المغربية غير ما مرة ووقفنا على كثير من جوانب حياتها المادية والروحية واتضح لنا من كل ذلك ما كانت عليه هذه البيئة من روحانيـة وصدق عقيدة ، وتمسك قوي بروح الاسلام وبتعاليمه . لقد طغت كما رأينا هذه الروح على النفوس والافكار والعواطف . فكيفت سلوك الافراد ، وحددت اتجاهاتهم وتصرفاتهم ، ومواقفهم من الحياة ، من الطبيعة ، مما وراء الطبيعة من المادة ومن الروح . فكانوا في حياتهم وفي مختلف مجالات نشاطهم مومنين أشد الايمان بالله ، بوحدانيته ، بملائكته بكتبه وبرسله ، آخذين من الحياة الدنيا زادا لآخرتهم حيث الثواب والخلود في الجنة لمن أخلص لربه وفعل ما أمره به . بل كثيرا ما كان بعضهم يغالون في هذا الاتجاه ، ويتطرفون في أفكارهم وعقائدهم خوفا من الوقوع في الشك وتجنبا للمعاصي التي يعاقب عليها الله تعالى ، فاشتدت الرغبة عن هذه الحياة الدنيا وما فيها من قوى ، وحيوية ونشاط سواء من الناحية الاجتماعيــة أو الاقتصادية . فوقع شبه انسحاب وخلت الميادين التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها من كثير من الجهود البشرية والفعالية الانسانية التي كثيرا ما تحفل بها مجتمعات أخرى لا تسير في نفس الاتجاه ، وذلك ما ساعد على الفقر والاستسلام والرضا بالواقع وعدم المبالاة بالمستقبل في الحياة .

ولقد ادى هذا التطرف في العقيدة وفي السلوك الى نوع شاذ من الزهد والتصوف، فأقبل بعضهم يعيش لآخرته ليله كنهاره ، لا يبذل أى مجهود لتحسين أحواله ، ولا يرى فى هذه الحياة الا الظلام الحالك ، الا عدوا يجب محاربته ، وذلك بالفرار والانسحاب والانزواء وبالتقوى والعبادة فى كل وقت وحين ، وترك جميع ما له صلة بالبيئة المادية والمعطيات الاجتماعية ، خوفا من الوقوع فى شبكتها وحبائلها ، فكان العدم أولى بهؤلاء والموت أحلى لهم لانه كان أمنية غالية ، والوسيلة الوحيدة لتحقيق الفناء والالتحاق بالرب الاعلى ، ذلك ما لم يأمر به الاسلام الذى ينص على اقامة التوازن بين المادة والروح بدون غلو ولا تطرف كما قال النبى (ص) «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ولآخرتك كأنك تموت غدا» ، ان الحياة الدنيا يبذل فيها الانسان نشاطه ، وحيويته ، ويستغل مواهبه لآخرته لاسعاد غيره من بنى جنسه ، تحقيقا للسلام العام ، وتخفيفا من آلام الغير ، وتشييدا لحضارة انسانية شاملة . ومع ذلك فقد وقع الغلو والتطرف وانصرف الناس عن المادة انصرافا يكاد يكون كليا . وحبذا لو وقف الامر عند هذا الحد ، ولم يتجاوزه الى التدجيل والشعوذة وسوء الفهم وكثرة الارتباك والشك والتكهن بأمور لا يسلمها العقل ولا يقبلها كل ذى حكم سليم .

فاصبحت التأويلات الخاطئة والمعتقدات الواهية والتنبؤات الخارقة للعادة تسيطر على الفكر وتتحكم فى السلوك ، وكادت الامور تهوى الى الدرك الاسفل لولا قيام نخبة من ذوى الثقافة المتينة والسلوك الحسن ، الذين استطاعوا بشجاعتهم وحكمتهم وقوة نفوذهم المعنوى والروحى ، أن يتدخلوا تدخلا عمليا لا يكتفى بالنصيحة والارشاد ، لضبط الامور ورد المياه الى مجاريها ، بتحديد موقف الشريعة وتبيين أغراضها ، وأهدافها من الحياة الدنيا والآخرة ، وتمييز ما بين المادة والروح من فروق وصلة كى لا يشتبه الامر على الاعوام ولا على ذوى الثقافة البسيطة ، نذكر من هؤلاء المصلحين الشيخ احمد زروق الذى نصب نفسه لاصلاح الوضع ولمقاومة هذا الضلال وهذا التدجيل مقاومة لقى منها ما لقى من عنت ، وتعسف واضطهاد ، ان دوره كان كبيرا وموقفه صريحا ، ثانيا كما رأينا عندما ترجمنا له فى الفصل الثانى من هذا البحث أن الشيخ احمد زروق كما رأينا نبع من هذه البيئة ووسط هذا التيار الجارف . فوقف منه موقف الفاعل العامل لا موقف المتفرج ، أو العالم النظرى الواعظ بذكره . أو بكتبه . وما مؤلفاته الضخمة الكثيرة فى التصوف ، وأحكامه الا رد فعل ضد هذه الموجة العارمة ، وهذا الالتباس وسوء الفهم اللذين وقعا فى المادة والروح والعلاقة بينهما بالنسبة للمسلم .

وكيف لا يقوى هذا الاتجاه الروحى ولا يطغى وملوك بنى مرين أنفسهم شاركوا فيه وشجعوا شعراءهم وكادوا يحصرون موضوع التبارى والتنافس فيه . ولا يفوتنا كدليل على ذلك أن نذكر هنا ما أورده الاستاذ محمد ابن تاويت فى أبحاثه المغربية الاندلسية القيمة مترجما لرحلة قام بها الى المغرب فى أوائل القرن السابع

عشر انجليزي(1) يدعي وليم لنكو ويهمنا من ذلك ما نصه : «...ولكن أيام ملوك المرينيين كان الملك في ذلك اليوم(2) يحشد جميع الاهالي في قصره ويقيم حفلة العيد في محضره ، فيحتفل جميع الشعراء المحسنين ويجعل كل واحد منهم ينشد القصائد في مدح النبي محمد قائما على دكة عالية ثم يمنح من اعتقد أنه يفوق الآخرين منحته الملكية التي تكون 100 دينار ذهبي سلطاني وفرسا وجارية وكساء طويلا مما يكون يرتديه هو في تلك الساعة ، كما أنه يامر بخمسين دينارا سلطانيا الى كل واحد من الشعراء الباقين وعلى هذا فكل واحد من هؤلاء الشعراء ينال جائزة على ما سطر قلمه ، وحقيقة انهـا لفتة قيمة لـو أن ملوكنـا الاوروبيين عملوا بهـا .... لاحسنوا» .

هذه شهادة أدلى بها أجنبي زار المغرب ووصف أحواله ، وشاهد محافله الرسمية وغير الرسمية . وهكذا يدل هذا النص الصريح على مدى اهتمام ملوك بني مرين بالشعر الذي ينزع نزعة روحية ! ان عطاياهم ومكافآتهم لم تكن تمنح في هذه المناسبة الا لمن تفوق وأبدع وأجاد وتفنن في مدح النبي وابراز خصاله وخيراته وفضله على الناس في الدنيا والآخرة ، خلافا لما كانت عليه العادة في البيآت العربية الاخرى حيث كانت الاموال والهدايا تغدق عادة على من برع وأجاد في وصف الخليفة أو الملك أو الامير . واذا كان صاحب هذه الرحلة التي اقتبسنا منها هذا النص قد تحدث في مكان آخر عن وجود شعراء خلعوا عنهم صفات العفة والحشمة في شعرهم وانساقوا وراء عواطفهم الجنسية ، فان تلك الظاهرة برزت في أوائل القرن السابع عشر حيث استقر في المغرب عدد من الموركسيين الذين نعرف عن عاداتهم وأخلاقهم الشيء الكثير .

في هذا الجو من الروحانية المتغلغلة في النفوس ، ووسط هذه التيارات الجارفة الناشئة عن الزهد والتقوى والسخط على الحياة وعلى المادة في كثير من الاحيان ، نشأ عدد كبير من علماء هذا العصر ونبغائه في الادب وغيره من العلوم والفنون . أما كان طبيعيا بل حتميا أن يتأثروا به ، أما كان ضروريا أن يقف بعضهم منه موقفا مؤيدا أو معارضا حسب الظروف والملابسات كما فعل الشيخ زروق وغيره من المشاهير ؟ ان ذلك في نظر علماء النفس وعلماء الاجتماع من الامور الحتمية التي لا

---

1) اورد ابن تاويت في بحثه الذي اشرنا اليه اعلاه (مجلة تطوان) العـــدد 9 سنة 1964 منشورات الجامعة المغربية صفحة 142 ، ان صاحب الرحلة أنجليزي ولد في لنرك باسكوتلندا وقد قام برحلته هذه ما بين سنة 1614 وسنة 1616 وقد اخذ عليـــه الاستاذ عدة اغلاط منها : مبالغته في ذكر عدد المساجد ، مبالغته في وصف المجتمع الفاسي باوصاف مذمومة منها ان النبيذ كان في كل قرية من قرى المغرب ، الشيء الذي يتنافى والواقع المغربي وانظمته الاجتمـــاعية وطقوســـه الدينيـــة .

2) اي عيد المولد النبـــوي .

يفلت منها كل فرد يعيش فى بيئة ويتفاعل معها ، مع تفاوت بين الافراد راجع الى التكوين الفيزيلوجى والاستعدادات الفطرية والى عوامل أخرى .

أما نحن ، فنرى لا حسب هذه الحقائق وحدها بل حسب التجربة والدراسة، أن أدباءنا فى هذا العصر تأثروا الى حد بعيد بهذا الجو الذى كانوا يعيشون فيه ، كما عاش فيه أجدادهم وأسلافهم . فبحكم الوراثة وبحكم التكيف البيئى حصل ما حصل وانتقل اليهم من سمات مجتمعهم الشىء الكثير ، فكان ابن المرحل فى المقدمة ، وهو شاعر المغرب الشهير ، ومعاصر ملوك بنى مرين الاولين وشاهد قيام دولتهم وازدهار عهدهم ووقوع كثير من الاحداث فى ظلهم .

وهو من صميم البيئة المغربية كما رأينا فى ترجمته ، رغم الاختلاف الذى وقع فى تحديد مسقط رأسه ، ولعل القارىء لمس بنفسه عندما ترجمنا لمالك ابن المرحل ما خلفه هذا الاديب من آثار ، وما نوع هذه الآثار ، وفى ذلك دليل على مدى تجاوب روح ابن المرحل مع بيئته التى وقفنا على كثير من جوانبها فيما قبل ؛ ان جل ما تركه يعتبر صدى لهذه البيئة ، وأصدق تعبير عما يتردد فى نفسه من روحانية صافية ، وعواطف صادقة وأحاسيس فياضة ، واخلاص عميق لدينه ، لكتاب الله ولسنة رسولـه .

فلنستمع اليه وهو يمدح النبى فى وسيلته الكبرى(1)

الى المصطفى أهديت غـر ثنائـى	فيا أطيب أهدائى وحسن هدائـى
أيا عتقـــاء المصطفـى ان حقـه	عظيم فكونـوا أكــرم العتقـــاء
أما كنتم مــن قبلـه فى شقـاوة	فلولاه هل كنتـم مـن السعـداء
أترجـو فى يـوم القيامـة غيـره	اذا قيـل للنـاس من شفعـاء
أيا ديك يا خير الورى عمت الورى	فجزاك رب النـاس خـير جـزاء
براهين تخفى الشمس عند طلوعها	كما خفيت فى الشمس سيار الشهب
بعثت الى المختار مـن آل هاشم	حلى مدح أرجوبهـا رحمة الـرب
بواسم عن زهر المعانى وزهرها	هى النور فى الافلاك والنور فى القطب
بردت بها قلوبـا تفـور ضلوعـه	وعززتها بالدمع سكبا على سكـب
بدارا الى تخفيـف ذنـب حملتـه	لعل الاهى أن يخفف مـن ذنـب

1) مخطوط الخزانة العامة بالرباط 89 ص 47

بمدحه له استشفعت ثم بمحبتي أمالي في مدحه شفيع وفي حب
بلى ان في مدح النبي وسيلة وفي حبه أخرى فحسبي هما حسبي

تذكرت ميلاد النبي محمد فأمللته لابل دموعي أملت
تناسى فؤادي كل حب بحبه كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة
تمنيت في تلك المعالم خطوة تسكن قلبا لي وتبرد غلات

وهكذا يستمر في مدح النبي عاشقا رؤيته ، متمنيا زيارة قبره معددا أوصافه وأخلاقه وفضله على البرية ، الى آخر بيت من وسيلته ثم يستأنف في قصيدة أخرى حنينه الى قبر الرسول (ص) شاكيا ، باكيا ، متفانيا في حبه من ذلك :

أمالي الى قبر النبي مبلغ سلاما فلقد أفنى الزمان ذمائي
أمانة مشتاق حمى الدمع جفنه فما طاف طيف النوم خوف حمائي
أماني كانت لي زيارة قبر وأرضي روض يانع وسمائي
آمال قناتي بعد حسن اعتدالها زمان أراني النقص بعد نمائي
أمات قوى الاعضاء الا أقلها وأعطش روضي حين أنصب مائي
أمام جميع المرسلين محمد وأكرم بعوث في الكرماء (1)

لم يكتف ابن المرحل بهذا الحنين وبهذا التلوع ، والتحرق ، بل استرسل في التنفيس عن نفسه والتعبير عما يجيش في صدره ، اطفاء لظمئه واشفاء لغليله ، عله يرتاح وتنفجر آزمته ويبرد قلبه . ولنأخذ فكرة كافية عن حالته النفسية واتجاهه في الحياة ، يجدر بنا أن نردد هنا أبياتا أخرى في مثال النعال النبوية لا تقل صدقا وحسرة وبكاء عن سابقتها .

أحب رسول الله حبا لو أنه تقسمه قومي كفتهم قسائمه
كأن فؤادي كما مر ذكره في الورق جفاف أصيبت قوادمه
أهيم اذا هبت نواسم أرضه ومن لفؤادي انتهت نواسمه
وما دعاني والد واعي كثيرة الا الشوق ان الشوق هم اكتامه
ومثال لنعلي من أحب حويته وهأنا في يومي وليلي لاثمه
أجر على رأسي ووجهي أديمة والثمه ظهورا وطورا ألازمه
صبابة مشتاق ولوعة هائم نعم أنا مشتاق الفؤاد وهائمه
أصك به خدي واحسب وقعه على وجنتي خطوا هناك يلازمه
ومن لي بوضع النعل من حر وجنتي لما شرعت فوق النجوم وبراجمه
تفيض دموعي كلما لاح نوره يكابد ذا البرق الذى أنت شائمه
فيا دمع عيني أنت دمع ناظري معيما به فارفق فانك ظالمه
ويا حر قلبي أنت تحرم باطني لصوقا به فاسكن لعلك راحمه
سأجعله فوق الترائب عودة لقلبي لعل القلب غير جاحمه

1) ن. م. ورقة . 49

وفى الابيات الآتية سنقف على مظهر آخر من مظاهر هذا السلوك الروحى الذى يتجلى لنابصفة واضحة فى عواطف ابن المرحل ، وفى اتجاهه وموقفه من الحياة الدنيا . لقد أصبح زاهدا فيها ، راغبا عنها ، موليا وجهه الى الآخرة ، لينعم بخلودها وبرؤية المصطفى فيها ، وذلك تحول طبيعى فى السلوك الروحى ومرحلة من مراحل تطوره اذ الزهد والتصوف نتيجتان لحياة روحية تبدأ بالعبادة والتقوى وسائر الواجبات الدينية ، ثم تنتهى بالتفانى والتطرف والاعراض نهائيا عن الدنيا والاقبال كليا على ما له صلة بالآخرة . وابن المرحل يمثل هذا التطور اذا استعرضنا له أبياتا أخرى من قصيدة نظمها فى الزهد :(1)

بأى لسان أم بأى طبيب	يداوى عذار من بياض مشيب
بياض كما لاحت لنا كواكب سحره	تريك طلوعا مؤذنا بغروب
بشيرا نذيرا بمدح كالفجر صادقا	على كاذب حلو اللسان حلوب
بنى ابك لى أن البكا يبعث البكا	وليس جوابى منك غير وجيب
بحارا ركبناها بغير سفائن	غرورا فان نهلك فغير عجيب
بكى صاحبى حتى اذا مال فى الثرى	وسالت مآقيه كمثل غروب
بحقك لا تبرح اطارحك لوعتى	على نغم من انة وجيب
بنى الدهر أما الدهر فهو عدوكم	وان لاح يوما فى ثياب حبيب
بوارقه لارى فيها لعاطش	ولا خصب فى الوائه لجديد
بلاكم وأبلاكم تقلب صرفه	فيا ويحكما من أنفس وقلوب
بعيد عن التنفيق من بات ساهرا	رجاء بعيد لا مخاف قريب
بخيل لعمرى من دعاه حبيبه	هلم الينا وهو غير مجيب

وهكذا يسترسل ابن المرحل فى وصف الدهر ووصف خديعته وتضليله للمومن مذكرا بتفاهة الحياة الدنيا ، بسرعة زوالها وسفاسف معطياتها ، مترجما انعدامه لما تنطوى عليه من دنس واطماع ولما تجره على صاحبها من انخداع وغرور يهوى بهما الى الدرك الاسفل وبئس المصير ، مصير من ضحى بآخرته لاجل دنياه .

ولقد تعمدنا نقل هذه الابيات كلها من مصادرها رغم ما يكون فى ذلك من طول وملل ، اذ أن غايتنا هى اعطاء فكرة كافية للقارىء عن هذا الاتجاه الروحى الذى طبع الشعر المغربى فى هذا العصر وخير ممثل له كما نعلم هو مالك بن المرحل ، ولعل القارىء لمس معنا فى هذه الابيات التى أوردناها صدق الاحساس ، وصفاء النية وأصالة التعبير وشدة الاخلاص والايمان بالقول ، لا رياء ولا تزلف ولا نفاق فى ذلك

1) العشريات الزهدية .

كما اعتدناه في أغراض أخرى من الشعر اذ ليس هناك ما يبعث على التزييف والافتعال والانتحال . انها التلقائية التي تكشف عن واقع نفسي استطاع النفوذ الى عالم «الانا الاجتماعي» ، كما يقول علماء النفس التحليلي ، لانه يحرر من الضغط والاكراه وعوامل التأثير والايحاء الموقت فوجد في شعر ابن المرحل معبرا أمينا ومترجما صادقا ؛ انها البيئة كذلك التي يتردد صداها في هذا الشعر المنبعث من الاعماق ، واذا كان ابن المرحل قد نظم في هذا الشعر القصائد الطوال ، واذا كان نظمه هذا يساير مراحل حياته فانه كان ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، ممن يمثل البيئة المغربية في هذا العصر أوسع تمثيل نظرا للتجاوب الكامل الذي تحقق بين الطرفين .

وليس ابن المرحل سوى واحد من هؤلاء الادباء الذين انجبتهم البيئة المغربية في عصر بني مرين والذين مثلوها أصدق تمثيل بالشعر أو بالنثر أو بهما معا . لقد كانوا كما رأينا في تراجمهم متشبعين بروح اسلامية متينة وبعقيدة روحية راسخة ، لم يصدر عنهم ما يخل بهذه الروح الثابتة ، لا افحاش في القول ولا انحراف في السلوك ، ولا استهزاء بالقيم الاخلاقية ، ولا عبث بالمثل الاجتماعية كما هو الشأن عند كثير من الشعراء والكتاب الذين عرفتهم مجتمعات أخرى أو المغرب نفسه في زمن آخر . لا حاجة بنا اذن الى الاطالة والتكرار الممل ما دمنا أتينا بنموذج يصح أن يقال عنه انه أصدق نموذج ، يكفي أن نشير الى أن عبد العزيز الملزوزي — صاحب نظم السلوك — لم يفته في أرجوزته أن قدم لها بتوطئة حمد الله فيها وأثنى عليه ومدح نبيه (صلعم) كما مدح رسلا آخرين ، مما يدل على ايمان راسخ وعقيدة ثابتة رغم كون الارجوزة نظمت لغاية معينة وهي مدح بني مرين

وكذلك فعل العبدري في رحلته المغربية التي ضمنها كثيرا من الابيات والقصائد ، انه كثيرا ما يتوسل بشعره أو بنثره ويدعو ربه ويصلي على النبي ويطلب منه الشفاعة في كل لحظة وحين للتكفير عن ذنوبه وفي الابيات التالية ما ينم عن هذه الروح التي لمسناها في شعر العبدري(1) :

تغربت عن أهلي اليك ومالي	واعرضت عن قيل عداك وقال
تماثل في دنياي اذ أنت مطلبي	محب له شوق الى وقال
سموت على قصد اليك بهمة	ترى عيش كسرى مثل عين دلال
ولاحت لي الدنيا فابصرت عمرها	ولو زيد اضعافا كحل عقال
وما عيشها الا كظل غمامة	وما ملكها الا كطيف خيال
اهيم بدنيا ما تساوي قلامة	وأخضع مرتادا النيل نوال
أبى ذلك لي قصد الى الله صاعدا	وعلم سما بي فيه نحو كمال

وكذلك كان الشأن بالنسبة لابن رشيد ولابن بطوطة في رحلتهما يكفي القارىء أن يتصفحهما ليقف على هذه الظاهرة التي كثيرا ما تتجلى معالمها وآثارها

1) الرحلة المغربية نشر كلية الاداب الجزائرية تحقيق ابن جدو بدون تاريخ صفحة ، 21

فی هذا الانتاج بصفة تلقائية (لا لبس فيها ولا غموض) الا أن القمة لم تظهر الا فی زمن الشيخ احمد زروق (846 ـ 899) حيث عمت موجات روحانية سائر الطبقات والاوساط المثقفة ، وأصبح أفراد المجتمع المغربی يعيشون فی جو من الروحانية النافذة الى الاعماق المتمكنة فی النفوس والمتحكمة فی السلوك ، ويعتبر الشيخ أحمد زروق خير ممثل لهذه الفترة وأصدق معبر عنها ، نظرا للتجاوب العميق الذی وجدت فی نفسه ، وبذلك كللت الجهود ووصل التطور فی هذا السلوك مرحلة تكاد تكون نهائية . وفی هذا الميدان ترك لنا الشيخ زروق ، كما أسلفنا ، تراثا فكريا ضخما يعتبر كله صدى عميقا لهذا الجو وتعبيرا أمينا عن هذا الشعور الذی كان يختلج فی النفوس ، يمكننا القول ان جل ما كتبه زروق كان يدور حول الزهد والتصوف وهو دراسة علمية فی جملتها أراد فيها مؤلفهاقامة التوازن بين الفقه والتصوف كی لا يطغى جانب على جانب آخر لما رأى فی النفوس من جموح واندفاع وانسياق وراء معتقدات وأنواع من السلوك لا تخلو من ضعف وشعوذة وتدجيل .

نتائج هذا الاتجاه الروحی بالنسبة لاغراض الشعر المغربی

ليس من الصعب على الباحث ، فی أغراض الشعر المغربی ، أن يقف على الابواب التی طرقها شعراء هذا العصر وعلى مدى قوتها وضعفها . ان التيار الروحی الذی سيطر على البيئة المغربية وتمكن من نفوس أفرادها بجميع طبقاتهم يجعل القارىء ، نظرا لما سبق ، يتنبأ أو يتكهن بنتائج حتمية ناتجة عن السلوك العام الذی تميز به هؤلاء الافراد عن أدباء غيرهم ؛ لقد تعودنا أن نرى فی بيآت أخرى (فی المشرق أو فی المغرب) من الاغراض الادبية الزاهرة ، الخمريات والغزليات والمجونيات وأنواعا أخرى لا تقل تهتكا وخلاعة وفحشاء ينطق فيها أصحابها بكل حرية ، بل بكل وقاحة . يطلقون فيها العنان لخيالهم السابح فی اجواء بعيدة ، ولعاطفتهم الجامحة التی قليلا ما تقيم وزنا للقيم الاجتماعية والاوضاع المتعارفة والمعهودة . ان هذا النوع من الشعر الذی تعودنا وجوده فی مجتمعات أخرى يكاد لا يجد مكانا فی البيئة المغربية فی عهد بنی مرين ، ذلك أن الاحوال الاجتماعية التی كان يعيش فيها المغاربة مهما اختلفت حيثياتهم ومهما كانت طبقاتهم كانت تشكل عوامل رئيسية وظواهر خاصة تقف حجر عثرة فی وجه الانحلال الخلقی وتحول دون الانسياق وراء العواطف الجامحة المريضة ، وتعرقل التعبير بصراحة عن الاحاسيس الفردية الخاصة وعما يختلج فی النفوس من انفعالات حسية أو وجدانية لها مساس كبير بالواقع النفسی للشاعر ، الذی لا يستطيع التنفيس عن نفسه بواسطة الشعر خوفا من سخط الرأی العام ومسايرة القيم الاجتماعية والخلقية والمثل العليا ، التی تشكل المعطيات الاجتماعية السائدة أو الطاغية حسب اصطلاح علماء الاجتماع ، ولكن ليس معنى هذا أن شعراء هذا العصر

كانوا دون غيرهم احساسا وتذوقا للفن ومظاهر الجمال فى الطبيعة وفى الانسان ، كلا ؛ لم يكونوا أقل من غيرهم اعجابا بمنظر جميل أو تأثرا بوجه حسناء فاتن يسرى مفعوله فى النفس ويولد فيها عواطف حب وشغف ، وكلف يجعل الشاعر يهيم بمحبوبته ويتوق اليها فى تحرق وتلوع ، يدفعانه الى التعبير عن ذلك شعرا أو نثرا أو بكاء أو سلوكا من نوع آخر . نعم قد يختلف الافراد كما نعلم فى درجة الحساسية ، وردود الفعل والتأثر ويتفاوتون فى سرعة التعبير ودقة الفهم والملاحظة وقوة الخيال كما يختلفون بدنيا وسلوكيا ، ذلك من الحقائق النفسية المسلم بها علميا وتجريبيا ، الا أن شعراءنا كان يجمعهم سلوك عام ، طابعه الحشمة والرزانة والعفة والوقار ، نتيجة للعوامل التى وقفنا على أكثرها فى الفصول السابقة نعم قد يكون واقعهم النفسى أو واقع بعضهم يناقض هذا السلوك المجتمعى الذى عرفوا به وتميزوا به عن غيرهم فى بيئتهم ، من الممكن أن يكونوا من ذوى العواطف المريضة والسلوك الجامح الذى لا يقيم للاخلاق وزنا ولا يعرف للمعايير الوضعية قيمة ؛ من الممكن أن يكونوا خلعاء فساقا ، متهتكين ماجنين ، اباحيين شاذين ، ذلك كله ممكن ، الا أن ما سجل عنهم أو سجلوه عن أنفسهم بواسطة شعرهم أو نوع آخر من سلوكهم ، يجعل الباحث ينفى عنهم هذه الاوصاف ويدرجهم تحت لواء مجتمعهم الذى كان رزينا ومحافظا مثلهم . اننا لا نجهل أن الفرد قد يدافع عن أفكار لا يومن بها واعتقادات ما أشد بغضه اليها ، ويسلك سلوكا مجتمعيا يخالف تمام المخالفة ما يريد أن يسلكه ، فيظهر بشخصية قوية تنال رضى الناس واعجابهم واستحسانهم لانها تساير الذوق العام والنماذج الاخلاقية والمثل العليا التى تسود المجتمع . وتلك هى الخديعة التى كثيرا ما يقع فيها مؤرخو الآداب الذين يكتفون بقراءة شعر لاديب ما فيحكمون على أخلاقه أو مميزاته النفسية أو مدى انسجامه مع مجتمعه بواسطة هذا الشعر ؟؟ ان الشاعر كثيرا ما يكون فى صراع بين الانا النفسى ، الوراثى والوجدانى والانا الاجتماعى المتكيف بالتقاليد والقوانين الوضعية التى تفرض عليه سلوكا ما أبغضه اليه وما أكثر معارضته لميوله ونزعاته وذوقه ، ولكنه يستجيب اليه حبا فى الرضا وطمعا فى الرئاسة أو الجاه أو أغراض أخرى . ان التحليل النفسى لمن العلوم التى تساعد الباحث الادبى فى مهمته ، فى معرفة نفسية الشاعر وما يحركها من عوامل متكاملة أو متناقضة أو متصارعة . ليس من اليسير أن نحكم على شاعر ما بالعقم أو بجمود العواطف أو بالجموح أو بالانقباض أو بالانفعال أو بغير ذلك من خصائص النفس البشرية . ان الشعر كمادة أو انتاج هو عصارة لمنتج ولا يمكن أن يعرف انتاج معرفة واقعية وموضوعية الا اذا عرف المنتج وألم بجوانبه والظروف والملابسات المحيطة به ، والا فالنتيجة تكون سلبية أو عكسية أو مشوهة أو محرفة . لذلك عمدنا ، عندما عرضنا لترجمة كل من مشاهير هذا العصر الذين أدرجناهم فى فصل سابق ، الى القيام بهذه العملية التحليلية كى نعرف القارىء ، جهد المستطاع ، بالاديب الذى نريد أن نتحدث له عن انتاجه وعن نوع اتجاهه فى هذا الانتاج ، اجتنابا للسرعة وتحريا للموضوعية والدقة فى البحث الذى نحن بصدده .

بعد هذا نعود فنقرر أن شعراءنا رغم ذلك التحفظ الذى أبديناه فى معرض هذا الحديث قالوا شعرا فى الشوق وفي الحب وفي الغزل وفى غير ذلك من الاغراض التقليدية المعهودة فى كل بلاد من بلدان العالم العربى . ولكى ياخذ القارىء فكرة بنفسه عن هذا الانتاج ويعرف هويته ومقدار رزانته أو انحطاطه نسوق له أمثلة من انتاج بعض شعراء هذا العصر الذين راعينا فى اختيارهم صفتهم التمثيلية للبيئة المغربية .

ففى الغزل والحب يقول ابن المرحل مثلا :

تملكتم عقلي وطرفي ومسمعـي	وروحي واحشائي وكلي بأجمعـي
تيهتمونـي في بديـع جـوالكـم	فلم أدرى فى بحر الهوى أين موضعي
وأوصيتمونـي لا أبـوح بسركـم	فباح بمـا أخفـي تفيض أدمعـي
فلما فنى صبـري وقـل تجلـدي	وفارقنى نومى وحرمـت مضجعـي
شكيت لقاضي الحب قل احبـتي	جفونى وقالوا أنت في الحب مدعى
وعندى شهود فى الصبابة والاسى	يزكون دعـواى اذا كـنت أدعـى
سهادي وشوقي واكتآبي ولوعتي	ووحدى وسقمى واصفرارى وأدمعى(I)

هل فى هذه الابيات ما يمس بالاخلاق أو ما يخل بالقيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع المغربى ؟ هل فيها من حيث اللفظ أو من حيث المعنى ما يذكرنا بشعر جميل بثينة أو عمر ابن أبى ربيعة أو بغيرهما من شعراء البيئة المشرقية أو المجتمع الاندلسى الذى حفل بكثير من الشعراء الذين تغزلوا فكانوا فى غزلهم أقـرب الى الخلاعة منهم الى العفاف والحشمة انه شعر عبر فيه صاحبه بكل بساطة وصراحـة عن ما يتركه الشوق من أثر ، لاسيما فى الجسم الذى يصبح سقيما ، عليلا أصفر اللون، سريع الانفعال . ان الشاعر وصف لنا جسمه قبل كل شيء وحالته النفسية بدون ما تحليل أو سبر لاغوارها ، فكان وصفه ماديا سطحيا واقعيا أكثر منه نفسيا ووجدانيا. ونحن لا نستغرب من ابن المرحل كونه يقف عند هذا المستوى ولا نريد أن نتعرض هنا للعوامل التى جعلته يقف عند هذا الحد ولا يتجاوزه الى أفكار ومعانى يأتى بهافى تحليل عميق ودراسة للحب واثره فى الفرد ، وانما الذى يهمنا أن نسجله هنا هو أنه لم ينحط ولم يسفل ولم يتعرض فى شعره لظاهرة جسمية أو نفسية تمس بالاخلاق أو بمبادىء التربية الاسلامية التى تشبع بها كما تشبع بها أبناء وطنه . قد يقول قائل : ان ابن المرحل نظم أبياتا أخرى غير هذه وفى موضوع الحب كذلك ، وفى هذه الابيات قد يكون أكثر انطلاقا وحرية وأقل ترزنا ، نحن لا ننكر ان ابن المرحل نظم فى نفس الغرض شعرا لا نتجاهل ما فيه من تعبير أعمق وأدق ، ولكننا نستبعد أن يكون قصد به ما يقصده غيره من شعراء المجون والخلاعة . وأحسن وسيلة بل

1) راجع القصيدة كلها فى النبوغ المغربى ج 3 ص 725

وأقوى حجة تساعد على الحكم هي عرض المادة على انظار الحاكم ، فها هو ابن المرحل يتغزل مرة أخرى :

يـا عـاذلي اليـك عنـي	لا يقرب ساحتي العـواذل
ذا نـازل كمثـل ظبـي	يشقى بلحظـة المنـازل
ما بين جفونـه حـسام	مخارقـه لـه حمائـل
والسيف يبت ثم ينبـو	واللحظ يطبق المفاصـل
والسهم يصيب ثـم يخطـي	واللحظ يمر في المقاتل
مهـلا فـدمـي لـه حـلال	ما أقبل فيه قول قائل
ان أقصدني فذاك قصـدي	أو جدلنـي فـلا أجـادل
والفتـح محـرك اليـه	مـن طاف مسكن البلابـل
والسحر رسول مقلتيـه	مـا أقـرب عهـده ببابـل
والليـل يهـز معطفيـه	كالغصن تهزه الشمائـل
كأس تلـوح في يديـه	كالنجم بأسعد المنـازل
يسقيك بريقه مدامـا	مـا أملح ساقيا مواصل
يسبيك برقـة الحـواسي	عشقا ولطافـة الشمائـل

يتضح من هذه الابيات التي أوردناها لمالك ابن المرحل في الحب والغزل أن الشاعر بذل مجهودا أكبر بالنسبة للقصيدة الاخرى كي يعبر عن جمال مرئياته تعبيرا أدق وأكثر تحليلا واحتفالا بالجزئيات . ويتعلق الامر هنا كذلك بأوصاف حسية في غالب الاحيان ، تتناول الجسم وأعضاءه وملامح الوجه ، ولون الخد ، وفتنة الطرف ، كما يشتمل على تشبيهات مستمدة من النبات من الورد والزهر والرائحة التي تفوح منهما . وهي تشبيهات مالوفة ، معروفة وردت في شعر كثير من الادباء والكتاب سواء في المشرق أو في المغرب بشيء من التفصيل والتدقيق والتحليل العميق والعناية بالجزئيات وخبايا المرئيات والمسموعات والملموسات ، فعلى القارىء الذي يريد أن يتحقق من ذلك وان يتوسع فيه أن يرجع الى انتاج شعراء وكتاب القرن الرابع والخامس(هـ) والى آثار البيئة الاندلسية في ميدان الادب (ابن حزم ، ابن العميد، بديع الزمان ، أبو بكر الخوارزمي ، وغيرهم) .

وعلى كل فلا نرى في هذا الشعر لا خلاعة ولا مجونا ولا هتكا للاعراض ولا افحاشا في القول من حيث الشكل أو من حيث المضمون . قد يعارض هذا الرأي قائل : «ان ابن المرحل يتغزل بمذكر وذلك نوع من الافحاش والحب الشاذ» . نعم ان مالك يخاطب في هذا البيت المذكر ، ولكن ليس معنى هذا أن الامر يتعلق بغزل شاذ أو بانحراف خلقي ، كل ما هنالك أن الكتاب والشعراء قد ألفوا مخاطبة المؤنث بضمير المذكر ، وكأن ضمير المذكر أخف وأسهل وأنسب للجرس الموسيقي ، واصبحت العادة جارية وأصبح الناس يظنون ذلك نوعا من الشذوذ في السلوك الاخلاقي مع أن الامر لا يعدو ان يكون بدعة لفظية أثرت في المشارقة كما أثرت في المغاربة

عن طريق الايحاء والتقليد المقصود .

وفى هذا الاتجاه صار شعراء هذا العصر الذين قل منهم من خرج عنه وهوى بأخلاقه وبعواطفه الى درجة العبث والفحشاء . وحتى أمراء وملوك بنى مرين الذين نظموا فى الغزل التزموا الرزانة والعفة كسائر الشعراء الآخرين فلنستمع الى أحد منهم وهو أبو العباس احمد ابن أبى سالم(1) المرينى :

أما الهوى يا صاحبى فألفته	وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها	فتخذته دينا الى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة	كان الوفاء لها طرازا مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا	لا مرحبا يتفرق لا مرحبا

وللقارىء أن يقارن بين هذا الشعر المغربى وبين ما قاله فى نفس الغرض شاعر أندلسى مشهور ، الوزير ابن الحكيم ، ليدرك الفرق بين الاتجاهين .

يتغزل ابن الحكيم قائلا(2) :

هل الى رد عشيات الوصال	سبب أم ذاك ضرب من المحال
وليل ما تبقى بعدها	غير أشواق الى تلك الليال
وغزال قد بدالى وجهه	فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه	لم يكن الا على خصل اعتدال

وله أبيات أخرى منها :

ألا واصل واصلة العقار	ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك فى غزال	يحق لمثله خلع العذار
قضيت مائس من فوق شعف	تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام	فصار معرفا بين الدرار

لم نجهد أنفسنا فى اختيار هذه الابيات لعقد المقارنة بين شعر مغربى وشعر اندلسى ، وانما (عندما تصفحنا آثار الاندلسيين فى الشعر) وجدنا بصفة تكاد تكون عفوية هذه الابيات التى لا يجب أن تعتبر نموذجا للغزل الاندلسى ، اذ هناك أشد منها صراحة وواقعية بل فحشاء وخلاعة . ولقد سقناها لاعطاء فكرة موجزة عن مدى الاختلاف بين الاتجاهين المغربى والاندلسى فى هذا النوع من الشعر . ولو لا خوفنا من الخروج عن حدود الموضوع التى التزمنا باتباعها لأتينا هنا بنماذج كثيرة ومتنوعة من الشعر المشرقى أو الاندلسى . وكفى بذلك دليلا على ما اتسم به الشعر المغربى فى عهد بنى مرين من عفة ورزانة حتى فى الاغراض التى هى أقرب الى الوجدان

1) راجع عبد الله كنون ، النبوغ المغربى ج 3 ، 738 .
2) راجع ابن الخطيب ، الاحاطة ج 1 ، 73

وميدان الانفعالات والضعف التى يجد فيها الشاعر نفسه ، ولو بحكم التقليد ، مضطرا الى التعبير عما يجيش فى صدره من لوعة وهيام وكلف بمحبوبته ؛ لا يستطيع الاحجام عن ذلك الا بجهد جهيد وقهر للنفس وكبت وحرمان قد يخل باتزان شخصيته ويولد فيه عقدا نفسية لها ما لها من الاثر فى سلوكه العقلى والوجدانى والعملى ، فالفرق اذن واضح ، وهو راجع ، كما رأينا فى موضعه ، الى الفرق بين البيئتين ، بيئة محافظة ، شديدة التمسك بتقاليدها الرزينة التى تكاد تشكل نوعا من التزمت والانقباض ، وبيئة أخرى عرفت بالانبساط والاقبال على الحياة والتمتع بملذاتها ونعيمها بما فى ذلك من رقص وغناء وشرب خمر وعقد مجالس للهو واللعب والاستلذاذ بكل الشهوات التى توفرها البيئة المادية والاجتماعية ، لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء . وفى ذلك يقول عبد الله عنان : «وقد كانت الامة الاندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل وتحب الحياة الناعمة المترفة وتجنح الى المرح والطرب»(1) وفى ذلك يقول ابن الخطيب(2) أيضا وهو واصف لتلك البيئة التى كان يعيش فيها : «وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور وطيب النشر وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التفنن فى الزينة فى هذا العهد والمظاهرة بالمصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات والتماجن فى أشكال الحلى الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها ويكفكف الخطب ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة» .

هذا كلام ابن الخطيب وهو معاصر لهذه البيئة وشاهد عيان وفى وصفه لها ما يجعل القارىء يستغنى عن حجج أخرى تثبت مدى الفرق بينها وبين المجتمع المغربى الذى عرفنا عن أخلاقه وعادات أهله ما يؤكد هذا الفرق وما يجسم هذه العوامل المختلفة التى كانت وراء ظهور انتاجين أدبيين اتفقا فى الغرض واختلفا فى الاسلوب والمنهج .

ولعل القارىء لمس معنا ونحن نستعرض هذه الابيات الشعرية من المغرب ومن الاندلس أن الاوصاف لا تكاد تختلف فى جوهرها عن ما عهدناه فى البيئات الاخرى حيث اقتصر التشبيه غالبا على المرئيات والمسموعات والملموسات وحيث انتزعت أوجه الشبه من الطبيعة ومظاهرها المختلفة . مثال ذلك (3) «شاذن يضحك عن الاقحوان ويتنفس عن الريحان ، أعلاها كالغصن ميال» ومطلع الشمس من وجهها» وملتقط الورد من خدها ومعرض الغصن من قدها «اختلسا قامة الغصن» ماء الجمال يترقرق فى خده» .

هذه أوصاف كثر ايرادها فى شعر ونثر كتاب القرن الرابع كما ذكر زكى مبارك ، وهى التى جاءت كما رأينا فى كثير من الشعر المغربى والاندلسى فى نفس

---

1) نهاية الاندلس ، 248 (الطبعة الثانية) .
2) ابن الخطيب ، الاحاطة ج 1 ص 17
3) زكى مبارك ، النثر الفنى فى القرن الرابع صفحة 95 .

الموضوع ، لكن مع شيء من الاختلاف ، فالتأثر هنا واضح ولا نكلف أنفسنا عناء البحث عن أمثلة أخرى ترمى الى نفس الهدف .

في المدح :

وفى المدح ايضا نجد الشاعر المغربى يتصف بنفس الصفة ويلتزم نفس الخطة ، وتسيطر على مشاعره وكلامه الروح الدينية التى توجهه توجيها وتوحى اليه بمعانى مدحه وأوصاف ممدوحه . ونتخذ هنا من شعر ابن المرحل نموذجا للاستدلال وللتأكد مما نذهب اليه فى هذا الموضوع . فبمناسبة فتح مراكش وجه شاعرنا الى أبى مالك يوسف قصيدة يهنئه فيها مادحا اياديه البيضاء وفضله على الاسلام والمسلمين ومما جاء فى هذه القصيدة على سبيل المثال :

أضحت له جنة الرضوان قد فتحت ... أبوابها وفؤاد الدين قد نعما
الحمد لله هذا ما وعدت به ... يا خير من ولى الدنيا ومن حكما
لن يخلف الله وعدا كان واعده ... فاشكر يضاعف لك الحظ الذى قسما
بفتح مراكش عم السرور فما ... يكابد الغم الا قلب من ظلما
حبا بها الله مولانا الامير كما ... حبا اباه فأسنى فتحها لهما
فدولة الدين والدنيا قد اختلفت ... فى الفتح والنصر والتأييد بينهما
من سنة الله أن يحيى خليقته ... على يديك وان يكفيها النقما
وان يقيم بك الاسلام من أود ... وأن يديم بك الاحسان والنعما
لله منك مليك لا نظير له ... لولاك لكان وجود الدين قد عدما
ومن يتخيره للدين خالقه ... أعطاه نورا يحكى الظلم والظلما(1)

فى هذه الابيات التى يمدح بها ابن المرحل أميره يجد القارىء ذكر الله فى كل بيت تقريبا ثم ذكر الاسلام . ان النصر الذى حققه أبو يوسف هو فى الواقع نصر للاسلام وللمسلمين واحياء لدينهم الذى «لولاه» لعدم . ان هذه المعانى التى أتى بها فى مدحه تكاد كلها تدور حول معطاة روحية خالصة فلا أثر فيها تقريبا للمادة ولقوتها ولا للجاه ولا للرئاسة وأبهة الحكم ورفاهيته ونعيم نتائجه المادية . ان الفتح وسيلة فقط لا غاية ، هى اقامة الاسلام للفوز بالثواب فى الآخرة . واذا تركنا ابن المرحل والقينا نظرة على شعر عبد العزيز الملزوزى فى نفس الغرض ، نجده هو الآخر فى مدحه للسلطان يعقوب لا يكاد يخرج عن نفس الاطار . فلنستمع اليه اذن وهو يخاطب ممدوحه :

أرى كل جبار بسيفك يصغر ... وكل مليك عن فعالك يقصر
تنام عيون الناس طرا وأنت فى ... صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
بعثت الى يغمور بالصلح معلما ... وقلت عساه بالبصيرة ينظر

1) راجع القصيدة كلها فى الذخيرة السنية ص. 98

فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة — فيا عجبا من خاسر كيف يخسر
أردت بأن تهديه للرشد والهدا — وكيف يرى رشدا شقي مغير
فانك لا تهدي من أحببت للهدا — أتدفع عنه ما عليه مقدر(1)

ومن قوله أيضا في أرجوزته :

سيرة يعقوب ابن عبد الحق — قد حاز فيها قصبات السبق
سيرته أن يقرأ الكتابا — ويذكر العلوم والآدابا
يقوم للكتاب ثلث الليل — وما له عن ورده من ميل
حتى اذا ما أصبح لاح وارتفع — قام وصلى للالاه وركع
وضج بالتسبيح والتقديس — حتى يتم الحزب في التغليس
يعقد للكتب الى وقت الضحا — ثم يصليها كفعل الصلحا(2)

ان في هذه الابيات ، سواء منها ما يتعلق بالارجوزة أو بغيرها ، ما يكفي للدلالة على ما كان يدور في خلد صاحبنا من معاني المدح وأوصاف الممدوح ، وسواء كان صادقا في مدحه أو متكلفا فانما جرى على لسان غيره من أوصاف يتعلق كلها بالدين وبالعمل من أجل الاسلام والآخرة انتقل اليه عن طريق الايحاء والتأثير في هذا الميدان .

ومن يطلع على أرجوزته يجد فيها من بدايتها الى نهايتها هذا الطابع الذي تميز به الشعر المغربي في هذا العصر سواء في المدح أو في الغزل أو في غيرهما من أغراض أخرى . وكذلك كان العبدري في رحلته(3) حيث يقول مادحا السلطان أبا يعقوب :

فمن مبلغ علياه من نظمي — رسالة مستعد شكى ظلمة الظلم
ضعيف القوى أودت بانضاء جسمه — فيافي برت أهوالها مصمت العظم
الا لا تطل شكوى فلست بمشتك — الى ملك البرين واسكت على رغم
فذاك الذي أفنى الطغاة بسيفه — فلم يبق منهم من يشير الى ظلم
طغى الكفر حتى صده بجيوشه — كما صد ذو القرنين ياجوج بالردم
الى الملك السامي صعودا على الورى — وليثهم في الحرب والغيث في السلم
الى يوسف سيف الاله الذي أتى — لحسم العدا ان الحسام من الحسم

وهكذا يسترسل العبدري في قصيدته مستوحيا أوصاف ممدوحه ومعاني مدحه من شخصية اسلامية نموذجية ، غايتها القضاء على الظلم والدفاع عن الاسلام

---

1) نظمت هذه القصيدة سنة 669 ، انظر الذخيرة السنية ص 108
2) نظم السلوك ص، 77–79
3) انظر الرحلة المغربية للمؤلف نفسه ص 3 ، 4 ، 5 .

ومحو الطغيان مهما كان مصدره . وتلك هى تعاليم الشريعة الاسلامية التى تأمر الخليفة باتباع الحق وانصاف المظلوم اذ «العدل أساس الملك» . فالعبدرى هنا خلافا لما جرت عليه العادة عند شعراء آخرين فى مجتمعات أخرى معاصرة لم يحفل بأبهة الملك ولم ينحط فى مدحه قصد الحصول على فائدة مادية أو مالية ، وانما الدافع هو فى قرارة نفسه ، ايمانه القوى بالاسلام ، وشدة غضبه على من خالف أوامر الاسلام . انها العاطفة الصادقة التى تجدها هنا تنطلق للتعبير عن الواقع النفسى الذى كان يعيشه العبدرى فى ظروف عرف عنها القارىء فى غير هذا المكان ما عـرف مـن اضطرابات سياسية وأحداث اجتماعية كأن لها مفعولها القوى وأثرها المباشر فى سلوك الافراد والجماعات .

فى الهجـــاء

واذا تخطينا المدح الى الهجاء ، فاننا لن نصطدم بمظاهرة مخالفة او مناقضة لهذه الظاهرة الروحية التي وقفنا على بعض آثارها فيما سبق . قد نعثر على نقد لاذع وهجاء مر ، ولكننا لن نجد ما نهى الاسلام عنه من هتـــك للحرمات ونهش للاعراض وفحش فى القول وتشنيع وتقبيح للصور البشرية ، لن نجد ما عهدناه فى بعض البيئات حيث كثر السباب والحقد والظغينة التى تدفـــع بصاحبها الى المكر والخديعة والتعبير عن ذلك بكل صراحة وبكل واقعية لا تعرف معنى للحشمة والعفة والاخلاق الفضيلة بصفة عامة . ولذلك لم يجد هذا النوع من الشعر ميـدانا خصبا ينطلق فيه وينتعش، لان المقومات التى كان يعتمد عليها فى مجتمعات اخـرى فى انتعاشه وازدهاره لم تكن تساعده فى نموه ومعرفة طريقه ، بل كانت على العكس تعرقل سيره وتقاومه اذا حاول النهوض . لذلك خلا (او كـــاد) الادب المغربى من الهجاء فى هذا العصر ، او على الاصح لم يخلف الشعراء فى هذا الميدان الا انتاجا ضئيلا لا يستطيع الباحث ان يعرف منـه الا الشىء القليل ، وأغلـب الظـن أن السبب في قلته هو ، كما ذهبنا ، تلك القيود التى كان يفرضها المجتمع المغربى على أبنائه من رزانة واستقامة وتمسك بشعائر الاسلام ، اذ لم يكـن فى المغرب حينذاك صراع بين الاخلاق والادب كما راينا فى مجتمعات اخـــرى . حيث عمت الخلاعة وحيث اطلق الشعراء العنان لعواطفهم فاستباحوا كل رذيلة وكل هنـات وتتبعوا عورات الناس ، وصوروها ابشع تصوير واشنعه ، وقبحوا وجه الانسان وأعضاءه ، فاذا هو قرد أو حيوان مفترس أو خليقة وحشية ، مخيفة ، تأتى مـن الافعال والسلوك ما يندى له الجبين وما يصم الآذان عنـــد سمعه . لسنا هنا فى حاجة الى ذكر امثلة عن تلك البيئات التى انتشر فيها هذا النوع من الادب المكشوف

وعم الاوساط المثقفة وغير المثقفة رغم ما قام حوله من ضجات صاخبة يدافع اصحابها دائما عن مستوى الاخلاق ، في شيء من التفاؤل احيانا وفى كثير من اليأس والتشاؤم أحيانا أخرى . ان المصادر التاريخية حافلة بذلك النوع الادبى سواء كان ذلك مدحا او هجاء او غزلا . يكفي القارىء ان يرجع قليلا الى الوراء ليطلع مثلا على ما خلفه جرير والفرزدق والاخطل وغيرهم من تراث أدبى ضخم بقي مسجلا وتحمل صفحاته كثيرا من هذا الادب الذى لا يقيم وزنا للاخلاق ولا يعرف حدا للسباب والهجاء وتتبع الهنات والعورات وفضح الشهوات ، ويكفى القارىء كذلك مثالا ان يلقى نظرة على انتاج البيئة العربية فى بغداد او غيرها من البيئات الشرقية العربية ليقف بنفسه على مدى استخفاف كثير من ادباء القرن الرابع او غيره بالاخلاق العامة واستهتارهم بأعراض الناس وتتبع سوآتهم واحصائها بكل دقة ووقاحة وبكل سفالة وصراحة . فلا الاشارة تكفى ولا التورية تجدى ولا الكناية تنفعهم فى مقاصدهم الهجائية . ولعل من الموضوعية والانصاف ان ناتى ببعض الامثلة لشعرائنا كي نقف على مذهبهم فى هذا الغرض من الشعر ولكى ندرى ما كانوا يختلفون به عمن سواهم فيه .

من المعروف تاريخيا وادبيا ان ابن الخطيب حل بالمغرب فى فترات منقطعة وفى ظروف مختلفة أشرنا اليها سابقا ، ومن المعروف ايضا ان ابن الخطيب عند حلوله بالمغرب سفيرا او لاجئا اتصل بملوك بنى مرين وبخلفائهم وبوجهاء الدولة وكبار مثقفيها من فقهاء وادباء احتك بهم احتكاكا كان احيانا مبنيا على الصداقة والمودة وأحيانا اخرى كان سببا فى نشوب اصطدامات ومناوشات وخلافات سجلها التاريخ كما سجلها ابن الخطيب نفسه بما تركه من آثار في الموضوع الذى نحن بصدده . نذكر من تلك الصراعات ، على سبيل المثال والايجاز لا على سبيل الحصر ، ذلك الخلاف الذى وقع بينه وبين ابى العباس القباب . والموضوع يتلخص فى كون ابن الخطيب استدعى القباب لزيارته ، لكنه لم يستجب لهذه الزيارة لسبب عاقه عن القيام بها . فما كان من ابن الخطيب الا آن قام وقعد ورأى فى ذلك مسبة له واهانة لشخصيته الكبيرة وحطا من قيمته العظيمة ، فاعتبرها كبيرة وهي صغيرة وجعل منها كما يقال ، قبة وهى حبة ، فنهض وشمر عن ساعديه واستعد للانتقام وتسلح بسلاح الانفعال والانسياق وراء عواطف السخط والحقد والكراهية ، وقام بالمرصاد وتصدى له ولامثاله بالنقد بل بالشتم واللعن والقذف والطعن ، فنال منه ومن اعراضه كما نال من جميع المتهنين مهنته من الموثقين والعدول . ولم يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا ونسبها لهم ولا عيبا الا اختصهم به ، لا لذنب ارتكبوه أو لمخالفة قاموا بها ضد من ناصبهم العداء وحشرهم كلهم بدون تمييز ولا تفاوت فى طبقة سفلى من طبقات المجتمع الفاسى بل المغربى وانما لكونهم من نفس الطبقة التى ينتمى اليها من قامت ضده هذه الضجة الصاخبة وهذه الحملة العنيفة التى صبها ابن الخطيب فى قالب خاص وصاغها فى كتاب مستقل سماه « مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة » ورغم ما جاء في هذه الرسالة من

قذف وسباب نظم ابن الخطيب فضلا عن ذلك ابياتا تنم عن موقفه من ابن القباب وسخطه عليه والتعريض به والتشهير بمساوئه والى القارىء من هذه الابيات (1) :

وغير غريبة ان رق حـــر — على من حالـــه مثلي رقيقـــة
واما زاجر الـورع اقتضاهـــا — ويأبى ذاك دكـــان الوثيقـــة
وغشيـــان المنازل لاختبار — يطالب بالجليلـة والدقيقـة
الـخ ......

ادرك القباب ما لهذه الحادثة من اثر فى نفس ابـــن الخطيب فاعتذر لـه قائلا : (2)

وكأنما تكهن بسوء العاقبة .

رسولك لم يبين لى طريقـــه — تقرب من حديقتك الانيقـــة
فلا ماوى لدى ولا ابـاء — ولكن ساء فى الغرض الطريقـة
وهب انى أسات فكم صديـق — تدلل واعتدى فجفى صديقـــه
وانى فيـك معتقد ولكــــن — أرى الايام حاقـدة حنيفة
على ذى الود فى من ود حتى — يفارقـه وان اضحى رفيقـــه

هذا كل ما جاء فى رد القباب على ابن الخطيب وهو ، كما يرى ، جواب يلتمس فيه صاحبه العذر ولا يتعرض فيه لاى نوع مـــن الفحش والسوء ، كلام خال مـن التعريض والتشنيع والتقبيح ومع ذلك لم تهدأ ثورة ابن الخطيب ولم يهدأ وطيسه لانه لم يكفه ذلك التبرير وذلك الاستسماح لغروره وشدة اعتزازه بنفسه وقـــوة طغيانه وحدة مزاجه وسرعة انفعاله فاسترسل فى لومه بل فى هجائه المر قائلا :

من استغضب من هذه الخليقة — بمغضبه بانكار الخليقـــة
بعثت بمرسل لك مع عتيــق — فلم تطع الرسول ولا عتيقـــه
وثوقت السفير الذنب لمـــا — عجلت به ولم تبلغه ريقـــه
وقد عارضت عذرك باعتراف — فزدت مذمة تسم الطريقه
وهل بعد اعتراف من نـــزاع — وهل بعد انفصال من وثيقة(3)

فليقارن القارىء بين هذا الرد الجارح وبين رد القباب الهادىء المسالم ليدرك الخلاف بين الرجلين ، بين مغربى وبين اندلسى تصادما فتعارضا شعرا ، فكـان الاول هادئا ، ورعـا ، مستسلما والثانى ثائـرا ، حانقـا ميالا الى الهجـاء اللاذع الفاحش الذى يمزق الاعراض ويفتك بالاخلاق .

---

1) الاحاطة ج ص 172

2) نقلنا بعض هذه الابيات عن «ابن الطيب من خلال كتبه» للاستاذ محمد التطوانى (تطوان — 1959) صفحة 152 .

3) ن. م. 153

ولعل من الانصاف كذلك ان نثبت هنا صدى ما جرى بين ابن رشيق التغلبي ومالك ابن المرحل لتقوية الحجة والتدليل على صحة الراى والتاكد من الاتجاه الذى ساد هذا العصر وطغى على الشعر المغربى مهما اختلفت اغراضه وانواعه ، ولنورد هنا بعض الابيات من قصيدة لابن رشيق نظمها فى هجاء ابن المرحل حيث يقول :

لكلاب سبتة في النباح مدارك	واشدها دركا لذلك مالـــك
شيخ تفانى فى البطالة عمره	واحال فكيه الكلام الآفـــك
كلب له في كل عرض عضـة	وفى كل محتنط لسان آفـــك
احلى شمائله السباب المفتـرى	واعف سيرته الهجــاء الماعك
والذ شىء عنده فى محفـــل	لمز لاستار المحافل هاتـــك
يغشى مخاطره اللئيـــم تفكها	ويعاف رؤيته الحالـم الناسك
فكانه تمساح تقذف جوفـــه	من فيه ما فيه ولا يتماســـك
انفاسه وفساؤه من عنصـــر	وسعالـــه وسراطـه متشارك
ان سام مكرمة جثا متثاقـــلا	يرغو كما يرغو البعير البارك
والدهر باك لانقلاب صروفـــه	ظهرا لبطن وهو لاه ضاحـــك
لا تأمن للذئب دفع مضـــرة	فالذئب ان اعفيته بك فاتـــك
عار على الملك المنزه ان يـرى	فى مثل هذا للملوك سالـــك
فكلامه للدين سـم قـــاتل	ودنوه للعرض داء ناهـــك

الخ .....(1)

لقد اتينا بهذه الابيات قصدا وتعمدنا نقل ما جاء فيها من الفاظ نابية وعبارات وقحة تحريا للحقيقة ومراعاة لموضوعية البحث الذى نسعى فى أن يكون مجـردا نزيها لا تعسف فيه ولا تحيز ، وما ايرادنا لمثل هذه الالفاظ المخجلـــة والمفسدة للذوق الا حرص منا على الامانة العلمية وعرض أمثلة كافية على أنظار القارىء كى يستطيع الحكم بعد الاطلاع عليها والمقارنة بينهما . اوردنا هذه الامثلة كما جاءت فى مصادرها رغم كونها تظهر مناقضة لما ذهبنا اليه من كـــون الشعر المغربى ينطبع بطابع العفة والمروءة سواء كان شعرا فى الهجاء أو المدح أو الغزل . ذلك ما قد يلاحظه القارىء علينا بادىء ذى بدء ، ان ما اوردناه فى ابيات ابن رشيــق يكاد يكون كله افحاشا وهتكا للاعراض وتشويهــا للانسان خلقيا وخلقيا ومسا بكرامته ومروءته وسمعته ، وذلك صحيح الى درجة نجد فيها انفسنا وكاننا مــع جرير والفرزدق في نقائضهما ، ذلك ما يخالف الذوق ويعارض القيـم الانسانية والمجتمعية ويمس في الصميم الشريعة الاسلامية التى تنهى عن مثل هذا السلوك . الا ان حجتنا فى الدفاع هى ان ابن رشيق لم يكن كما ذكرنا فى ترجمته مــن صميم البيئة المغربية التى تشبعت بهذه الروح الاسلامية المتجلية فى سلوك ابن المرحل

(1) انظر الاحاطة المجلد الاول صفحة 198 .

والقباب وغيرهما . ان ابن رشيق عاش في سبتة بدون شك الا ان استيطانه بهذه المدينة الثغرية ونشأته بمرسية وكثرة تنقلاته بالاندلس واستقراره بها نهائيا ، كل ذلك جعله يتأثر بهذه البيئة وينزع منزع ابنائها فى السلوك والاتجاه ، فكانت اخلاقها وعاداتها غالبة عليه ومؤثرة فى ذهنه ونفسه . يذكر ابن الخطيب(1) «.... منتم الى صاحب الثورة على المعتمد» كما يذكر انه دخل الاندلس وحط بها بالمرية ، وقد اصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها ونجحت له مشاركة الرئيس بالمرية ... وفى كلام ابن الخطيب ما يدل على ان صاحبنا قضى فترة كبيرة من عمره فى الاندلس . واذا كان اتى بذلك الكلام البذىء ووصف ابن المرحل بتلك الاوصاف القبيحة ، فالغالب على الظن ان ذلك لا يعدو ان يكون من باب الاختلاق ومحظ افتراء لما نعرفه عـن ابن المرحل من عفة ووقار ولما يتميز به ابن رشيق من طبع حاد يكاد يكـون شاذا وسلوك يكاد يكون غريبا ، نتيجة لعوامل فيزيولوجية ونفسية اتينا على ذكرها فى موضوعها . ثم.ماذا كان بعد هذه السفالة التى اظهرها ابن رشيق فى شعره وبماذا قابلها مالك ابن مرحل ؟ كل ما هنالك ، حسب ما وقفنا عليه ، انه لم يزد على ان اجاب بهذين البيتين .

كلاب المزابـــل اذيننى	بأبـوالهــن عـلى دارى
وقد كنت اوجعها بالعصا	ولكن عوت من وراء الجدار

ذلك جواب ابن المرحل ، ورده على ابن رشيق ، وبذلك انتهت المعركة التى لولا رازنة الخصم الاول وعفته وحشمته ومراعاته للاخلاق لسمعنا من أذيالها الكثير ، كما سمعنا عن المعارك اللفظية التى كانت تدور فى بيئات اخرى بين جرير والاخطل. لكن روح التسامح والتسامى تغلبت على روح الحقـد والطغينة بفضـل التربيـة الاسلامية .

اننا لا ننكر رغم ذلك وجود شعراء نظموا فى الهجاء كما لا ننكر ما قد يكون فى هجائهم من نقد جريح . نجد ذلك عند العبدرى المعروف بحدة طبعه وبتشاؤمه وبسرعة انفعاله وولوعه بالنقد الذى قد يكتسى صبغة لاذعة ، كما نجده عند غيره من الادباء الذين تعرضنا لهم فى هذا البحث او الذين لم نجد متسعا من الوقت فى هذا البحث لدراستهم ومعرفة آثارهم . لكن ذلك لا يقصد قصدا ولا يلتزم فيـه اصحابه ما التزمه غيرهم من معانى شنيعة ، والفاظ نابية ، تخرج مـن المعهود والمالوف . قد يكون ذلك من قبيل الصدف وفى ظروف يشتد فيها خصام ويحتدم فيها صراع بين اديبين او فقيهين ، فينطلق الانفعال وينطلق معه السخط والغضب من كلا الجانبين . وتلك حالات نفسية ووجدانية تعترى جميع الافراد مع فرق فى درجة الاثر والحساسية والانفعـال ، وسرعة رد الفعـل ، ان ذلك من الظواهـر

---

1) الاحـاطة ج 1 ص

الاجتماعية التي لا يفلت منها فرد من افراد مجتمع ما ، ان الاخلاق الحسنة ، والتربية المتينة ، والتمسك بالمبادىء الاسلامية وتقاليده ، كل ذلك يهذب السلوك ويضغط على الغرائز ويحد من شذوذها وقوة جموحها ، ويضبط العلاقات بين الافراد على أساس المساواة والعدل والتسامح والتعاطف ، ويحل المودة والاخاءمحل العداوة والبغضاء والترامي بالصفات المخجلة وبكل ما نهى عنه الشرع الاسلامي .

ادب الرحلات

ان الرحلة انواع كما يعلم القارىء ، منها ما هو سياسى ، ومنها ما هو دينى ، ومنها ما هو تجارى ، ومنها ما هو تعليمى او سياحى او سفارى الى غير ذلك من الانواع التي تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الاغراض التى كانت تقصد من ورائها .. ان طبيعة المجتمع واخلاقه وعاداته وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطقوسه الدينية هى التى كانت ولا تزال تحدد طبيعتها وتكيف محتوياتها وتطبعها بالطابع الذى تفرضه روح العصر . وقد وجدت هذه الرحلات منذ زمن بعيد عند الامم الاجنبية (بطيلموس) ، كما وجدت عند العرب فى الجاهلية وخصوصا منذ ان انتشر الاسلام ، واصبح المسلمون ، نظرا للعوامل التى ذكرناها، يطوفون بالبلاد المجاورة لهم او البلاد التى فتحوها . وعلى سبيل المثال نذكر من الرحلات التى سجلها التاريخ العربى رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) ورحلة اليعقوبى (كتا بالبلدان) ورحلة المسعودى (مروج الذهب) ورحلة المقدسى (احسن التقاسم فى معرفة الاقاليم) ورحلة ياقوت الحموى (معجم البلدان) الى آخر ما خلف من ثرات فكرى من هذا النوع الذى يعتبر من اهم ما جادت به قرائح الرحالين العرب فى القرون الوسطى(1)

وليس يهمنا ان نستقصى كل هذه الرحلات ونلم بجوانبها والظروف التى ألفت فيها ، لان ذلك يتطلب ان نفرد له بحثا خاصا ومستقلا لا يتسع مداه لموضوعنا . وانما الذى نهتم به فى هذه الظروف هو محاولتنا اعطاء فكرة للقارىء عن هذا النوع من الانتاج الفكرى فى عصر بنى مرين .

ان من المسلم به ان الرحلات تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام رغم آثارها ثم الى ما بعد ظهور الاسلام عند العرب ، كما يرجع تاريخها الى عهود سحيقة عند الامم الاخرى . الا اننا نرى انها اصبحت فنا قائما بنفسه ، مستقلا بذاته له خصائصه ومميزاته ، ورواده الذين قصدوه قصدا والتزموا ما التزموه لتحقيقه والتفانى فى اجادته والعمل على تخليده قدر الامكان . ولا ادل على ذلك من تلك الاهوال والمخاوف والاخطار التي كانوا دوما يتعرضون لها ويتحملونها لتحقيق

1) ظهر بحث جديد //. هذا الموضوع ـ وهو جدير بالدراسة :
André Miquel, La géographie humaine du monde musulman, Paris, 1967.

غايتهم بشيء كبير من الصبر والتجلد والصمود امام العراقيل التى كانت تعترض سبيلهم حتى لكادت تصبح رحلاتهم نوعا من المجازفة والمغامرة التى لا يستطيع القيام بها الا نفر قليل من الشجعان والابطال .

فما هي اذن الدوافع لذلك ؟ ما هي الاغراض التى كان الرحالون المغاربة يرمون اليها من وراء مغادرتهم لبلادهم وتنقلاتهم عبر المدن والاقطار ، بل القارات ؟ لقد تعددت الآراء واختلفت الاقوال حول ذلك وظن البعض ممن تعرضوا لهذا النوع من الانتاج الفكرى ان الدوافع هو مجرد اشباع غريزة حب الاستطلاع واكتشاف المجهول والتأكد من صحة الروايات والاتصال باجناس أخرى الى غير ذلك مـــن الاسباب . واذا كان هذا الراى ينطبق على بعض الرحلات فى عصر من العصور ، فان لنا رأيا فى الموضوع تكون لدينا على ضوء الاحداث التى كان المغرب يعيشها.

ان الرحلات المغربية فى عصر بني مرين تستمد مقوماتها مـن البيئة المغربية قبل كل شيء ، ثم من خارج هذه البيئة ، ومن المسافة التى كانت تفصل بينها وبين الاماكن التى كان يقصدها كل مسلم لاداء فريضة الحج . ان المجتمع المغربى كما وقفنا على كثير من جوانبه ، كان يشكل عاملا اساسيا فى بروز هذا الفن . ان المغربى كان يعيش فى جو من الروحانية النافذة الى الاعماق والتربيـة الاسلامية الخالصة التى تشبع بها الافراد والجماعات فى هذا العصر الذى نؤرخ له . لذلك نرجح ، خلافا لما ذهب اليه بعض من كتب عن الرحلات المغربية ، ان الدافع دينى قبل كل شيء وان الرغبة الملحة التى كانت تساور النفوس هى مغـــادرة الاوطان تأدية لفريضة الحج ، والحج من اركان الاسلام التى يتـــم بها اسلام المـــومن اذا توفرت لديه الاستطاعة . لذلك كان تحقيق هذه الرغبة بالنسبة له شيئا واجبا ، لا يطمئن له بال ، ولا يخلص له ضميـــر الا اذا ادى هـــذا الواجب ، واذا لم يـؤده فذلك لعجز مادى او مرض او لمانع قاهر لا يمكن التغلب عليه . فلا السياحة اذن ولا التجارة ولا المغامرة كانت غاية لهذه الرحلات التى خلفتها لنا البيئة المغربيـــة على عهد بنى مرين . ان العبدرى وابن رشيد وابن بطوطة كلهم غادروا اوطانهم للقيام بهذه المهمة الدينية . لقد عبر كل منهم عن هذه الرغبة فى رحلته التى يمكن للقارىء ان يرجع اليها ليرى ذلك بصريح العبارة ، وبصفـــة مقصــــودة لا لبس فيها ولا غموض ، نعم ، قد تظهر أغراض أخرى فى محتوى هذه الرحلات لكنها قـــد تاتى عفوية ، قد تكون وليدة الظروف التى احاطت بالرحالة المغربى عند ما كان مقيما ببلدة غير بلده ، فاضطر ، نجاة بنفسه أو تحقيقا لبعض الحاجيـات المتولدة عـــن مقامه ، ان يسلك سلوكا آخر يكتسى صبغة سياحية أو تجاريـــة أو استطلاعية أو غيرها . لكن ذلك حسب رأينا يدخل فى اطار عام ويعتبر مسببا لاسباب او نتيجة حتمية لم تكن تخطر بباله ولا تدور بخلده ورب معترض يلاحظ فى هذا شيئا من التعسف او التطرف ويقول ان هؤلاء الرحالين كانوا يقصدون كذلك اغراضا أخرى ، منها الاتصال بالعلماء والشيوخ وكبار الفقهاء والمحدثين للاخذ عنهم والتحقيق فـــي سندهم والروايات التى قد تكون صدرت عنهم . وجوابنا على هذا الاعتراض هو أن

ذلك صحيح لكننا نرى ان الغاية كانت لا تختلف جوهريا اذ العلوم التى كان يقصدها الرحالة المغربى تكاد لا تتجاوز ميدان الشريعة الاسلامية ، من فقه وحديث وتفسير وقراءات . فليس هناك اذن فرق ما دامت الغاية ترمى الى التضلع والتبحر فى العلوم الدينية . فليرجع القارىء كذلك ، ان شاء ، الى هذه المخلفات الادبية المغربية ليتحقق من هذه الظاهرة التى اشرنا اليها فى انتظار التعرض اليها بشىء من التفصيل فيما سياتى . واذا كان بعضهم قد استغرب من كون ابن بطوطة ذهب بعيدا واجل رحلته الى الاندلس رغم كون المسافة قصيرة والوسائل متوفرة ، فاننا لا نرى ، والحالة هذه ، داعيا للاستغراب اذ الرحالة المغربى لم يكن فى نيته ، فى بداية الامر ، سوى زيارة قبر النبى واداء مناسك الحج ، لذلك فضل الامتحان والمغامرة والتعرض للاخطار واجل زيارة الاندلس التى كانت قريبة من مسقط رأسه وموطنا لكثير من أصدقائه . لم يكن فى البيئة المغربية كما نرى اليوم او فى ذلك العصر فى بيئات أخرى تصارعا حادا او تنافسا شديدا بين الافراد قصد تكديس الامــوال وتحقيق الارباح الباهظة ، ان ذلك يعد فى نظر الشرع الاسلامى غرورا كما جاء فى القرآن الكريم (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) «انما الحيــاة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد» .

على أننا نعود فنقرر ان هــذه الاهداف اذا كانت دينية فى صميمها ، فهى كغيرها من الظواهر الاجتماعية تدخل فى نطاق عام وفى اطار اجتماعى اكسبها قوة واضفى عليها صبغةالمجد والاحترام والتقدير والسمعة الطيبة التى لا يمكن ان تاتى عن طريق الفرد وحده ، بل تنتج عن روح الجماعات وتفاعل الطبقات والتكيــف السائد والسائر مفعوله بين الناس ، احب الفرد ام كره . فالباعث هنا مهما ظهر دينيا محضا قد امتزج بقوة اجتماعية قد تختفى وراءه فى الظاهر ولكنها تظل تحركه وتنميه فيتعاونا معا على خلق ما يسمى بالدافع حسب اصطــلاح علماء النفس او العامل حسب علماء الاجتماع . فلولا البيئة التى كانت متشبعة بروح اسلامية متينة، ولولا انصرافها بصفة عامة عن المادة وتخلصها من سيطرتها على التفكير والسلوك فى مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية ، لولا ذلك لما قوى ذلــك الباعث ولما اكتسى هذه الصبغة القوية الدافعة .

ازدهار أدب الرحـلة فى عهد بنى مرين

ازدهر أدب الرحلة على عهد بنى مرين ازدهارا لم يسبق للمغرب أن عرفه فى العصور التى مضت ، فلم يذكر لنا التاريخ ، بل لم يسجل لنا من هذه الرحلات منذ بداية الاسلام فى المغرب حتى العصر المرينى ، اى ما يقرب من سبعة قرون الا عددا قليلا لا نكاد نعرف منه بالنسبة للمغاربة سوى رحلــة نزهـة المشتاق للشريف الادريسي والمعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الــواحد المراكشى

والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي . انه زمن طويل اذا ما قيس بالزمن الذى استغرقته دولة بني مرين التي لم يتجاوز عهدها قرنين ونصف قرن ، ومع ذلك أنفت في هذه المدة القصيرة ثلاث رحلات تعتبر اهم واعظم ما الف في هذا الفن في تاريخ المغرب . الفت فيها الرحلة المغربية للعبدرى وملء العيبة في طول الغيبة لابن رشيد الفهرى وتحفة النظار في عجائب الامصار لابن بطوطة .

وليس بخاف ما لهذه الرحلة من شهرة طبقت الآفاق ، كـــان لها اثر في مختلف المجتمعات العربية وغيرها ، اذ شغل بها كثير من المثقفين وغير المثقفين الذين وجدوا فيها ما يناسب مستواهم الفكرى وما يخاطب خواطرهم ويجول في انفسهم . ان أعظم رحلة خلفتها لنا البيئة المغربية (ملء العيبة) ترجع الى هذا العهد الذى نتحدث عنه . وأشهر رحلة شغلت الناس في كل مكان هي رحلة ابن بطوطة التي لا يزال النقاد والادباء والمؤرخون من العرب والمشرقين يخصونها بعنايتهم وبأبحاثهم المتنوعة الى اليوم . هذا التراث الفكرى الخالد هو من انتاج قرائح مغاربة عاشوا كلهم في ظل بني مرين ، وتكيفوا ببيئتهم المغربية متفاعلين مع معطياتها الاجتماعية والمادية . فالمسألة هنا بالنسبة لهذا العصر مسألة كيف وكم : انتاج ضخم من مستوى عالى اعترف به كثير ممن تصدوا لهذا النوع من الفنون الادبية بالدراسة والنقد والتحليل ، فالرحلة اذن بلغت مستوى النضج وارتفعت الى قمة الشهرة والصيت الذائع في هذا العصر الذى نؤرخ له . وما نظن أنفسنا في حاجة الى اعطاء أمثلة على هذه الشهرة التي نالتها الرحلات التي انتجتها البيئة المغربية في عهد بني مرين ، اذ الامر معروف في التاريخ وتاريخ الرحلات على الخصوص . فلنكتف اذن بما أوردناه ولنتساءل الان عن عوامل هذا الازدهار .

ان هذه العوامل تكمن في البيئة نفسها . ان الظروف السياسية التي كان المغرب يعيشها والازمات التي كان يتخبط فيها والمشاكل التي كانت تحدث له مع غيره من الدول المجاورة كل ذلك أدى بالاضافة الى عوامل أخرى دينية واجتماعية الى بعث هذا الفن وتطويره وتشجيع رواده لتجود قرائحهم ومواهبهم الفكرية والارادية بما خلفوه لنا من آثار في هذا الميدان . لسنا ننسى ما هو نوع العلاقات التي كانت قائمة بين المغرب والاندلس من جهة ، وبين المغرب الاقصى والمغربين الاوسط والادنى من جهة أخرى . انها علاقات كثيرا ما اصطبغت بطابع الحدة والتوتر ، بل بالقوة والعنف اذ كان تدخل بني مرين في سياسة بني عبد الواد تدخلا سافرا يعتمد على القوة والبطش والسلاح لاخضاع هاتين الدولتين للسلطة المغربية المركزية . لسنا ننسى ما كان ينتج عن هذه العلاقات من تنقلات ورحلات فردية واجتماعية تلقائية أحيانا ومفروضة أحيانا أخرى . ان القوات المغربية كانت دائما على استعداد لخوض المعارك كما كانت تخوضها بالفعل داخل المغرب وخارجه ؛ أما العدوة الاندلسية فعلاقاتها مع المغرب علاقات تارة ودية وأخرى عدائية نتيجة لسياسة بني الاحمر

المتقلبة والمتلونة حسب الظروف والاغـراض السياسية والمصالـح الشخصية . فالتنقلات بين العدوتين كانت جارية وسهلة لقرب المسافة ولاعتماد المغاربة في كثير من الظروف على الشواطىء البحرية في تنقلاتهم الى الشرق وغيره .

على أن هذه المعطيات البيئية والاجتماعية التي تكتسي صبغة غير مباشرة لم تكن وحدها كافية بخلق حركة مقصودة وتشكيل عوامل رئيسية من شأنها أن تنهض بأدب الرحلة وتتقدم به الى الدرجة التي نالها . ان أدب الرحلة وجد في بني مرين خير مشجع ، وأقوى مساعد مباشر ؛ وأكثر من ذلك أن أبا عنان المريني كان قد خصص لصاحب رحلة تحفة النظار وهو عائد من سفره استقبالا حارا تقديرا لجهوده وتشجيعا لانتاجه ، فلما حضر الى فاس «قبل يده الكريمة وتيمن بمشاهدة وجهه المبارك وأقام في كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولاه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه» . وكان أبو عنان المريني قد أخذ العدة وأعطى الاوامر لكاتبه محمد ابن جزي لتناول الرحلة بالتدوين والتنسيق حفظا لها من الضياع وتخليدا لذكر مؤلفها . وطبقا لتعليمات ملكه «نفذ ابن جزي الاشارة الكريمة بأن كتب ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحافظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار «ان الامر العالي صدر للعبد المنقطع الى خدمة مولاه بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه» . أليس في هذا كله ما يدل على العناية الخاصة التي أولاها الملك المريني للرحلة ولصاحبها ؟ . وعلاوة على ذلك ، فان القارىء يجد في نصها كثيرا من الاسئلة التي كان أبو عنان يطرحها على ابن بطوطة بقصـد الاستفسار والاستيضاح ، مما يدل على شدة رغبة أبي عنان في الاطلاع على ما احتوته من اخبار ووصف للامصار .

واذا كان ابن بطوطة قد نال هذه الحظوة عند أبي عنان تقديرا لانتاجه ، فان ابن رشيد ، هو الآخر ، قد سبق له في ظل السلطان أبي الربيع أن حظي بنفس العناية المولوية ، ولا أدل على تلك العناية التي لقيها وتلك المكانة التي أدركها في البلاط المريني من تحقيق رغبته في الانتقال الى مراكش بعد الاختيار الذي تركه له السلطان في الاستقرار حيث شاء. انها التفاتة ملكية خاصة توجت باستدعاء الرحالة من مراكش وجعله من خواص البلاط ، ذلك تشجيع مباشر نعتبره من العوامل الرئيسية التي نهضت بمستوى أدب الرحلة في هذا العصر .

أما الآن فيحق لنا أن نتساءل عن خصائص هذا الفن الذي يتميز به عصر بنـي مريـن .

ان الرحلة تمتاز ، بخصائص عامة ومشتركة تنطبق على جميع الرحلات التي

الفت في هذا العصر ، رغم كونها تختلف في جزئيات تنفرد بها هذه عن تلك ، كأن يكون مثلا أحد العناصر المكونة لها جميعا أقوى أو أضعف في هذه أو في الاخرى .

فما هي اذن هذه الخصائص ؟

ان من يتصفح رحلات هذا العصر ويمعن النظر فيها ، يجدها تمتاز بطابع خاص هو بروز العنصر الذاتي ، وتغلبه على العناصر التي تكون أسسها . ان الرحالة نفسه هو مصدر الملاحظات والاوصاف والمشاهدات ، وعنه تصدر الآراء والافكار والانتقادات الموجهة تارة للاشخاص وأخرى للاشياء ؛ كثيرا ما يمدنا بانطباعه ، واحساساته ، ومشاعره المختلفة المتولدة عن احتكاكه بالاشخاص وبالاشياء . ان ما نجده في الرحلة قد لا يتعدى هذا الميدان ، ميدان تفاعله مع البيئات التي يزورها أو الافراد الذين يتصل بهم ، انها شخصية الرحالة بطبيعته ومزاجه ، وبوجدانه وبفكره ، بحالاته النفسية المتقلبة ، بعاداته الذهنية والمجتمعية بعواطفه الخاصة ، بميوله الفطرية والمكتسبة ، التي تطغى على الحوادث فتصفها كما تشاء وكما يتفق لها لا كما هي في الواقع ؛ ان ما نجده في هذه الرحلات من أوصاف وحكايات وأخبار أو مشاهدات للدور والبيئات لا يتعدى في غالب الاحيان العنصر الذاتي الى العنصر الموضوعي . ان للخيال أثره وللعاطفة والثقافة الشخصية دورهما فيما يحكي وما يوصف وما يستقبح وما يستملح . ان الرحالة في هذه الظروف قلما يستطيع التجرد عن ذاتيته في حكمه على الاشخاص والاشياء ، فلا محل للفكرة المجردة الا في ظروف خاصة وميادين معينة . انه من الصعب عليه أن يتحرر من هذا العنصر ويتصدى لرحلته بروح علمية أي بوصف ما هو كائن فعلا وما هو موجود لا ما يظنه كائنا أو يتمنى أن يكون ، الشيء الذي يشوه الحقيقة ويحرف الاحكام ويخل بالموضوعية والحياد الفكري ، لذلك اتصفت رحلة العبدري بالمبالغة والتطرف في الحكم على سلوك الافراد الذين لقيهم في طريقه كما اتصفت أحيانا بالعنف والنقد الجريح ، والوصف الشنيع للاماكن التي مر بها ، فاذا بها في نظره خالية قفراء لا انسان فيها ولا حيوان ، لا نبات ولا حجر ، تبكي حظها وكأنها شخص أصيب بأذى أو فقد عزيز لديه . فلنستمع اليه وهو يتحدث عن مدينة قيروان : «ثم وصلنا الى مدينة قيروان فدخلتها مجدا في البحث غير وال ، فلم أر الا رسوما محتها يد الزمان ، وآثارا يقال عنها كان وكان ، والاحياء من أهلها جفاة الطبع ، ما لهم من رقة الحضارة باع ، ولا في معنى من معاني الانسانية انطباع وكسدت سوق المعارف بينهم .. والمدينة ليس لها بر ولا بحر ، ولا شجر ولا نهر ، وضعت في سجنه قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى» الى أن قال وهو يصف طرابلس : «ثم وصلنا الى مدينة طرابلس وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس أقفرت ظاهرا وباطنا وذمها الخبير بها سائرا أو قاطنا ، اكتنفها البحر والقفر ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر وتفرقت عنها الفضائل ، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا ولا تخوض في ارجائها حوضا ولا نهرا بل

اقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار الخ ...» وهكذا يسترسل العبدرى فى وصفه للديار والامصار ولاهلها ناسبا لهم ولها كل رذيلة وكل سيئة فهى قفراء وهم حمر ؟ . هل هذا هو الواقع ؟ هل كان العبدرى غضبان يوم زار طرابلس والقيروان ؟ كم مكث فى تلك الديار للحكم عليها وعلى أهلها الذين أصبحوا كلهم فى نظـره جهالا .

وذا كان ابن بطوطة أكثر مسالمة وأقل حدة فى نقـده وأميـل الى القص والاخبار ، فانه لم يسلم رغم ذلك من تاثير الانفعال وسلطة العادات وضغط العاطفة ، مما قاده الى التسرع فى الحكم حتى اعتبرت كثير من مشاهداته وأوصافه للاشياء وللاشخاص نوعا من الخرافة والغرابة ، وعد ذلك بعض النقاد من المعاصرين وغيرهم مجرد أوهام وأحلام . ولقد سبق لابن خلدون أن شك فى أحاديث ابن بطوطة واعتبرها كذبا كما رماه بنفس التهمة ابن الخطيب الذى لم يتورع هو الآخر عن الحط من قيمة ابن بطوطة والشك فى أخباره .

ونحن ، وان كنا لا نستبعد ما جاء فى هذه الرحلة من مبالغات واخبار قد تكون بعيدة عن الواقع ، الا أننا لا نعتبر ذلك كذبا أو تلفيقا مقصودا نظرا لما عرف به الشيخ ابن بطوطة من إستقامة ونزاهة وأمانة فى نقل ما سمع وما شاهد . وانما الذى حدث هو أن مؤلف الرحلة لم يستطع التحرر من سلطة «الانـا» الجبارة لياتى بالفكرة المجردة ، والمشاهدة الواقعية ؛ لان الوصف الواقعى يحتاج الى شروط ذهنية ونفسية ووسائل أخرى خارجة تتضافر كلها وتتعاون فى الجهود الذى يبذله الواصف كى يؤدى مهمته العلمية بكل تجرد وموضوعية . فالمسالة هنا مسالة سوء فهم وقع فيه من تصدوا لرحلة ابن بطوطة . لان الكذب نوعان : نوع يتعلق بعلم الاخلاق ، ونوع يتعلق بعلم النفس . لذلك يجب أن لا نطلق الكلام على عواهنه كما يقال . ان الحواس قد تخطىء وقد تصيب فى وظيفتها ، وان الحالة الذهنية قد تتاثر بالحالة النفسية الطارئة على الفرد ، فتشوه تفكيره وتحرف أحكامه من حيث لا يشعر . ومع ذلك فلا يجب أن نرمى الفرد الذى وقع فى هذه الاغلاط بالكذب والتلفيق . ومهما يكن ، فما نسب للعبدرى ولابن بطوطة ولابن رشيد من غرابة أو مبالغة أو تحريف لا يعدو فى نظرنا أن يكون نتيجة من نتائج تغلب العنصر الذاتى وتحكمه فى كثير من محتويات الرحلة . وهو الطابع الذى تنطبع به كما رأينا فى بداية هذا التحليل .

النزعـــة الدينيـــة

تتسم الرحلة المغربية ، الى جانب ما أوردناه ، بسمة دينية نلمسها فى كل فصل من فصولها ولدى كل مناسبة او حادثة وعند كل مؤلفيها ؛ ولا غرابة فى

ذلك ، فان القوم كانوا من صميم البيئة المغربية ، تشبعوا بتربية اسلامية متينة . كما تشبعت بيئتهم بها ، ولقد رأينا في الفصول السابقة الى أي حد كانت هذه الروح متغلغلة في النفوس والى أي درجة كانت مسيطرة على العقول والسلوك الفردي والجماعي . ان هذه الرحلات سجل لعبارات دينية كثيرة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وألفاظ اسلامية تاتي عفوا في سياق الكلام ، كما يقصدها مؤلفو الرحلة قصدا حامدين الله تعالى في كل وقت ومصلين على نبيه المصطفى . هذا من حيث الاسلوب اللفظي والتعبير الصريح ، أما السلوك الذي يكتسي صبغة عملية كتلاوة القرآن ، أو القيام بالصلاة والصيام ، أو أي فعل يدخل في دائرة التقوى والعبادة ، فانك تلمس ذلك في كثير من فقرات وفصول الرحلة . والامثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة . ولا يسعنا أن ننقل منها الا ما يتسع له مجال هذا البحث . ولقد أعطى ابن بطوطة المثل بنفسه في هذا الميدان حيث أورد في رحلته ما يغني عن كل شرح وتحليل . لقد كان في سلوكه مثالا للاخلاق الفاضلة وللعفة والرزانة وحسن المعاملة ، فكان كلما نزل بالمدينة قصد مسجدها ليصلي فيه ويذكر كتاب الله ، وقصد أولياءها وصلحاءها وزهادها ، تبركا منهم ، وانتفاعا بوعظهم . يحكي ذلك بصراحة في رحلته ويقول : «انه زهد في الدنيا وولى وجهه نحو الآخرة يصوم خمسة أيام بدون انقطاع ، ويعتكف في المساجد حتى أصبح وهو نازل بدلهي رجلا صوفيا ، اعتزل الناس وخلا بنفسه مدبرا عن الاكل والشرب . وفي ما يلي يقف القارىء بنفسه على هذه الروح الدينية وهذا السلوك الاسلامي الذي يتجلى بكل بساطة وصراحة في هذا النص : «عندما وصلنا ، يقول ابن بطوطة ، في الصباح الى البلد الامين مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، فوفدنا منها على حرم الله تعالى ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا ، من باب بني شيبة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة ، زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال ، وترفل في برود الجمال ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأسطار الكعبة وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسب ما ورد عن النبي والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم...»(1) هذا مثال أوردناه مقتبسا من رحلة ابن بطوطة ويلاحظ القارىء اخلاص صاحبه لدينه وتشبثه القوي بعقيدته كما يلاحظ التكرار اللفظي للكلمات والعبارات الدينية التي يصطبغ بها هـذا النص .

ولم يختلف العبدري عن ابن بطوطة في هذا الميدان ، في هـذا السلوك الروحي الذي يتميز به هذا الفن الادبي كسائر الفنون الاخرى ، فهو رغم قلة تحدثه في رحلته عن عبادته ، صلاته ، صيامه ، زهده ، ورغم أنه لم يكثر كابن بطوطة من الذكر الحكيم والالفاظ والعبارات الدينية التي وجدنا منها كمية كبرى في تحفة النظار ،

1) تحفة النظار ص. 236 .

فان رحلته لا تخلو من آثار هذه الظاهرة الروحية التى انطبع بها سلوكه كما انطبع بها سلوك غيره من مؤلفى الرحلات . ولنا فى مؤلفه أمثلة كثيرة بعضها جاء عفويا وبعضها قصده الكاتب قصدا ، من ذلك قوله عندما وصل الى تلمسان : «ولما وقفنا على باب تلمسان صادفتنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه فالفينا قافلة تخرج وهى كبيرة تزيد على الالف وقال لنا قائل على الباب ان له فى محاولة الخروج نحوا من ثلاثة أشهر ، فدخلنا الى البلد وخرجنا ساعة دخولها الى زيارة قبر الصالحين بالموضع المعروف بالعباد وزرت قبر الشيخ الصالح آية زمانه أبى مدين رضى الله عنه»(1) . ثم يضيف : «ثم وردنا على مدينة أزمور وزرنا قبر السادة المدفونين بها من الصالحين نفعنا الله ببركاتهم وختمنا الرحلة بزيارة قبر شيخ الصالحين وقدوتهم ، شرف المغرب الاقصى وفخر شمس زمانه أبى محمد صالح بن ينصارن أفاض الله علينا من بركاته وأمد بصائرنا بنور يستمد من مشكاته ثم من الله علينا بجمع الشمل والاجتماع بالاهل له الحمد والشكر كثيرا»(2) من هذه الامثلة التى سقناها على سبيل الاختصار ولم نراع فى نقلها لا دقة ولا اختيارا يتضح للقارىء كيف كان سلوك العبدرى وكيف كانت أخلاقه التى انطبعت بروح الاسلام وبتعاليمه التى أثرت فى فكره وفى نفسه وجعلته يهتم هو الآخر بالاولياء والصالحين باحثا عن قبورهم لزيارتها ، مكثرا من الحمد والشكر لله . ولعل القارىء يزيد اقتناعا اذا ما اطلعناه على نص آخر للعبدرى وهو يتمثل فى قصيدة نظمها صاحبها وبعث بها من مدينة القيروان الى ابنه محمد نقتطف منها هذه الابيات ، يقول بعد المطلع الآتى : (3)

اصغ سمعا أوصك يا بنى ... وصية والدبر حفى
وقد شاهدت فى الدنيا أمورا ... محرضة على نهج التقى
فكن بالله عنها مستعيضا ... كفى عوضا به من كل سيى
ولا تأسف لفرقتها ففيها ... وصال تواصل العيش الهنى
فلا تك يا بنى بها ولوعا ... وان أبدت مطاوعة الابى
وكن بالله ذا ثقة تقيا ... ولا تغبط بنى سوى تقى
وباعد ما استطعت حليف دنيا ... تعلق حبها من فرط غيى
بنى تسوؤنى منك المعاصي ... لغير الواحد الصمد العلى
بنى يسوؤنى منك المعاصى ... فلا عمرت حنانك يا بنى
قبيح أن أكون عصيت ربى ... وتقفو أثر والدك العصى

أليس فى هذه الابيات ما يدل على تلك التربية الروحية التى كونت شخصية العبدرى وطغت على تفكيره ووجدانه . فهو ، كما يرى القارىء ، يوصى ابنه باتباعه

1) الرحلة المغربية ص. 132
2) ن. م. ص. 133
3) ن. م. ص. 66

فى نهجة وفى سلوكه نحو ربه . يوصيه بالطاعة وبالتمسك بدينه وبالانصراف عن مشاغل الدنيا وشهواتها وملدياتها ، بل يذهب الى أبعد من ذلك ويقول له بصراحة : «كن زاهدا لتناول المرتبة العليا» .

فالعبدرى لم يكن بأقل من ابن بطوطة تربية اسلامية وسلوكا روحيا وان كنا نعترف ان تحفة النظار أحفل وأزخر بالمعانى الاسلامية والالفاظ والعبارات الدينية ، والسبب فى ذلك كما أشرنا ان ابن بطوطة كان كثير الثقة بالاولياء والصالحين وغيرهم الى درجة جعلت بعضهم يتهمونه بالسذاجة والاعتقاد فى الخرافات والاوهام وكلام المشعوذين ، مما أدى به الى نقل بعض الحكايات وبعض الاخبار التى تدل على أن ناقلها لم يتحر فيها الواقعية ولم يفحصها ، ولم يخبرها قبل نقلها لتكون أكثر مطابقة للواقع ، وتناسبا مع المنطق والحكم السليم . وهنا كان يجب على هؤلاء النقاد أن يفرقوا بين الهدف الناتج عن قوة العاطفة والصدق الذى يمليه العقل المتحكم فى الامور والاشياء . فالمسألة ليست مسألة صدق أو كذب كما يظن البعض وانما كان يجب أن يرجع فى ذلك الى ابن بطوطة لتحليل شخصيته قبل اتهامه بالكذب أو الصدق ، فكان ذلك واجبا تحريا للموضوعية ، للالمام بالعوامل النفسية والمواهب العقلية التى كانت تنبنى عليها هذه الشخصية . وقد سبق أن تعرضنا لبعض هذه العوامل فى ترجمتنا للرجل .

أما ابن رشيد ، فقد كان ، كما رأينا فى ترجمته ، رجلا متدينا عرف بتخصصه فى علم الحديث ، فضلا عن ماله من اطلاع وتفوق فى علوم أخرى . وفى رحلته ما يجسم هذه الثقافة ويدل على هذا التكوين الذى لقيه هو وغيره من أبناء وطنه . نكتفى هنا ، رغبة فى الاختصار ، بايراد مثال نظنه كافيا لاعطاء فكرة للقارىء عن هذا الاتجاه الذى لم يختلف فيه صاحب «ملء العيبة ..» عن غيره . قال ابن رشيد : «وبمقربة من العين أصل شجرة يابس ، فيه غصن كبير ناعم أظنها سدرا يزعم الناس انه (صلعم) قعد هناك فاقتربت الشجرة والله أعلم ، ولقد اتفق لى هناك أن أخذت شيئا لانى رأيت بعض من حضر هناك آخذ شيئا منها متداركا فرأيت شخصا قد أقفل الى ولم أعرفه من قبل ولا بعد ، فقال حتى أنت تفعل ذلك ، فعلت ولم ! وما تنكر من ذلك فقال ان كان حقا ما ذكر فيقتدى الناس بك فى الاخذ منها فيفنيها الناس فيذهب هذا الاثر المبارك فتكون سبب ذهابه فشكرته وانصرف»(1) وهذا كلام كما نرى حافل بالمعانى الدينية ودال على رسوخ عقيدة صاحبه . وكنتيجة لهذه الروح الدينية التى طبعت مؤلفى الرحلة كما طبعت رحلاتهم المختلفة ، يلاحظ أن انتاجهم هذا خلا أو كاد يخلو من كل سلوك غايته تجارية أو اقتصادية . فلم يكن يخطر ببال الرحالة ولا يدور بخلده أن يتجر أو يقيم علاقة اقتصادية مع من يتصل بهم من سكان

1) راجع ميكر وفيلم الخزانة العامة بالرباط نقلا عن مخطوط الاسكوريال .

البلاد التي يزورها . ومع ذلك فالفرصة كانت سانحة والوسائل متوفرة للحصول على المال . لقد حظى ابن بطوطة على الخصوص بمقابلة الملوك وذوى الرئاسة والمال فولج البلاط الهندى ، ولذلك كان فى استطاعته أن يستثمر هذه الظروف وهذه المناسبات . الا أنه كغيره من مؤلفى الرحلات لم يكن يفكر هذا التفكير ؛ لم يرد استغلال هذه المواقف التى كان يتعالى عنها ويتخذها وسيلة لغاية معروفة . ولذلك يمكننا القول ان رحلات المغاربة فى هذا العصر خلت من عنصر المادة بجميع مظاهرها وأشكالها ، وأعنى بالمادة هنا كما أسلفت ما يدر ربحا ، ما يغنى الفقير ، ما يكسبه مالا أو عقارا أو جاها أو قوة أخرى من هذا النوع .

عنصر الوصف

أما العنصر الثانى الذى تتكون منه هذه الرحلات فهو اعتمادها بصفة اجمالية على الوصف، وصف البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية ، الشيء الذى لم نظفر به فى فنون أخرى ، شعرا كانت أم نثرا . فكثيرا ما كنا نامل ونحن ندرس الانتاج الادبى أن يتعرض الشاعر أو الناثر لوصف الطبيعة وأحوال المجتمع المغربى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بوجه عام . وقد سبق أن لاحظنا نفس الظاهرة فى المؤلفات التاريخية التى كتبت عن المغرب فى هذا العصر أو غيره . لقد رأينا أن المؤلف كثيرا ما يهتم بالجانب السياسى أو العسكرى ولا يتعرض لما سوى ذلك من المعطيات الاجتماعية الا بصفة عفوية أو عابرة . ان الشاعر كما رأينا يكاد يقصر انتاجه على المديح الدينى أو النظام التعليمى سواء كان الامر يتعلق باللغة أو بالنحو أو بالبيان والعروض . أما فى الرحلة فكثيرا ما نظفر من صاحبها بمعلومات اضافية عن الاماكن التى زارها أو الطرق التى مر بها أو العادات والتقاليد التى لاحظها لدى كثير ممن احتك بهم من السكان . فكثيرا ما أطلعنا — على الخصوص — ابن بطوطة على أحوال الهند والصين وغيرهما من الاقطار التى لم نكن نعرف عنها الا الشيء القليل . فجاء خبره ممتعا ومفيدا ، فظنه الناس غريبا وخارجا عن العادة لانهم ما تعودوا عليه أو ما سبق لهم أن سمعوا عنه شيئا . فالشيء النادر كثيرا ما يستغرب ويعد قبيحا أو حسنا حسب الاهواء والنزعات والميول والاذواق المختلفة . وتلك نتائج الذات الفاعلة والمنفعلة وبها يفسد الحكم على الاشياء أو يصلح . وعلى كل حال فقد أمدتنا هذه الرحلات بمعلومات غنية كنا فى أشد الحاجة اليها : معلومات بيئية ومعلومات بشرية تتعلق بالسكان وبثقافتهم العامة ، بأذواقهم ومشاربهم . ورغم كون هذه المعلومات ليست عامة وشاملة ، بمعنى أنها لم تكن تتصف بالطابع الموضوعى المجرد ، فانها ساعدت كثيرا من المؤرخين والجغرافيين والادباء على أداء رسالتهم : وكم كنا نود أن تتناول هذه الرحلات المجتمع المغربى فتصفه ماديا واجتماعيا كما فعلت بالنسبة

للمجتمعات الاخرى ، لكنها لم تنصب الا على خارج المغرب ، على المفازات ، على المدن الواقعة فى طريق الرحالة أو الاماكن التي حل بها مرغما أو بقصد الضيافة . تفوق فى هذا الميدان ، كما أشرنا ، ابن بطوطة ثم يليه فى الترتيب العبدرى ثم ابن رشيد الذى لم يغفل هذا الموضوع رغم اهتمامه بمواضيع أخرى استأثرت بعنايته ، ومع الاعتراف لابن بطوطة بالاكثار من ايراد الاخبار والاوصاف والاتيـان بالجزئيـات والتفاصيل التى قد لا نجدها عند غيره من الرحالين ، فاننا نلاحظ أن العبدرى فى وصفه أكثر دقة وتلخيصا وفنية ان صح التعبير ، وأشد تعمقا فى النظر الى الاشياء ، أيكون ذلك راجعا لاختلاف ثقافة الرجلين ؟ أو لاسباب أخرى قد تخفى علينا ؟ وعلى كل حال ، فليس من السهل تعليل ذلك الفرق وذلك التفاوت بين رجلين ما دام ابن جزى هو الذى حرر رحلة ابن بطوطة ونقحها ونسقها وبوبها . فله اذن يد فى ما جاء من الاوصاف والاخبار رغم ما التزم به فى مقدمتها من مراعاة للنص وتحرى للدقة والموضوعية . وكلامه الصريح فى ذلك يدل على أنه أضاف أشياء ونقص أخرى توضيحا للمعانى وتقريبا للرحلة من أذهان الناس . فالتوضيح قد يتناول الاسلوب كما يتناول الجوهر ، وخير حجة هى أن نستمع الى ابن زجى وهو يتحدث عن مقاصده وأهدافه وتحديد التزاماته(1) .. «نقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها وموضحة للمعانى التى اعتمدها وربما أوردت لفظا على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما ورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لابحث عن حقيقة ذلك .... وقيدت المشكل من اسماء المواضيع والرجال بالشكـــل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط وشرحت ما أمكننى شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس» . ففى هذا النص الصريح ما يغنى عن التعليق ، ويكفى للدلالة على ما أشرنا اليها سابقا .

وقبل أن نتخلص الى جوانب أخرى ، نرى من المفيد هنا ايراد أمثلة خاصة بوصف منار الاسكندرية ، ذلك المنار الذى تحدث عنه كل من ابن رشيد والعبدرى وابن بطوطة . وقصدنا فى ذلك هو اعطاء فكرة عن أسلوب كل من الرحالين الثلاثة فى موضوع واحد تناوله كل منهم بالحديث والوصف . اما ابن رشيد (2) فقد قال فيه « يعجز عنه الوصف ويحار فيه الواصف وضخامته من داخله اكثر مما هو عليه من خارجه وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المرئيات» وأما العبدرى فيصفه كما يلى : «وأما المنار فقد كتب الناس فيه وسطروا ما فيه الكفاية وقد دخلته وتأملته وما وصلت الى أعلاه الا بعد جهد ولا يظهر له من خارج فرط علو وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال وعلى تل مرتفع بشمال البلد وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى

1) تحفة النظار ، ص. 21

2) بحث للاستاذ محمد الفاسى فى مجلة دعوة الحق العدد الثانى السنة الثالثة صفحة 76 .

تآكل حجرته من الناحيتين فدعم منها ببناء وثيق اتصل الى أعلاه وزيد دعما بدكاكين متسعة وثيقة وضع أساسها فى البحر ورفع عنه نحو ثلاث قامات وباب المنار مرتفع عن الارض نحو اربع قامات ..» (1) ويستمر العبدرى فى وصفه لهذا المنار آتيا بكل جزئية وتفصيل رغم كونه يقول ويكرر.. «ان الناس كتبوا عنه وسطروا ما فيه من الكفاية» ولعل القارىء لاحظ ما فى هذه اللوحة من انتباه ودقة ملاحظة واختيار للالفاظ الموحية التعبيرية ، ذلك ما لم نجده فى وصف ابن بطوطة الذى غالبا ما اقتصر فيه على ما ذكره سلفه وللقارىء أن يرجع ان شاء الى رحلته ، فهى منشورة لا تكاد تخلو منها مكتبة أو خزانة أما نحن فقد تعمدنا نقل كلام العبدرى لان رحلته ما زالت غير معروفة ونسخها قليلة ولم تنشر نشرا كاملا بعد(2) .

وهكذا يتضح للقارىء الفرق بين هؤلاء الرحالين الثلاثة فى موضوع معين ويدرك مدى اختلاف أسلوبهم فى جانب من جوانب انتاجهم وهو وصف الاماكن والآثار . يختلفون كما وكيفا ، قوة وضعفا . فالعبدرى أكثر دقة كما قلنا ، وأرقى درجة فى هذه الناحية ؛ وابن بطوطة يميل الى البساطة والاكثار من العناصر المتعلقة بالاشياء ، والتفاصيل السطحية ، الناتجة عن الانطباعات الاولية . الا أنه يمتاز عن غيره باعطاء فكرة كافية عن العادات والتقاليد الاجتماعية المختلفة ، المتبعة مثلا فى الاكل أو اللباس أو الشرب أو حلق الرأس أو الحفلات التى تقام بالبلاد الاجنبية ، وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية المتنوعة ، سواء كان الامر يتعلق بالميدان الاجتماعى الصرف أو بميدانى الاقتصادى والثقافة . فرحلته من هذه الناحية حافلة زاخرة بالمعلومات التى قلما نجدها فى رحلة أخرى . أما ابن رشيد فقد كان فى رحلته ميالا الى الاختصار فى هذه لناحية وكنتيجة أخرى يلاحظ أيضا أن مؤلفى الرحلة كانوا فى حديثهم منصرفين عن الجانب الاجتماعى الذى يتمثل فيه الصراع القائم بين الطبقات الاجتماعية والمعارك التى تخوضها هذه الطبقات فى مرافق الحياة الاجتماعية وتحليلا خاصا لهذه المجتمعات التى زاروها وأقاموا بها مدة قد تطول أو تقصر . ورغم بصفة عامة . فلم نجد فى هذه الرحلات بصفة مقصودة أو غير مقصودة وصفا دقيقا ما ظفرنا به فى هذه الرحلات من معلومات تتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية وبعض الانظمة السائدة ، فان الرحالة المغربى قليلا ما يتعرض لوصف دقيق لاحوال أفراد المجتمع المادية ووسائل كسب العيش ، وأنواع المعاملات التجارية ، وطرق استغلال ثروات الارض ، ووسائل الانتاج ، ومستوى الدخل الفردى ، ومستوى التعليم والثقافة بصفة عامة كاملة ؛ كما لم يتناول بالوصف الدقيق والتحليل الشامل الجوانب الخلقية التى كثيرا ماتكون منحطةفى بعض البيئات. هذان الجانبان الجانب المادى والجانب الاجتماعى ، وان لم تخل منهما هذه الرحلات كانا جديرين باكساب هذا الانتاج

---

1) الرحلة المغربية ص 137 .

2) لم نتمكن من الاستفادة من تحقيق الاستاذ محمد الفاسى الذى نشرها بعد انجاز هذا البحث

الادبي المغربي قيمة خاصة وفائدة كبرى ، لو حللا من طـرف الكاتب بصفة أدق وأشمل . ولكن لكل عصر طاقاته ومستواه ومفاهيمه وطقوسه الخاصة . ولا يمكننا أن نحكم في عصر بني مرين مفاهيم ومقاييس وقيم العصر الحالي . وانما أبدينا هذه الملاحظات بقصد المقارنة وايثار بعض الاسئلة المتعلقة بالفروق بين المجتمعات الناتجة عن التطور الذي يخلق هذه المجتمعات ويكيفها .

النــــزعـــة التعليميـــة

ومن خصائص فن الرحلة الاهتمام بالناحية التعليمية كغاية مقصودة يهدف اليها الرحالة وهو يقوم برحلته كي ينمي معلوماته وينهض بمستواه الثقافـي عـن طريق الاتصال بكبار العلماء والفقهاء والشيوخ وأساطين المعرفة . فالرحالة كان سعيه وهو ينتقل من مكان الى آخر من مسجد الى مسجد ، مجالسة هؤلاء العلماء للاخذ عنهم والتدقيق فيما يروى عنهم من سند أو قول . فالتنقيب عن المشايـخ وذوي الصيت والشهرة الواسعة في ميدان العلم والمعرفة كان من الاهداف التي ينشدها الرحالة المغربـي . ولذلك كان يستسهل الصعوبات ويتحمل المشاق الجسام ويكابد ويعاني من الازمات والنكبات ما يجعل حياته أحيانا في خطر محقق ، ولكن الامر كان هينا بالنسبة اليه ، ما دام يجد لتحقيق غايته وسيلة من الوسائل التي كان يغامر في التوفر عليها . وسواء كان الامر يتعلق بالعبدري أو بابن رشيد أو بابن بطوطة ، فالظاهرة عامة وسائدة في هذا النوع من الادب الذي خلفه لنا هؤلاء المغاربة في عصر بني مرين ؛ فالرحلات التي كتبت في هذا العصر نجدها كلها حافلة بذكـر أسماء العلماء والمشايخ وكبار الفقهاء والمحدثين والصلحاء ، بل نجد فيها من التراجم لكبير الشخصيات ما لا نجده أحيانا في المؤلفات الضخمة التي كتبت خصيصا لهذه الغاية ولا أدل على ذلك من ملء العينة لابن رشيد ، فهي زاخرة بالاعلام وسجل ضخم لكبار الفقهاء والعلماء والمحدثين . انها نموذج ومثال ناطق . يكفي القارىء دليلا على ما نزعم ويرجع اليه متى شاء التأكد من صحة هذا الرأي . ان أول نظرة نلقيها عي هذه الرحلة تعطينا فكرة واضحة عن مقاصد صاحبها ونواياه الحقيقية ، حتى ليكاد القارىء يحكم عليها بأنها تقتصر على ذكر أسماء العلماء والادباء والمشايـخ والكتب التي كان المؤلف يكثر من قراءتها واستنساخ العدد الكبير منها . فابن رشيد هنا أصدق مثال لهذه الظاهرة لان ما ذكره من أعلام وما لقيه من شيوخ وما قرأه واستنسخه من كتب يكاد يشكل صلب الموضوع ويكون الاساس لرحلته ؛ تقـرأ الجزأ الاول أو الثاني أو الثالث من رحلته فلا تكاد تجد فيها سوى هذا النوع من المعلومات ، وكل ما سواه قد ياتي عرضا أو في اشارة عابرة أو كلمة خاطفة . فاذا قيس بغيره من مؤلفي الرحلات في هذا العصر ، اعتبر متفوقا في هذا الباب اذ اهتم به

اهتماما خاصا وأفرد له أكبر قسط من انتاجه فكثيرا ما تجد وأنت تطالع رحلته هذه العبارات «وممن لقيناه بالقاهرة والاسكندرية» التى يفتح بها كلامه ثم يسير بعيدا فى سرد العلماء والفقهاء وذكر نسبهم ومكانتهم العلمية ورواياتهم وسندهم الى غير ذلك من المعلومات التى تتجاوز أحيانا حدود الترجمة المألوفة .

ومن خلال تلك التراجم التى حفلت بها هذه الرحلات المغربية نستطيع أن نقف على نوع الاتجاه الثقافى الذى كان سائدا فى عصر بنى مرين ، فالثقافة التى كان المغاربة يجدون فى اكتسابها ثقافة دينية قبل كل شىء ثم لغوية وأدبية فلم يكن يهمهم غالبا سوى العلوم الدينية (القرآت ، الحديث التفسير) والعلوم اللسانية (اللغر والنحو والبيان والصرف والادب) وكتب الفقه على مذهب مالك . وهذا النوع من الثقافة هو الغالب فى الرحلات والجانب الذى يكون نزعتها التعليمية . هناك فروق يلاحظها القارىء بين مؤلفى الرحلة أنفسهم فى اتجاهاتهم الفكرية لكنها فروق كمية لا تخرج عن هذه الدائرة التى كانت تقريبا المجال الوحيد لنشاطهم الثقافى . فابن رشيد كانت غايته ترمى على الخصوص الى الحديث والتفسير اذ كان ذلك هو مجال اختصاصه ، فمؤلفاته كلها كادت تقتصر على هذا الجانب من العلوم ، ترك منها حسب ما وقفنا عليه ، المحاكمة بين البخارى ومسلم ثم ترجمان التراجم فى ابداء مناسبة تراجم صحيح البخارى ثم السنن الابين فى السند المعنعن ثم ايضاح المذاهب فيمن ينطبق عليه اسم صاحب الخ ... '

أما العبدرى فهو كذلك يهتم بالروايات وبالقرآت ويعتنى بالتحقيق فى الحديث والسند الا أننا نراه يتجه اتجاها أدبيا مركزا كما يصرف عنايته الى علوم اللغة والنحو والبيان فهو فى هذه الناحية أبرز وأكثر ميلا الى ضبط القواعد والتراكيب النحوية واللغوية حتى يخيل اليك وأنت تقرأ رحلته أنك أمام أستاذ فى النحو وفى اللغة وفى الادب والبيان . ان رحلته عبارة عن دروس فى هذه العلوم التى اضطلع فيها وأكثر من الخوض فى جوانبها وفروعها . تجد فيها من الشواهد النحوية واللغوية والعروضية كمية كبيرة ودقيقة ، مما يدل على نبوغ صاحبها وسعة أفقه فى هذا الميـدان .

ومما يتصل بهذا الاتجاه الفكرى أن العبدرى كان فى رحلته (نتيجة حتمية لذلك) من النقاد الذين يتتبعون بكل دقة وشدة ملاحظة ما يقع فيه الادباء من الاغلاط والهفوات التى تخالف قواعد النحو والصرف والبلاغة ؛ كان غير متساهل ، شديد الحساسية لكل ما يقال نثرا وشعرا قوى الحرص على تقويم المعوج من الكلام ، حاد النقد لاذعه ، صارفا عنايته كلها الى ما يصدر عن الادباء من نثر وشعر ليضع كلامهم فى الميزان ثم يحكم لهم أو عليهم حكما صريحا قاسيا مبنيا على الحجج وشواهد قوية يستدل بها للدفاع والاقناع ، وهو فى نقده هذا لا يتورع عن ذكر جميع المثالب

والعيوب ، لا يعرف المجاملة واللباقة أو التسامح ، يصدر حكمه على الخطىء كسهم خارق يصيب من أخطأ أو نسي أو خالف رأيه . بهذا الاتجاه الادبي تميز صاحبنا عن غيره من مؤلف الرحلات . لقد كنا نود أن نورد أمثلة كثيرة لكن مجال هذا البحث لا يتسع لها ولذلك نوجه عناية القارىء الراغب في التوسع الى الرجوع الى انتاج العبدري ليقف بنفسه على هذا الاتجاه ، على هذه الثقافة الادبية واللغوية المتينة التي عرف بها مؤلف الرحلة المغربية ، ومع ذلك فلا نريد أن نمر بدون أن ناتي هنا وبـمثال واحد لاعطاء فكرة ولو وجيزة عن رأينا ومذهب العبدري في رحلته .

فلنستمع اليه وهو يتحدث في رحلته عن ابن خميس بعدما أنشده قصيدة من شعره(1) : «قلت هذه القصيدة مهذبة الالفاظ والمعاني وألذ من نغمات المثالث والمثاني . ان مقطعها قلب ناب ، لا يلين ولو مضغ بدرس وناب ، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج ولا يزال السمع به يقلق وينزعج وقد راودته أن يلتحم فأبى وحاولته يلتئم فنبا ، ...» وهكذا يجد القارىء رحلة العبدري ، في كل صفحة من صفحاتها بل في كل فقرة من فقراتها نقدا مركزا ينصب على الالفاظ كما ينصب على المعاني ، يتناول الكلمة والجملة والعبارة كما يتناول التركيب النحوي واللغوي والوزن الشعري لتمييز صحيحه من فاسده .

وباختصار ، فالعبدري في رحلته هذه كان شاعرا وأديبا ولغويا ونحويـا اختلف عن ابن رشيد بعض الشيء في الاتجاه الفكري كما اختلف عن ابن بطوطة الذي لم يتعرض لهذا الجانب الا في ظروف خاصة وقليلة .

بعد هذا العرض الوجيز ، يحسن بنا أن نتساءل عن الاسباب التي جعلت مؤلفي الرحلة يبحثون في تنقلاتهم عن العلماء والشيوخ والفقهاء للاتصال بهم . ذكر بعضهم أنهم كانوا ينزعون هذه النزعة لانهم يرون في علماء المشرق أساتذة يجب الاخذ عنهم لانهم سبقوهم الى الميدان ونهلوا من المورد الاصيل(2) أما نحن ، وان كنا نرى في هذا الرأي حظا من الصحة ، فلا نجده كافيا لتبرير هذا الموقف وتعليله اذ السبب في رأينا أعمق وأبعد مدى ، ذلك أن الغاية من كثرة الاتصالات والاحتكاكات الفردية والجماعية كانت تهدف الى نتائج تربوية تعود على الرحالة المغربي بتكوين شخصيته ، وتدعيم مركزه وتمتين ثقافته ، كما كانت ترمي الى ربط صلات مع أعلام في المشرق أو في غيره ، توسيعا للافق وتوثيقا للعلاقات الثقافية التي كانت في العصر الوسيط جارية بصفة فردية وتلقائية ، اذ العلم حسب تعبير أنصار هـذه الاساليب التربوية يؤخذ من أفواه الرجال لا من الكتب ، ولا زالت هذه النظرية

---

1) انظر الرحلة المغربية ص 127 .

2) شعر المغرب الاسلامي بثقل هذه التبعية وبخطرها على شخصيته فأصبح ابتداء من القرن الحادي عشر يتحرر منها . انظر مقدمة الذخيرة لابن بسام .

سائدة الى اليوم ، لاسيما فى بعض مراحل التعليم حيث يعتبر الكتاب مصدرا ضرره أكثر من نفعه فى بعض الاحيان ، وهى نفس النظرية التى آمن بـها روسو (فى القرن الثامن عشر) الذى اعتبر الكتاب باعثا على الكسل والملل ودعا الى جعل الطفل بين أحضان الطبيعة ، يتعلم منها بواسطة الحواس وعن طريق الملاحظة المباشرة .

ومهما يكن فهذه الاساليب التربوية والتعليمية التى ظهرت فى الرحلات المغربية فى زمن بنى مرين تنطوى على فوائد جمة يعترف بها الآن علم التربية وعلم النفس الحديث . ولقد سبق لابن خلدون ان أعطى رأيه فى الموضوع حيث قال : «ان الرحلة فى طلب العلم ولقاءالمشيخة مزيد كمال فى التعليم فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»(2) ، فابن خلدون بكلامه هذا ما زاد على أن عبر عن الاتجاه المغربى فى ميدان التربية والتعليم وهو رأى سديد من الوجهة التربوية والتعليمية لا زال علماء العصر الحديث يعملون به حتى الآن .

وبما امتازت به الرحلة المغربية فى هذا العصر أيضا تضمنها لابيات شعرية من نظم المؤلف نفسه أو من انتاج غيره . وأول من برز فى هذا الميدان هو العبدرى الذى أكثر من النظم فى رحلته فكان شاعرا مجيدا ، ذا قلم سيال كما يقال . فالشعر بالنسبة اليه يصدر عن طبع سليم وعن تذوق للفن الادبى بصفة عامة ، ولا غرابة فى ذلك ، فالرجل كما رأيناكان يتوفر على ثقافة أدبية ولغوية متينة ، جعلته قادرا على نظم القصائد الطوال فى مواضيع مختلفة ومتنوعة ، فالسهولة كانت تطبع انتاجه ، والمرونة والغزارة كانتا الصفتين الغالبتين على هذا الانتاج . فقد رأيناه وهو يؤلف رحلته يتصرف فى اللغة والنحو والعروض والبيان تصرفا مطلقا اذ كانت هذه الوسائل أداة طيعة فى يده ، يسخرها متى شاء وحيث اراد ، فلا تكاد تقرأ صفحة أو فقرة من رحلته دون أن تعثر على بيت أو أبيات أو قصائد كاملة من بنات فكره . ينظمها نقدا أو معارضة أو تعقيبا على انتاج الغير ؛ أو لاعطاء مثال فى موضوع معين ، وهكذا نجد فى رحلته ، فضلا عن كثرة أبيات قالها فى عدة مناسبات ، ثلاث قصائد طوال : الاولى مدح بها أبا يعقوب يوسف والثانية بعثها كوصية لابنه والثالثة وهى آخر ما نظمه الرحلة نفسها التى حرص على تدوينها شعرا كما دونها نثرا . فالامثلة اذن كثيرة ومتنوعة فى رحلته ، ولا يمكن أن نورد منها الا نسبة قليلة خوفا من الاطالة والاطنـــاب .

فمن القصيدة الاولى قوله فى مدح السلطان المرينى أبى يعقوب يوسف :

فمن مبلغ علياه عنى من نظمـــى رسالة مستعد شكا ظلمة الظلم (2)

---

1) المقدمة . ص 148 .

2) الرحلة ص. 2

الى أن قال :

الى الملك السامى صعودا على الورى ... وليتهم فى الحرب والغيث فى السلم

ومن قوله بها الى ابنه :

أصغ سمعــا أوصك يا بنــى ... وصيــة والــد بــر حفــى
جرى القدر المتاح لنا ببيــن ... قضاء جـاء مــن ملــك على

ومن قصيدته التى ختم بها رحلته :

لسان حال أبلغ مــن بليــغ ... وفى ذى الجهل أعنى من عيــى
مسحت الارض غربــا ثم شرقــا ... أسائل عن عواقب كل حــى

واذا كانت رحلة العبدرى مرصعة بالابيات الشعرية حافلة بالقصائد الطوال حتى كادت تصبح ديوانا لصاحبها فان رحلة ابن رشيد تضمنت هى الاخرى أبياتا كثيرة منها :

تغرب ولا تحفــل بفرقــة موطــن ... .
فلولا اغتراب المسك ما حل مفرقا ... ولولا اغتراب مـا حـل فى تـاج

ان ابن رشيد ضمن رحلته ابياتا كثيرة وان لم يكن يعنى بقرض الشعر كما عنى به العبدرى ، فقد عرفنا له قصيدة فى رثاء ابنه أوردها الاستاذ كنون فى كتابه مشاهير رجالات المغرب ، يقول فى مطلعها :

شباب توى شابت عليه المخارق ... وغصن دوى تاقت اليه الحدائــق

الى أن قال :

محمــد ان الصبر فــيك مصــارم ... محمد ان الوجــد فــيك مواقــف
محمد ان الصبر صبــر وعلقــم ... على أنه حلــو المتابــه سابــق
فــان جــزعا فالله للعبــد صابــر ... وان جلدا فالله للوعــد صــادق
عليك سلام الله ما ان حن عاشق ... وما طلعت شمس وما ذر شارق(2)

الخ ....

---

1) فابن رشيد كان اذن شاعرا .

2) انظر المرجع المذكور ، ص .

أما بالنسبة لابن بطوطة فالامر واضح ، اذ أن ما عرفنا عنه أنه لم يقل شعرا الا بمناسبة اتصاله بملك الهند ويستنتج من رحلته أنه نظم قصيدة طويلة بهذه المناسبة غير أننا لم نجد فى هذه الرحلة سوى الابيات التالية :

اليك أمير المومنيـــن المبجــــلا	أتينا نجد السير نحوك فى البلا
فجئت فحلا من عـــلاك زائــــرا	ومغناك كهف الزيارة أهـــــلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبـة	لكنــت لأعلاهــا امامـــا مؤهــــلا
ولى حاجة من فضل جودك أرتجى	قضاها وقصد عند مجدك سهــــلا
أذكرها أم قد كفانــى حياؤكــم	فان حياكم ذكره كـــان أجمــــلا
فعجل لمن وافـــا فحلك زائـــرا	قضى دينه ان الغريمـــــة عجـــلا

والغالب كما يتضح من هذه الابيات ان ابن بطوطة رغم تكلفه وتصنعه مارس نظم الشعر قبل هذه المناسبة التى اضطرته الى التكسب بواسطة المدح . ولولا الحاجة الملحة والظروف المادية القاسية التى كان يتخبط فيها ، لما ظفرنا من صاحبنا بهذه الابيات التى قالها تحت الضغط ، ضغط الديون التى ارتكبها واستعجله أصحابها . أيكون ابن بطوطة فى هذه الابيات رغم قدرته على نظم الشعر يتحاشى خوض هذا الميدان ويتعالى عن الانتساب الى زمرة الشعراء كما فعل غيره فى هذا العصر وفى عصر آخر ؟ ذلك ما لا نستطيع الاجابة عنه الآن ، لان الوثائق التى بين أيدينا لا تساعدنا على القطع ما دمنا لم نلم بجميع ما يتعلق بحياة الرجل وبظروف نشأته . كل ما أمكننا الوصول اليه لحد الآن هو أن الرحالة المغربى يجيد الشعر رغم كون رحلته لم تتضمن من انتاجه فى هذا الفن الا تلك الابيات التى أوردناها آنفا .

وهكذا يتضح لنا أن الرحالين المغاربة فى هذا العصر كانــوا الى جانــب ثقافتهم الدينية واللغوية يتوفرون على ثقافة أدبية ظهرت آثارها جلية فى رحلاتهم ، فكانوا يمزجون النثر بالشعر ، وتلك ظاهره أدبية ظهرت فى الشرق العربى قبل هذا العصر منذ القرن الثالث والرابع قبل أن تستفحل فى القرون التالية وتصبح أمرا مقصودا يلتزمه الكتاب للترصيع والتنويع وتبيين قدرتهم على الجمع بين الفنون الاخرى . ونتيجة لذلك ، تضمنت هذه الرحالات المغربية كما رأينا ، لاسيما رحلة العبدرى ، أبياتا وقصائد طويلة فى بعض الاحيان .

والنتيجة التى نخرج بها من هذا البحث الــذى خصصناه لفــن الرحلة فى المغرب هو أن هذا الفن اكتسب شخصية قوية قائمة على أسس متينــة مشتركة وامتازت بخصائص معينة نجدها فى جميع الرحلات التى ألفت فى عصر بنى مرين ، فالرحالة المغاربة كما رأينا اتحدوا فى كثير من هذه الخصائص واتجهوا فى رحلاتهم اتجاها يكاد يكون واحدا . أما الفروق التى استنتجناها من المقارنة التى عقدناها أحيانا بينهم فهى فروق كمية فى أغلب الظروف ، راجعة الى رغبة هذا أو ذلك فى

التركيز والاهتمام ببعض النواحى التى قد تستأثر بعناية الرحالة وتظهره متفوقا على صاحبه فى هذا الجانب أو ذلك . فالميدان واحد رغم تعدد جـوانبه وتشعبهـا ، والخصائص مشتركة لا تنفرد بها رحلة دون أخرى . كل ما هنالك أن رحلة العبدرى غلبت عليها النزعة الادبية ورحلة ابن رشيد طغت عليها النزعة العلمية الدينية . أما رحلة ابن بطوطة فقد امتازت بطابعها الاجتماعى وهكذا نصل الى نتيجة وهى أنه اذا اجتمعت هذه الرحلات كونت وحدة كاملة متكاملة الجوانب متناسقة الاطراف متماسكة الاجزاء تشبه دائرة معارف أو موسوعة حسب الاصطلاح الحديث .

وهكذا تخلف لنا البيئة المغربية فى عصر بنى مرين تحفة نفيسة وأثـرا اديبا خالدا يتمثل فى ادب هذه الرحلات القيمة التي اغنت التراث الفكرى المغربى وآكسبته شهرة واسعة بفضل جهود هؤلاء الرحالين المغاربة وعبقريتهم . وناهيك بابن بطوطة الذى أصبح ذكره تردده ألسنة الطلبة والمثقفين وتتحدث عنه الاوساط الشعبية فى المغرب وخارج المغرب .

نظرا لما احتوت عليه رحلته من فوائد جغرافية واجتماعية تتصل بحيـاة المجتمعات البشرية بثقافتهم بأخلاقهم ، بعاداتهم ، بتقاليدهم بنماذج حضارتهم الخ... تلك المعلومات التى لم يكن من الممكن الحصول عليها فى ذلك العصر لولا هؤلاء الرحالة الذين أفادوا الطالب والاستاذ والعالم الجغرافى والاديب وعالم الاجتمـاع والمؤرخ والفقيه .

البـــاب الــرابـــع

مظاهــر أخـرى للحيـاة الادبيـة

1) العلوم الدينية
2) العلــوم العربيــة
3) العلــوم البحتــة
4) الــريــاضيــات
5) العلــوم الطبيعيــة

العلــــوم الـدينيـــة

جرت العادة عند مؤرخي الآداب العربية أن يقسموا العلوم الى قسمين قسم يتضمن العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقسم آخر يشتمل على مـا سوى العلوم الدينية من طب وفلسفة ورياضيات وكيمياء وفيزياء وتنجيـم ، وباختصار قسموا العلوم الى نقلية وعقلية بمعنى أن النوع الاول يكتفي فيه المسلم باستيعاب ما وضع في الميدان الديني والالمام بما خلفه الاجداد الواضعون لهذه العلوم للحفاظ عليها والدفاع عنها في كل مناسبة وكل ظروف . أما النوع الثاني فهو يتطلب مجهودا فكريا آخر نظرا لاعتماده عـــلى العقل واهتمامـــه بالبحث والنقـاش والاختـراع والاستكشاف .

وواضح من هذا التقسيم ، كما يستفاد من موقف بعض مؤرخي الاسلام(1) ان العالم فيما يرجع للعلوم الدينية يكتفي ، كما أشرنا الى ذلك ، بمعرفة ووعي ما تركه السلف مقصرا مجهوداته الفكرية ولادارية على فهم هذا التراث الديني وفحصه وتتبع مراحل وضعه والتأكد من سلامة أسسه .

ومهما يكن من أمر فالعلوم الدينية في الشرق العربي خطت منذ الفتـح الاسلامي ، خطوات جريئة وأرست قواعدها وتبثت أركانها ، وحافظت على كيانها عبر العصور والظروف العصبية التي اجتازتها فخرجت منها ظافرة منتصرة ، معززة الجانب وقوية الشخصية ، فلم يكد يشرف القرن الثالث الهجري على النهاية حتى كانت هذه العلوم قد نضجت ، واكتسبت شخصيتها واستقلالها ، وأدركت مكانتها المنيعة وتحصنت بحصن حصين . لم يكد ينتهي هذا القرن حتى كان الطبري قد أنجز مشروعه الضخم في التفسير وحتى كان مالك قد أتم مؤلفه الضخم في الحديث كما ظهرت الكتب الصحاح التي ظلت الى اليوم المرجع الاساسي في هذا الميدان الاخير . وفي القرن الثالث تم كذلك تأسيس المذاهب الفقهية الاربعة التي انفردت بالسلطان وبالزعامة . وسيطرت على العالم ، وتنازعت اجزاءه ، رغم ظهور مذاهب أخرى سرعان ما خفت صوتها ، واندثرت معالمها ، وتركت الميدان فسيحا للمذاهب الاخرى كي تكتسحه وتظل مسيطرة عليه الى اليوم .

ومن هنا يتضح أن العلوم الدينية الاسلامية آتمت بناءها وشيدت صرحها بسرعة أثارت اعجاب كثير من مؤرخي الديانات الاخرى ومؤرخي الاسلام أنفسهم . ان علماء الاسلام لم ينتظروا طويلا في هذا الميدان . ولم يضيعوا وقتهم في الجدل

---

1) ابن خلدون نفسه في المقدمة حيث تأثر بهذا التقسيم للعلوم أنظر الفصل الخاص بالعلوم .

والنقاش ، فبادروا الى رسم الطريق بصفة نهائية ، وكأنهم خافوا على مستقبل هـذه العلوم فانجزوا بتلك السرعة ما أنجزوه من أسس ومشاريع ، وكأنهم أرادوا أن يغلقوا الابواب كي لا تتسرب اليها يد عابثة ..

أما القرون التالية ، أي ما بين الثالث والثامن هجرى فلم تزد هذه العلوم الا تباثا واستقرارا ومناعة رغم محاولات المعتزلة والصوفية الجريئة ، ورغم نداءات ابن حزم وابن تيمية المتكررة للرجوع الى الاصل وفتح باب الاجتهاد ، رغم تلك المواقف الجريئة ، ورغم تلك المجهودات الجبارة التى قام بها بعض الفلاسفة بصفة أخص ، بقيت العلوم الدينية محافظة على كيانها وعلى اطارها الاساسى ، ممتنعة من كل تجديد يرمى الى العمق وقلب الاوضاع .

ذلك ، بصفة اجمالية ، هو الوضع الذى ساد الشرق العربى فيما يرجع للعلوم الدينية . فماذا كانت عليه الحالة بالنسبة للمغرب ؟ ان المغرب الاقصى جزء لا يتجزأ من العالم العربى ، وبهذه الصفة خضع لما خضعت له باقى الاجزاء المكونة لهـذا العالم ، ليس بخاف ما كانت عليه الاقطر العربية ، لا سيما فى القرون الوسطى ، من روابط دينية متينة وعلاقات ثقافية وحضارية جمعت اواصر المسلمين ووحدت صفوفها سواء كانوا فى الشرق أو فى الغرب ، فكان طبيعيا أن يتأثر المغرب بما كان يجرى فى المشرق ، بل كان حتميا ان يتأثر به نظرا لنفوذه المعنوى وزعامته الدينية وسلطته الروحية التى ظل المغرب يستمد منها تعاليمه وقيمه الى عصور متاخرة . ان الشرق العربى هو مهبط الوحي والقبلة التى كان المغاربة يولون وجوههم شطرها فى الحل والترحال لياخذوا منها قوتهم ويقتبسوا منها طريـــق الرشد والمعرفة الصحيحة كي يقوموا سلوكهم وينهجوا الطريق المستقيم التى رسمها لهم أساتذتهم فى العلوم الدينية على الخصوص . ألم يكثروا من الرحلة الى هذا الشرق رغم المشاق والخسائر التى كانوا يتكبدونها ، للاخذ عن هؤلاء الاساتذة والرجوع الى بلادهم وهم مزودون باقوى سلاح .

الا ان مـا حدث فى الشرق العربى لـم يحدث مثلـه فى المغرب الاقصى بالنسبة للعلوم الدينية . لم يعرف المغرب تلك الصراعات العنيفة وتلك الخلافات الحادة التى كانت تقوم بين علماء الدين والمعتزلة والفلاسفة على الخصوص ، والتى عرضت العالم العربى ، غير ما مرة ، الى أزمات سياسية خطيرة ، لم يعرف المغرب من ذلك أى شيء تقريبا بالنسبة لما كانت عليه الحالة فى الشرق فكانت النتيجة ان قويت هذه العلوم وسيطرت على ما سواها ، كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق ، نظرا لخلو الميدان من تلك النزاعات العنيفة وتلك المعارك الطاحنة التى كانت تتنازع الشرق العربى بوجه أخص . وفى مقدمة هذه العلوم نرى مذهب مالك فى الفقه ياخذ المكانة الاولى ، بل ينفرد بالميدان ويهيمن على البيئة المغربية منذ قيام دولة المرابطين،

ورغم الاصلاح الذي قام به بنو عبد المومن والاجراءات العنيفة التي أخذوها للقضاء على مذهب مالك وعلى أنصاره فان الحالة في جوهرها بقيت كما كانت عليه الى أن استولى بنو مرين على الامر فازدادت عمقا وتركزت في جميع القطر المغربي على الصعيد الرسمي وعلى الصعيد الشعبي .

فانتصر المذهب المالكي وانتصر اصحابه من جديد ، ولم يكن غريبا ان تبذل المجهودات الجبارة والعناية الخاصة لوقايته ولرعايته ، وللالمام باصوله وفروعه ، فكان الامر كذلك في الواقع اذ اصبحت الدولة والاوساط العلمية وطبقات الشعب المختلفة لا تفكر في سواه ، ولا تقتبس معلوماتها الدينية والدنيوية الا منه ، باذلة أقصى الجهود لتفهم نصوصه واحكامه ، مطبقة بالحرف ما جاء في أصوله وفروعه . فكثر عدد الفقهاء وضخم انتاجهم حتى اصبح من العسير احصاؤهم بالضبط كما أصبحت مؤلفاتهم تقدر بالكميات الوافرة التي لا يمكن الاتيان على ذكرها وجمعها في قائمة محصورة . لذلك نرى من المناسب هنا ان نذكر بعض الشخصيات المغربية البارزة في عصر بني مرين قصد اعطاء فكرة للقارىء عما ذهبنا اليه .

وقبل ذلك نلاحظ اولا هنا ان التخصص بمعناه الحديث لم يكن معروفا في ذلك العصر اذ كنت تجد الفقيه أديبا ، والشاعر فيلسوفا والصوفي عالما رياضيا وفقيها وطبيبا في نفس الوقت ، كما كنت ترى بعض الشخصيات التي سنتعرض لها فيما بعد تلم بعلوم كثيرة وتتقن فنونا مختلفة ، مما يثير الاعجاب اليوم ، ويدهش علماء النفس والتربية خصوصا المتطرفين في الدفاع عن ميدان التخصص في سن مبكرة ، الا أن المهم بالنسبة لموضوعنا هنا هو أن الثقافة الاسلامية في عصر بني مرين أصبحت تعتمد على الفقه المالكي كأساس للمعرفة واصبحت المناهج تنص عليه كمادة رئيسية لذلك كان الطبيب فقيها والشاعر فقيها والفيلسوف والكاتب والحسابي وغيرهم كانوا فقهاء قبل كل شيء . كذلك كان ابن المرحل والعبدري وابن رشيد وابن بطوطة وابن البناء (1) وغيرهم من اعلام هذا العصر . يكفي أن نشير الى أن هذا الاخير ، رغم اشتهاره بالعلوم الرياضية وبروزه فيها ، ترك لنا مؤلفات في التفسير وفي الحديث وفي الفقه ، نذكر منها تفسير الباء من البسملة ، الجزء الصغير على سورتي انا أعطيناك الكوثر ، والعصر ان الانسان لفي خسر . حاشية عى كشاف الزمخشري ، الاقتضاب والتقريب للطالب اللبيب في أصول الدين ، المقالة في الرد على مسائل مختلفة فقهية ونحوية ، كتاب تسمية الحروف وقضية وجودها في اوائل صور القرآن ، رسالة في اسماء الله

---

1) انظر ترجمة هذه الشخصيات في الباب الثاني .

الحسنى ، هذه كلها مؤلفات تعالج مشاكل دينية من تفسير وحديث وفقه ، وهى ان دلت على شيء فانما تدل على ان صاحبهــا كان يتوفر على ثقافة دينية وعــلى تضلــع كبير فى الفقه واصوله بالاضافة الى تبحره فى علوم اخرى سنرى فى موضــع آخــر ما هو نوعها .

الا ان علماء آخرين ، فضلا عن مشاركتهم فى علوم مختلفة ، برزوا فى ميدان الفقه ، واشتهروا به وصالوا وجالوا فى ميدانه ، فكانوا أساتذة عصرهم وائمة لمن جاء من بعدهم ، نذكر منهم على سبيل المثال العلامة الفقيه عبــد الرحمان بن عفان الجزولى المتوفى سنة 741هـ بفاس اتفق مترجموه على أنه كان ذا منــزلة رفيعــة فى الاوساط العلمية بفاس وشهرة واسعة فى ميدان الفقه . ذكر صاحب الجذوة (1) انه كان اعلم الناس بمذهب مالك وان مجلسه كان يضم اكثر من ألــف فقــيه معظمهم يستظهر المدونة ، كما حكى ان السلطان ابا الحسن المرينى نزل عن عرشه عند ما لقيه ، اجلاله وتعظيما لمقامه ، ومنهم الفقيه موسى بن محمد بن المعطى العبدوسى المتوفى سنة 776هـ ، وحكى عنه مترجموه أنه كان من أئمة الفقهاء فى عصر بنى مرين ، ويكفى دليلا على ذلك ان عددا كبيرا من الفقهاء والمدرسين وحفاظ المدونة تتلمذوا له رغم مكانتهم العلمية وثقافتهم الدينية العالية . ومنهم القباب أبو العباس احمد ابن عبد الرحمان(2) المشهور بحفظه لمذهب مالك وتأثيره المباشر على فقهــاء عصره . لقد كان هو الآخر اماما من أئمة الفقه المالكى فى عصر بنى مرين كــما بــذل نشاطا فى ميدان البحث والنظر . وقد توفى بفاس سنة 779هـ . ومنهم محمد بن الفتــوح التلمسانى المتوفى بمكناسة الزيتون سنة 818هـ ، وهو فى نظر كثير من المؤرخين أول من ادخل مختصر خليل ابن اسحاق المالكى الى فاس ، عاصمة المغرب العلمية ، وقلبها النابض ، ومهد حضارتها وازدهارها العمرانى فى هذا العصر الذى مؤرخ له . كما نبغ فى هذا العهد عالم آخر من اعلام الفقه المالكى ، اعنى به ابا الحسين الصغير الزرويلى المتوفى سنة 719هـ ذكر ابن القاضى(3) انه كان يفتح فى مجلسه ما ينيف على الثمانين ديوانا فيعرضها حفظا عن ظهر قلبه ، وقد ولى القضاء بتازة ثم بفاس ، ومن اعلام هذا العصر فى الفقه كذلك محمد بن سليمان الشطى الفاسى شيخ الفتيا وامام المذهب اختاره أبو الحسن سفيــرا له بتونس سنــة 746هـ ليخطب الاميــرة عزونــة الحفصية ثم قفل راجعا .

1) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 251 .

2) انظر ترجمته المفصلة فى الباب الثانى من هذا البحث .

3) الجذوة (المطبعة الحجرية) صفحة 278 .

لكنه غرق في البحر سنة 750هـ . ولا يجب أن ننسى هنا العلامة الشهير ابن الشاط ابـاالقاسم بن عبد الله بن محمد الانصاري السبتي ، كان مـن ائمـة مالك واستاذ عصره ، تتلمذ له عدد كبير من الفقهاء والقضاة والمدرسين . ولو بسبتـة سنة 643هـ وتوفي بها سنة 723هـ ، أما ابن غازي المكناسي فشهرته في الفقه والاصول لا تخفى على ذي اطلاع على الحركة الفكرية في هذا العصر . هو أبو عبد الله محمد بن احمد ابن علي بن غازي نشأ بمكناس ثم رحل الى فاس واستوطنها الى أن توفي بها سنة 918 هـ كان له المام كبير بالعلوم اللسانية والتفسير والحديث الى جانب شهرته الواسعـة وتبحره في الفقه وأصوله . كان من الفقهاء البارزين في عصر بني مرين . اما الكتب التي ظهرت في هذا العصر والتي تعالج مسائل دينية وفقهية فهي كثيرة كما ذكرنا . لذلك نكتفي ببعضها فيما يلي :

مؤلفات ابن البناء المراكشي : تفسير سورة الكوثر : تفسير سورة العصر، حاشية على الكشاف ، تفسير الباء في البسملة ، المتشابه اللفظ في القرآن ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في اوائل السور : الاقتضاء والتقريب للطالـب اللبيب في أصول الدين رسالة في اسماء الله الحسنى . منتهى السهـل في علـم الاصول مؤلفات ابن رشيد ، المحاكمة بين البخاري ومسلم : السنن الابين في السند المعنعن ، ترجمان التراجم في ابدال وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري ، مؤلفات ابن غازي العثماني المكناسي ، التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهـل المنـزل والناد ، شفاء العليل بشرح خليل . تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كليات في الفقه المالكي ، نظم على الطرق العشر . ارشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب ، اسعاف السائل، امتاع ذوي الاستحقاق ببعض زوائل الرادي وفوائد أبي اسحاق المرادي . مؤلفات مالك ابن المرحل : التوشيات النبوية : الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيـا والآخرة . العشريات الزهدية : ارجوزته المسماة بسلك النخل : نظم كتاب التيسير ارجوزة عارض بها الشاطبية : قصيدة الفرائض المسماة بالواضحة : نظـم غريب القرآن لابن عزيز شرح حرز الاماني في القراءات والبارع في قراءة نافع ابن جروم ، تقييد على المدونة ، شرح الرسالة ، شرح التهذيب لابن أبي يحيى التسولي المتوفى سنة 749 ، الدر النثير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة تقييد على التهذيب لابي الحسن الصغير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة ، تقييد على التهذيب لابي عمران العبدوسي المتوفى سنة 776هـ ، شرح مختصر خليل للقوري المتوفى سنة 872هـ . تعليق على المدونة للسطي المتوفى سنة 750هـ(1) .

---

1) ارجع الى النبوغ المغربي ج 1 ص 181 ـ 190 للتوسع في الموضوع .

هذا بعض من كل جزء من مجموعة الكتب التى ألفت فى هـذا العصر فى الميدان الدينى بصفة عامة وهى ، كما يلاحظ القارىء تعطينا فكرة واضحة عـن نـوع النشاط الفكرى الذى بذله فقهاء هذا العصر . انه نشاط كمى قبل أن يكون كيفيا بمعى ان المجهودات الجبارة التى بذلوها كانت كلها تقريبا منصرفة نحو الجمع والحصر . والتعليق والشرح ، والتفسير والتقييد على الهوامش والاختصار والمقارنة واختصار المختصرات مجهودات هامشية قلمـا تعالج الموضـوع فى جوهره لتخرج بنظريات جديدة أواصلاح جـذرى يتقدم به البحث النظرى خطوة الى الامام ولعـل القارىء لاحظ من خلال الكتب التى سردناها أنها تدور كلها تقريبا حول مدونة سحنون ورسالة ابن أبى زيـد القيروانى وكتـاب ابـن يونس وكتـاب التهذيب للبرادعـى وواضحة ابن الحاجب فى الفقه كما كـانت تـدور فى التفسير حـول الزمخشرى والطبـرى وفى ميـدان الحديـث لم تكـن تتجاوز الموطـأ وصحيـح البخـارى ، وصحيح مسلم وسنن النسائى وباقى الكتب الاخرى المعتمدة فى الحديث لم تـكن تتجاوز هذه المراجع الاساسية التى ظلت المحور الرئيسى الذى تدور فى فلكه .
نعم لقد بذل هؤلاء الفقهاء جهودا لا تنكر فى الجمـع والتأليف والشرح والتحليل فأنتجوا مؤلفات ضخمة جديرة بالاستحقاق لكن يلاحظ عليهم انهم لم يستطيعـــوا تحطيم القيود والاغلال والخروج بنظريات جديدة من شأنها أن تخلق تيارا جديـدا وتطويرا للمفاهيم والاحكام الفقهية لجعلها ملائمة للظروف التى كانت تجتازها البيئة فى عصر بنى مرين ، لم يستطيعوا التحرر من القيود والتقدم بالبحث كما فعل ابن حزم وابن تيميه ، وبذلك بقيت مجهوداتهم رغم قيمتها الادبية محدودة الافق راجعة الى الوراء فى معظمها ، فكانت النتيجة ان ساعدوا على الاستقرار ثم الخمود الذى أصاب العالم العربى كله فى هذا العصر قبل أن يصاب بالانحلال فى ميدان العلوم الدينية وفى غيره من الميادين الاخرى التى تمثل حضارته ، فماذا فعل هؤلاء الفقهاء اذ تركنا جانبا تلك المجهودات التى بذلوها فى الجمع والتأليف والشرح والتحليل ؟ لم يقوموا بشىء يذكر اذا استثنينا نظرية العدوسى التى تعتبر جريئة لاسيما فى عصر بنى مرين حيث الابواب مغلقة وحيث «الاجتهاد مستحيل» : ويتعلق الامر هنا بعبد الله محمد بن موسى بن معطى العبدوسى الخطيب بجامع القرويين ذكر عنه ابن القاضى(1) انه كان اماما فى نصح الامة وانه أمات كثيرا من البدع الكائنة بالمغرب وأقام الحدود والحقوق ، واذا كانت هذه النظرية البريئة لم يكتب لها النجاح ولم تخلق تيارا فكريا أو عمليا فان صاحبها يعطينا فكرة عن بعض المحاولات التجديدية التى كانت تظهر فى بعض الاحيان لتحطم القيود وتحرير الوضع من سيطرة سلطـة الفقهاء وجمودهم . «خصوصا اذا تصورنا الوضع القائم فى عصر بنى مرين من الناحية

---

1) الجذوة صـ 137

الدينية واستطعنا تقدير خطورة الموقف بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يحاولون التجديد في بعض الظروف» .

ومع ذلك فالاوضاع في جوهرها بقيت هي‌هي ، مستقرة ، جامدة لم تات بشيء جديد بل كانت تحاول الرجوع الى الوراء والتشبث بالقديم والاعتصام به كي لا تتزحزح أركانه وتضيع آثاره .

فمن المسؤول اذن عن هذا الجمود ؟

ليس من السهل هنا تحليل جميع الاسباب التي كانت وراء هذا الجمود الذي أصاب العلوم الدينية في الصميم . ومع ذلك فمن للمكن اذا أردنا الاختصار، ان نرجعها الى عوامل رئيسية نحصرها في النقط الرئيسية التالية :

1) بنو مرين

2) الوضع الاقتصادي

3) الوضع السياسي

4) سلطة الفقهاء

5) المذهب المالكي نفسه

6) طرق التربية والتعليم

ان بني مرين بوصفهم ممثلي السلطة المرينية والروحية شجعوا العلوم الدينية تشجيعا خاصا الا أن تشجيعهم كان من حيث لا يشعرون ، عاملا من عوامل الاستقرار والجمود الذي طبع هذه العلوم في عصرهم . فما أن استولوا على أرض الدولة حتى أصبحوا ينادون ، بكل قواهم ، بالرجوع الى مذهب مالك . والعمل على تقويته وصيانته ، وتركيز أسسه في جميع القطر المغربي انتقاما من بني عبد المومن المنهارين ، وأصحاب الدعوة الجديدة ، والنزعة الخطيرة التي كانت وبالا على فقهاء مالك في ذلك العصر حيث كانت كتبهم تحمل أكداسا لتحرق على مرأى ومسمع منهم ومن سائر طبقات الشعب ، شجعوا بأموالهم وبنفوذهم الطلبة والعلماء على نهج طريق واحد واتباع خطة واحدة وهي الاكتفاء بما سبق أن قرره فقهاء مالك وما سبق أن فرعوه في عهد المرابطين .كان باستطاعتهم ، نظرا لما كانوا يتوفرون عليه من سلطة مادية ومعنوية أن يحولوا الاتجاه ويغيروا الاوضاع ويصرفوا أنظار الفقهاء الى البحث والنظر للقيام بمحاولات جديدة أو أي اصلاح ، كما فعل بنو عبد المومن لكنهم لم يفعلوا ، بل حددوا الافق ، وضغطوا على التفكير فوجهوه توجيها مرجعيا

فصرفت الهمم والطاقات العقلية فى المجمع والحشر والتكديس والبحث عن القديم ، وهكذا كانت الوظائف لا تسند الا لمن تأكدوا من سلامة عقيدتـه ، وصفاء اتجاهـه ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن مرزوق فى مسنده عـن أبـى الحسن المرينى الـذى كان ينفر من كتاب أبى العباس احمد بـن شعيب الجزنائى ، روى ابن مـرزوق أن اسلطان المرينى كان يميل عن هذا الكتاب لسبب يجهله ، رغم غزارة عـلم صاحبه ومشاركته في فنون مختلفة كالطب والكتابة والادب وغير ذلك — فلماذا كان أبو الحسن لا يعطف عليه كسائر الكتاب ؟ يجيب ابن مرزوق «انه لم يعرف سبب هـذا النفور وأنه ما عرف عن أبى العباس شيئا يخل بالعقيدة وأنه تحدث معه وجربه فى أمور كثيرة فلم يلاحظ فيه ما يتنافى والاتجاه المستقيم»(1) «والاتجاه المستقيم» فى نظر ابن مرزوق هو تطبيق أحكام مالك بالحرف والنص ، واذا كان ابن مرزوق يحار فى تعليل هذا النفور ، فالسبب فى نظرنا راجع الى ان الجزنائى كان يشتغل ، كما سنرى فيما بعد ، بعلوم أخرى ربما كانت تتعارض مع ما قرره الفقهاء .

أما العامل الثانى الذى شجـع هذا الجمود هو الفقهاء انفسهـم وتعاونهـم مع رجال الدولة من ملوك وعمال وغيرهم ، فالفقهاء ، كما أشرنا الى ذلك ، استرجعوا قوتهم التى أصبحت فى عصر بنى مرين أقوى مما كانت عليه فى أى عصر آخر ، فاستبدوا بالرأى العام ، وسيطروا هم الآخرون على الاتجاه السائـد فى العقيدة وفى الاحكام الشرعية ، ونعتوا كل من حالفهم فى التفكير وفى العقيدة وفى السلوك العملى، بالسلوك القبيح ، ورموه بأوصاف من شأنها أن تعرضه لانتقادات كثيرة ، فلنتذكر بهذا الصدد ما وقع لابن الخطيب فى المغرب الاقصى حيث هدر دمه وأحرقت جثته ، لا لذنب ارتكبه ، وانما كان ذلك بايعاز من الفقهاء الذين رأوا فى شخصه خطرا على مصالحهم ، فلفقوا ، تحقيقا لغايتهم ، وانتقاما منه ، أقاويل ، وحبكوا المؤامرات ، واتهموه ، باسم الدين ، فى عقيدته حتى أصيب بما أصيب به فى العاصمة العلمية المغربية فى عصر بنى مرين على مرأى ومسمع من الملأ ، ان سلطتهم ، بعيدة عن النقد والمناقشة ، معصومة من الخطأ والعيوب ، فكان الفقيه اذا أفتى أو تدخل فى قضية ما سمع وأطيع ونفذ أمره فى الحين ، بدونمراجعة واستثناء . فلنذكر هنا أيضا ما وقع بـين القاضى أبـى الحسين الصغير والوزير ابن يعقوب الوطاسى وما دار بينهما من خصومات عنيفة أدت الى تدخل السلطان نفسه للبت فى الامر ، فما كان من هذا الاخير الا أن انتصر للقاضى الفقيه ضد وزيره الذى أصبح معزولا منذ ذلك الحين ولنفس السبب أيضا أصبح فى استطاعة الفقهاء أن يثوروا حتى على الملوك أنفسهم نظرا لما كانوا يتمتعون به من نفوذ معنوى ومن سلطة لدى الشعب . يكفى ، كمثال آخر ، أن نشير هنا الى

---

1) راجع المسند الصحيح الحسن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ورقـة 65 ، انظر ايضا بحثا لليفى بروفانسال فى مجلـة هيسبريس سنة 1925 ج 5 ص، 58 .

المؤامرة التي حبكها الفقيه عبد العزيز الورياغلي ضد السلطان عبد الحق المريني الذي فقد عرشه اثر هذه المؤامرة التي دبرت بايعاز من فقهائه .

ونتيجة لما سبق لم تكن تسمع في أيامهم ، كما يحدث في الشرق العربي ، لا خلافات مذهبية ولا صراعات عقدية ولا ادنى معارضة فكرية الا في القليل النادر . فبقوا وحدهم في الميدان فارضين سلطتهم على غيرهـم ، سالكين سياسة ثقافيـة دكتاتورية ان صح التعبير .

أضف الى ذلك أن الحالة السياسية بالبلاد لم تكن من شأنها أن تساعد على خلق جو يناسب التفكير الحر ، ويشجع باب الاجتهاد والاعتماد على العقل . ان الحروب والاضطرابات والفتن الداخلية والخارجية لم تكن قط عاملا مشجعا للحركة الثقافية بصفة عامة وللتفكير الحر بصفة خاصة . لقد سبق أن رأينا في الباب الاول من هذا البحث ما كانت تجتازه البيئة المغربية في هذا العصر من أزمات سياسية خطيرة وأحداث انقلابية كثيرا ما عرضت البلاد ، لاسيما في البداية وبعد انقضاء عهد أبي عنان ، لاخطر العواقب وأسوأ النتائج ، لقد رأينا ما كانت عليه هذه البيئة من صراع حاد بين بني مرين وبين بني عبد الواد بالجزائر من جهة وبين قبائل عبد المومن من جهة أخرى ، أما الحرب في الاندلس فكادت تكون مستمرة ومهددة ، فالدولة ورجالها كانوا دائما في شغل شاغل ، وفي استعداد دائم لمواجهة الحروب والفتن والاضطرابات الداخلية في السهول والجبال ، حتى العلماء والفقهاء أنفسهم كانوا يشاركون الجنود ويصحبونهم هنا وهناك ، ألم يكن أبو الحسن يصحب معه عددا كبيرا منهؤلاء الفقهاء فيكثير من تنقلاته وتحركاته العسكرية حتىان عددا لايقلعناربعمائة ذهب ضحية هذه التحركات العسكرية وغرق في البحر(1) وغني عن البيان أن جوا عسكريا مثل هذا لا يساعد على تحرير الفكر وعلى راحة البال اللازمة لكل نشاط ثقافي . فلم تكن من مصلحة الدولة أن ينشغل خدامها ورجالها بأمور أخرى غير الوضع الراهن والاستعداد لحالة الطوارىء ، ولم يكن يهمها الا أن تبقى ما كان على ما كان كما يقال .

وأهم من ذلك ، وكنتيجة لهذه الحالة السياسية المضطربة اصبح المغرب يعيش من الناحية الرسمية في عزلة شبه تامة عن الشرق الذي كان يستمد منه كثيرا من قيمه ومثله ، اصبح يعيش وحده بعد ان كانت صلاته وثيقة مـع الشرق ، نعم لقد وقع الانفصال منذ انسحاب الفاطميين من المغرب : لكن العلاقات المشرقية المغربية ازدادت فتورا وضعفا بحيث أصبحت مقتصرة على علاقات فردية تتمثـل

---

1) ابن القاضي الجذوة (المطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ) صفحة 248 .

في بعض الاشخاص المغاربة الذين كانوا يسافرون بقصد الحج او بقصد الاخذ عن العلماء ، وفي بعض المشارقة الذين كانوا يفدون على الاندلس او المغرب لاسباب لا مجال لتفصيلها هنا ، وبقطع النظر عن هذه الصلات الفردية لم يبق للمغرب اي اتصال عملي بالشرق ، والا ، فكيف يمكن ان تبقى المواصلات مستمرة والمغرب يجتاز آنذاك ظروف عصيبة من أقصاه الى أقصاه حتى اصبح المسافر القاصد بيت الله الحرام لا يأمن على نفسه ولا على متاعه وهو لم يبعد عن فاس الا بمسافة قصيرة(1) . فالطرق اذن كانت مخيفة والاهوال محيطة بالمسافر اينما ولى وجهه وارتحل الا في أماكن قليلة يجد فيها الراحة والامن الضروري لوقاية نفسه من شر العابثين وظلم الفاسدين واجرام قطاع الطرق . ولذلك وقع بالمغرب الانكماش ، وحل به الانطواء الذي اصابه في ثقافته وفي اقتصاده ، فكانت النتيجة أيضا هي الجمود والركود في ميدان العلم والمعرفة بصفة عامة وفي ميدان العلوم الدينية بصفة خاصة .

ولو بقي المغرب على اتصال وثيق مع الشرق العربي لا استفاد من تلك الصراعات العنيفة وتلك المعارك الطاحنة التي كانت رحاها تدور هناك بين الفقهاء وبين المعتزلة والفلاسفة ، ولو قدر له ذلك لا استفاد ايضا من الاحتكاك المباشر الذي كان قائما بين العرب وبين الاجانب ممن يتوفرون على ثقافات مختلفة نظرا لما للاحتكاك بين عناصر مختلفة من آثار ايجابية على الفكر والعاطفة اذ بفضله يقع الجدل والنظر والنقاش ، وردود فعلية من الطرفين تعود على البحث والمصادات الذهنية بفوائد جمة ، لو وقع ذلك لغير المغرب من وجهة نظره وتطور فكره وانطلق من عقاله الى آفاق جديدة ربما كانت السبب في فتح أبواب جديدة امام الفكر الديني .

اما الحالة الاقتصادية فكانت هي الاخرى تشكل عاملا أساسيا في هذا الركود الذي تميزت به العلوم الدينية في عصر بني مرين . ان الازدهار الاقتصادي يبعث على التفاؤل ويخلق النشاط للبحث العلمي ، لكن الحالة في مجملها لم تكن تبعث على الارتياح والاطمئنان النفسي والهدوء الفكري نظرا لهيمنة بعض الاشخاص على ثروات الشعب وعلى خيراته ونظرا لما كان ينتج عن نظام الاقطاع وتاليق مختلفة السائدة آنذاك من تفقير وتجويع بالنسبة للطبقات الشعبية ، لذلك لا تلمس الازدهار الثقافي الا حيث الازدهار العمراني والاقتصادي . ان المراكز الثقافية التي اشتهرت على عهد بني مرين كانت في اغلبها مراكز تتوفر على امكانيات اقتصادية كافية (اكبر حجة عاصمتهم العلمية ومهد حضارتهم) فالعامل الاقتصادي مرتبط ارتباطا وثيقا بالعامل الثقافي.

---

1) انظر رحلة العبدري مخطوط الخزانة العامة بالرباط حرف د 55 صفحة 14 .

ان معظم شخصيات المغرب وكبار رجاله المثقفين كلهم نبغوا فى فاس أو نشأوا فيها أو وردوا عليها من أقطار أخرى نظرا لما كانت تتوفر عليه هذه المدينة من فوائد مادية ومعنوية تجلب هذه الشخصيات وتقربها . واذا استثنينا فاسا وبعض المدن الرئيسية لم نجد سوى شظف العيش ان لم نقل الجوع والبؤس والفقر المدقع الذى يحول دون نمو الفكر وازدهاره . ان المادة تضغط على التفكير دينيا كان أم فلسفيا وتوجهه توجيها معينا فتحتكره وتجعله أداة طيعة فى يد أصحاب الثروة الذين كانوا يسخرون لخدمتهم الفقهاء والعلماء وغيرهم ، وذلك ما وقع تقريبا فى هذا العصر .

ويرجع السبب أيضا فى هذا الجمود الى طرق التربية والتعليم التى كانت سائدة فى عصر بنى مرين اذ من المعلوم أن أهل هذا العصر كانوا يعتمدون فى تعلمهم وفى تعليمهم على الذاكرة وعلى الاستظهار قبل كل شيء ، وكثيرا ما كانوا يحفظون ويستظهرون دون ان يفهموا ويعرفوا ما كانوا يحفظونه ويستظهرونه. ولقد كانت هذه الطريقة متبعة فى جميع مراحل التعليم الابتدائى والثانوى والعالى ، فكان الطفل يبدأ بحفظ القرآن حفظا عن ظهر القلب ثم يعمد الى حفظ الامهات فى الفقه وفى اللغة والنحو والادب ، وكان يقضى السنوات الطوال فى ذلك الى أن يبلغ من العمر أشده فيقعد به ذلك الحفظ عن متابعة دروسه لكبر سنه ، واشتغاله بامور حياته المعاشية التى لم يكن له مناص من مواجهتها لكسب قوته وفى المراحل الاخرى أيضا كان الطالب يهتم بالحفظ والاستظهار ويكتفى فى غالب الاحيان بذلك رغم الشروح التى كان يتلقاها من أساتذته الذين كانوا هم الآخرون يعلقون أهمية كبرى على الذاكرة ، ألم يكونوا يحفظون المدونة ونوادر ابن أبى زيد وكتاب التهذيب للبرادعى والتسهيل لابن مالك والشافية والالفية له ، كل هذه المتن كانت تحفظ وتستظهر وربما أضيفت اليها حواشى كثيرة كان المتعلم يطالب بها ويقاس نبوغه بها ، وكنت اذا طلبت منه تفسير مسألة فقهية أو حسابية أو نحوية سرعان ما رجع بذاكرته الى هذه العلوم التى حفظها ليستمد منها الجواب ويستدل بشواهدها بل بنصيها الحرفى دون أن يحاول التفكير والتعليل وربط الصلات والخروج عن النص المألوف ، والدائرة التى كان يدور فى فلكها . أما اذا أعوزه النص أو خانته الذاكرة فالهوة كانت عميقة أمامه والعجز واضحا فى جوابه ، لانه لم يتعود المناقشة والتحليل والتعليل المنطقى الا فى نوادر الاحوال ، ولم يكن يستطيع التكيف مع ظروف حياته رغم علمه الغزير الا فى أحوال شاذة . بمعنى أن علمه الواسع لم يكن ينفعه فى حياته العملية الا اذا بذل أقصى الجهود ليتحرر من سيطرة الذاكرة ومن تأثيرها القوى فى سائر الملكات العقلية ، وحتى فيما يرجع للشرح الذى كان يقوم به الاستاذ لتوضيح النصوص ، فان الطريقة كانت لفظية ، شكلية أكثر منها موضوعية جوهرية ، فكثيرا ما كان الطالب ، نتيجة لذلك ، يكتفى بالعروض التى تلقى عليه ، فيتقبلها بدون مناقشة ولا اعمال فكر ، الا اذا كان

يتوفر على استعداد فطرى وذكاء ثاقب يؤهله لمحاولة فهم ما يلقى عليه . وحتى البرامج نفسها لم تكن ترمى الى اكثر من حفظ ومعرفة ماسبق ان قاله الفقهاء ودونوه بصفة نهائية ، ان سلطة الفقهاء وغيرهم ، كما رأينا من قبل ، لا تقبل لا مناقشة ولا مراجعة وبالاحرى النقد والنسخ . فكان الهدف اذن هو حمـل الطالب عـلى الرجوع الى القديم وحصر ذهنه فيه كي يعرفه ويستظهره لا أقـل ولا أكـثر ، وليس بخاف ما لهذه الطرق من اثر سيء على التفكير ، وعلى روح الملاحظة والنقـد والتعليل وعلى تكوين الشخصية بصفة عامة . ولقد تنبه ابن خلدون الى هذه الاساليب التربوية السائدة فى عصره فانتقدها مرارا فى مقدمته حيث عقد أكثر من ثلاثة فصول(1) للتحدث عن هذه الطرق بتفصيل ، وابداء وجهة نظره فيها بعد ابراز عيوبها وأثرها السيء بالنسبة للتعليم والمتعلم ففى الفصل السابع والعشرين(2) يتحدث ابن خلدون عن كثرة التآليف ومساوئها بالنسبة للتعليم قائلا : « مما اضر بالناس وتحصيل العلم والوقوف على غاياته ، كثرة التآليف وتعدد ضروبها واختلاف اصطلاحها ثم مطالبة المتعلم باستحضارها» ومثل لذلك فيما يرجع للفقه المالكى بكتاب ابن يونس وكتاب اللخمى ، وفيما يرجع للعلوم العربية يذكر كمثال كتاب سيبويه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين وكتب ابن الحاجب وابن مالك التى كان على المتعلم أن يحفظها ويقضى عمره فى تحصيلها . ثم يتعرض فى الفصل الثامن والعشرين(4) من مقدمته الى ما ينتج عن اختصار الكتب ومطالبة المتعلم بحفظها من نتائج سيئة للتعليم وللثقافة بصفة عامة . وفى هـذا الموضوع يقول : «ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطـرق .... الى أن قال : «وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم ، وربما عمدوا الى كتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعـل ابن الحاجب فى الفقه وابن مالك فى العربية ، وهو فساد فى التعليم ، وذلك لان فيه تخليطا على المبتدىء بالقاء الغايات عليه وهو لم يستعد بعد لقبولها» واذا كان ابن خلدون يكرر ويعيد ما قاله فى الفصول السابقة ، فذلك لسبب واحد هو أن هذه الطرق العقيمة أثرت فيه تأثيرا سيئا جعله يثور عليها وينـادى فى الفصـل التاسع والعشرين باصلاح التعليم وطرقه . ومما هو ظريف جدا فى هذا الفصل هو أن ابن خلدون يدعو الى ترك الاعتماد على الذاكرة وحدها كما يلح على السير بالطفل

---

1) المقدمة (مصر المكتة التجارية بدون تاريخ) صفحة 531 .

2) نفس المصدر صفحة 532 .

3) نفس المصدر صفحة 533 .

4) نفس المصدر صفحة 534 .

تدريجيا مع مراعاة سنه ومستواه العقلى واستعداده الفطرى وامكانياته الوجدانية وقدرة ذكائه وميوله الى غير ذلك من المبادىء التى أصبحت التربية الحديثة تنادى بها وكأنها تبنتها ولم تضف اليها الا بعض الجزئيات ؟

على أن المهم فيما اوردناه هو ان ابن خلدون وهو معاصر لبنى مرين ومن صميم البيئة المغربية ، أثار انتباهنا الى هذه الاساليب التربوية الفاسدة التى لاحظها فى عصره ، وهى أساليب ، فى الحقيقة ، عتيقة حالت دون السير بالتفكير الحر الى الامام وقعدت بالهمم ، وجعلت الجهود الفكرية والارادات القوية تدور حول الشكليات والطاقات تبذل وتستنزف فى الهوامش والتعاليق وحصر المعلومات وجمعها فى شبه قواميس ودائرة معارف ، مما ساعد على الركود والجمود رغم بروز شخصيات لامعة فى الفقه وفى التفسير وفى الحديث تركت لنا مؤلفات ضخمة نفيسة قد لا تجود بها القرائح اليوم فى هذا الميدان .

العلـــوم العـربيـــــة

عرفت الحركة اللغوية فى هذا العصر نشاطا لا يقل عن النشاط الذى عرفته العلوم الدينية فكان «هذا عصرها الذهبى(1)» ، واستمرت هذه الحركة منذ قيام دولة بنى مرين الى أن أصابها الخلل والانهيار ، بذلت ، فى أيام عزها وعظمتها ، الجهود الجبارة للنهوض بمستوى اللغة ، ولتبسيطها وجعلها فى متناول المتعلمين وغيرهم . وليس من شك فى أن هذه الحركة كانت أقوى وأكثر انتشارا من الحركة التى عرفتها البيئة المغربية على عهد بنى عبد المومن الذين كانوا ، كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق ، يعتمدون على الازدواج اللغوى باستعمالهم

---

1) عبد الله كنون ، النبوغ المغربى ج 1 صفحة 195 .

اللهجة البربرية الى جانب اللغة العربية الفصحى . فكانت المناظرات ، كما سنرى ، تعقد بين العلماء والادباء في موضوع لغوي أو نحوي قصد التحقق والتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التحريفات والتشويهات التي كثيرا ما تصيب اللغات بحكم الاحتكاكات العنصرية وامتزاج الثقافات المختلفة . فكانت تقام حول هذه المناظرات ضجات شفوية وقلمية تسترعي الانظار ، وتحرك الهمم وتحث الناس على تتبع ذيولها ومعرفة آثارها فيتدخلون مؤيدين أو معارضين ، فيزداد النشاط وتتنوع مظاهره ، وتتسع آفاقه ويصل صداه من المـــراكز الرئيسية الى أماكن بعيدة ما كان لها أن تستفيد من هذا النشاط اللغوي لولا هذه المناظرات التي كانت تعقد من حين لآخر . كما تجلت معالم هذه النهضة في الشخصيات التي لعبت في هذا الميدان دورا ايجابيا وخدمت اللغة خدمة بقيت آثارها واضحة في ما نتوفر عليه الآن من أبحاث أو مؤلفات .

ومن العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة اللغوية وتوسيع دائرتها ، بنو مرين أنفسهم اذ كانوا ، كما أسلفنا ، يتصفون بكثير من صفات العــرب وأخلاقهم ، ميالين بطبعهم وبتكوينهم الاجتماعي الى اللغة العربية وكل ما يرتبط بها . ويكفيك منهم أنهم اتخذوها لغة رسمية للبلاد بحيث لم تكن تحرر المراسلات الرسمية وغير الرسمية ولا القرارات القانونية الا بهــا . فتفرغ لدراستها كثـير من ملوكهم ضاربين المثل بأنفسهم ، كما شجعوا الطلبة وغير الطلبة على اتقانها وأغدقوا الاموال والهدايا لكل من كان له المام بها ، فوقع التنافس والاقبال عليها والتفنن في اجادتها لجعلها أداة طيعة في يد الكتاب والادباء والشعراء والفقهاء الذين برهنوا في مختلف الظروف عن خبرتهم الكبيرة فيها وتصرفهم في فروعها .

ثم ان هناك عاملا آخر كان له تأثير مباشر على هذه الحركة ، ألا وهو ارتباط العلوم العربية بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقا ومستمرا ، ذلك أن لغة البلاد كانت هي لغة القرآن والشريعة والاسلام فكان طبيعيا أن تنهض هذه العلوم كما نهضت الاخرى ، فسارت جنبا الى جنب الى الامام ، لم تعرف عقبة في سيرها ولا عرقلة من أي نوع كانت تخل بتطورها كما كان الشأن بالنسبة للعلوم الفلسفية وما يرتبط بها . واذا تذكرنا ، من جهة أخرى ، أن البيئة المغربية كانت في عصر بني مرين محافظة أشد المحافظة على دينها وتقاليدها الاسلامية ، وتذكرنا تمسكها المتين بالكتاب والسنة ومقاومتها لكل بدعة أو ظاهرة اصلاح أو تجديد ، اذا تذكرنا ذلك زدنا يقينا وايمانا بما كانت تتوفر عليه هذه العلوم من حظوظ ، ومن امكانيات مختلفة كفيلة بتنميتها وتطويرها .

والى جانب ذلك يجدر بنا أن لا نغفل حركة التعريب التي انتشرت في هذا العصر أكثر من غيره ، وامتدت الى آفاق بعيدة كانت منزوية منطوية على

نفسها ، لا تعرف الا لهجتها البربرية وتمسكها بها ، ورغم كون هذه الحركة كانت تلقائية ، خاضعة لعوامل اجتماعية معينة بمعنى أنها لم تكن تعتمد على جهود ارادية مقصودة ، فان فضلها على لغة الضاد كان قويا وذا تأثير بعيد المدى ، ان كثيرا من القبائل البدوية العربية انضمت الى بني مرين وعاشت في ظلهم مستغلة نفوذهم وثقتهم وتأييدهم لها (1) ، الشيء الذي جعلها تتحرك في تنقلات كثيرة وتنتشر انتشارا واسعا في أماكن قريبة وبعيدة ما كان لها أن تصل اليها لولا تأييد بني مرين لها ، ومنحهم اياها اقتطاعات أرضية كثيرة يتعيشون عليها في مختلف نواحي القطر المغربي ، وبفضل استقرارها في بعض الاماكن عمت المغرب موجة من الاستعراب بحيث وقع اندماج كثير من القبائل البربرية التي أصبحت بحكم هذا الاحتكاك لا تعرف سوى اللغة العربية ، بل أصبحنا نلاحظ ظاهرة عكسية تجلت في مقاومة كل ما من شأنه أن يمس بسلامة اللغة العربية أو يحرفها أو يخرج بها عن اطارها الاصلي ، فكان ذلك رد فعل لهذا النقص الذي كان يشعر به أولئك المستعربون الجدد الذين ما فتئوا ، تعويضا لهذا النقص ، يكدون ويجتهدون عاملين على تخليص اللغة مما أصابها من تحريف ودخيل .
وفي هذا الصدد تحدثت بعض المصادر التاريخية عن محاولات قام بها بعض المغاربة حفاظا على سلامة اللغة وابعادا عنها كل شبهة وشائبة ، من ذلك ما ألفه في هذا الموضوع ابن هاشم اللخمي السبتي المتوفي سنة 575هـ ومؤلفه الذي يهمنا في هذا الميدان هو «المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان» وقد ألفه تحقيقا لهذا الغرض الذي اشرنا اليه ، اي لمحاربة اللحن الذي لاحظه على ألسنة بعض العامة . ولقد كان لهذا العالم مؤلفات أخرى قيمة تدل على باعه الطويل في علوم اللغة ، منها : «شرح الفصيح لثعلب وكتاب الفصول والجمل في شرح ابيات الجمل وفي اصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وشرحها للاعلام من الوهم والخلل» (2) ولقد تطور مؤلف ابن هاشم في لحن العامة ، فتناولته الاقلام (نظرا لقيمته وأهميته) بالبحث والدراسة حتى غدا مرجعا أساسيا اهتم به المتقدمون والمتأخرون ، وهكذا قام بترتيبه وتنقيحه العالم اللغوي ابن هانيء اللخمي المتوفي سنة 733 هـ حيث أخرجه في مؤلف قيم تحت عنوان : (3) «انشاد الضوال وارشاد السؤال» ثم قام باختصاره عالم لغوي آخر ، ابن خاتمة الانصاري المتوفي سنة 775 هـ وسمى هذا الاختصار «ايراد اللئال من انشاد الضوال» ونظرا لاهمية هذا الموضوع

---

1) أنظر في هذا الموضوع الباب الاول من هذا البحث .

2) محمد الفاسي ، تاريخ الدراسات اللغوية بالمغرب الاقصى (مجلة دعوة الحق عدد 10 ، الرباط سنة 1960) صفحة 36 .

3) أنظر م. ن. صفحة 37 .

قام الاستاذ كولان بنشر هذا المؤلف الاخير(1) ويحدثنا الاستاذ محمد الفاسي أن هذه التآليف توجه منها نسختان مخطوطتان بخزانة الاسكوريال وثالثه عند الاستاذ كولان بالرباط (2) وما هذه التآليف كلها الا أمثلة وجيزة تعطى القارىء فكرة عن مدى اهتمام المغاربة باللغة العربية ومدى دفاعهم عنها واخلاصهم لمبادئها كي لا يتسرب اليها دخيل أو لحن أو عجمة او غير ذلك من الشوائب . وكثيرا ما كانت هذه التآليف تصدر عن شخصيات كانت الى زمن قريب متشبثة بلهجتها البربرية ، محافظة على تقاليدها العتيقة . مما يدل على استعراب القوم استعرابا كليا .

ومن أهم العوامم التى كان لها فضل على تقدم اللغة العربية تلك الحركة النشيطة التى عرفها فقه مالك وفروعه على يد رجال الدولة وخدامهم ، وعلماء وأدباء ورجال الفكر المغاربة بصفة عامة ، لقد مر بنا ونحن نتحدث عن هذه العلوم أن هذه الحركة عرفت تقدما منقطع النظير ، وان جل الابحاث والتآليف الضخمة الوافرة العدد كلها كانت تدور حول مذهب مالك ، وأصوله ، وفروعه لقد كان جل المثقفين فقهاء وجل المؤلفات فى الفقه والتفسير والحديث حتى أصبح من المستحيل احصاء هؤلاء الفقهاء وعد مؤلفاتهم التى بلغت كمية وافرة لا تكاد تعد ، لقد رأيناهم يختصرون ويفسرون ، ويعلقون ، وينظمون ويجمعون الشتات ويبسطون المؤلفات الضخمة القديمة ، ويحللونها ، ويضعونها وينتقدونها ويذيلونها ويكملونها ، مضيفين اليها ما عندهم وما عند غيرهم . فكانت هذه الحركة ، بصفة غير مباشرة ، عاملا أساسيا فى خدمة اللغة وتطويرها واحياء ما عات منها وما ضعف خصوصا وان الجهود التى بذلت فى هذا الميدان كانت فى أغلبها منصبة على الجانب الشكلي، وهو اللغة العربية ، فالشروح والتحقيقات والتعليقات والمختصرات والحواشى كانت تقتضى، بصفة منطقية النظر فى الكلمة وتحديد مفهومها ومعرفة التغييرات التى طرأت عليها ، وتمييز صحيحها من فاسدها . والوقوف على أوجه الاختلاف التى كانت نفرق بين مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين وغيرهم . لقد رأينا غير ما مرة فى بحثنا هذا أن الجانب الشكلي تغلب على الجانب الجوهرى فى أبحاث علماء وفقهاء هذا العصر حتى كاد يقضى عليه وحتى كاد الفقهاء يضحون به . فكان الربح ، فى الواقع ، للغة العربية التى استفادت أكبر استفادة من جهود الفقهاء الجبارة ، وعنايتهم الخاصة بالالمام بمذهب مالك وبفروعه وأصوله .

---

1) هيسبريس سنة 1931 ص 10 — 24 .

2) انظر دعوة الحق العدد العاشر سنة 1960 صفحة 36 .

وهكذا يتجلى بوضوح ما كانت عليه العلوم العربية من ازدهار نظـرا للظروف الاجتماعية التى كانت تسود البيئة المغربية فى زمن بنى مرين وللعوامل المباشرة وغير المباشرة التى اجتمعت كلها وتضافرت فى زمن واحد لفائدة الوضعية اللغويـة .

وجريا على الطريقة التي سرنـا عليها فى هـذا البحث سنتعرض هنـا لبعض الشخصيات المغربية التى اشتهرت بنشاطها فى ميدان العلوم العربية كى نعطى للقارىء فكرة ولو موجزة عن بعض هؤلاء الاعلام وما قاموا به من جهود عملية أو نظرية .

نبدأ بذكر شخصية كبيرة نظرا لما لها من صيت ذائع وشهرة كبيـرة وسمعة عظيمة فاقت حدود المغرب الاقصى وتعدته الى المغربين الاوسط والادنى ثم الى الشرق ، انها شخصية أبى عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المعروف بابن أجـروم المولود بفاس سنـة 672 هـ « فى السنـة التى توفى فيها ابـن مالـك صاحب الالفية فى النحـو » (1) . هو صاحب المقدمة المشهورة التى لا يكاد يجهلها أحد فى الشرق وفى الغرب نظرا للطريقة التى استعملها صاحبها فى صياغة قواعد النحو ، وهى طريقة مبسطة خالية من التعقيدات والتعاليق والاستطرادات والاطنابات المملة ، تتناسب وعقل المبتدىء فى النحو لانها تراعى مستواه وامكانياته الذهنية ولانها تصرفه عن عالم المجردات الى عالم المحسوسات فى الامثلة التى ياتى بها لشرح القواعد التى تريد من الطالب اتقانها . وبالجملة ، كانت ، فى جوهرها مراعية لقواعد علم التربية وعلم النفس الحديث اذ لا زلنا نراها الى اليوم تغزو معاهدنـا ومدارسنا نظرا لما اتت به من جديد وما قامت به من ثورة ضد المصنفات الطويلـة المعقدة التى كانت مستعملة فى عصر ابن جروم . والواقع ان هذا الاخير حقـق بفضل مؤلفه البسيط معجزة فى ميدان النحو الذى أصبح مقرونا باسم أجروم أو الاجرومية هذه اللفظة التى أصبحت جارية على الالسنة على ممر العصور وفى مختلف البيآت . ونظرا لكل ما ذكر أصبحت مقدمة ابن جروم مقررة فى مرحلة التعليم الابتدائى يتناولها الطالب بالحفظ ثم بالشرح بعدما يتم حفظ القرآن الكريم ، وبعد الالمام بها ومعرفة محتواها والقدرة على تطبيق قواعدها ينتقل الى المرحلة الثانوية فى النحو حيث يشرع فى دراسة ألفية ابن مالك التى تعتبر امتدادا وتوسيعا للقواعد التى سبق له أن درسها بواسطة مقدمة ابن أجروم .

---

(1) ابن القاضى ، الجذوة 138 .

فابن أجروم اذن يعتبر من الشخصيات المغربية التي أسدت لعلوم اللغة في عصر بني مرين خدمة لا تكاد تقدر قيمتها . وبذلك خلد اسمه على مر الدهر واستطاع غزو كل بيت وكل مدرسة وكل مكتبة .

لم تذكر المصادر التي عرضت لترجمته شيئا كثيرا عن حياته ونشأته . كل ما هنالك أن ابن القاضي ذكر في جذوته أنه كان من مؤذني مدينة فاس وانه توفي سنة 723هـ(1) لا أقل ولا أكثر ولعل السر في ذلك راجع الى كون صاحبنا لم يتصل اتصالا مباشرا بالبلاط المريني ولو فعل ذلك لتعرضت له المصادر التاريخية بشيء من التفصيل نظرا لاعتناء هذه المصادر خصوصا بالبلاطات وما يجري فيها وما يتصل بالملوك وما يتعلق بشؤونهم الدينية والدنيوية .

ومن بين هؤلاء الاعلام نذكر كذلك أبا عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي المتوفي سنة 750هـ كان عالما لغويا شهيرا بمدينة سبتة : أخذ عنه كثير من الطلبة ودرس كثيرا من الفنون لا سيما علمي اللغة والنحو اللذين اشتهر بهما ونبغ فيهما نبوغا جعلت بعض المصادر تهتم بهذا الجانب من ثقافته . ولعل من المفيد أن ننقل هنا ما حكاه عنه صاحب «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب»(2) الذي تعرض له بشيء من التفصيل والتعظيم وفي ذلك يقول : «... حافظ للغات العرب متفنن يقول الشعر واتفق له أنه توجه الى حضرة فاس في وفد أهل سبتة في أيام السلطان أبي الحسن وكان قد تقرر لديه حفظه فذكر ذلك لبعض كتبته فأراد الكاتب أن يغض منه فقال نصركم الله ان الرجل يحفظ لغة حوشية وان شئت أن تعرفها عنده فاخترع له اسما وسله عن معناه فقال له السلطان وما يكون الاسم . فقال : يا مولاي سله عن التمركل ففعل فقال مجيبا : هو التلفع في الكساء واستشهد له عليه بشواهد للعرب فعرف السلطان مكانته «في الحفظ وقام الدليل عنده على ذلك رحمه الله» الى أن قال استنادا الى ابن خميس : « وكان يحكم قراءة كتاب سبويه اتم احكام ويستظهر شواهده كلها ويطرح ما عداه من مصنفات فنه وكان يقدم صحاح الجوهري على سواها من كتب اللغة ويستظهر شواهدها كلها»(3) هذه قصة ظريفة ومفيدة في نفس الوقت تدل على مدى تضلع مترجمنا في علوم

---

1 انظر الجذوة صفحة 131 .

2 توجد منه نسخة محفوظة بقسم المخطاطات في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ... وقد اعتمد عليها الاستاذ البحاثة محمد بن تاويت في تحقيق ونشر هذا الكتاب الذي ظل اسم مؤلفه مجهولا الى اليوم رغم بعض التخمينات التي نسبته لابن عبد الملك الانصاري السبتي . انظر مجلة تطوان (عدد 9 سنة 1864 صفحة 174 ـ 188) حيث نشر الاستاذ ابن تاويت هذا المؤلف القيم .

3) م. ن. صفحة 176 .

اللغة ونبوغه فيها نبوغا جعل السلطان أبا الحسن المريني يهتم به ويعنى عناية خاصة بمعرفته اللغوية .

ومنهم أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسني الادريسي العالم اللغوي الشهير ، الفقيه المحدث ، المشارك فى علوم كثيرة وفنون مختلفة ؛ كانت مكانته عالية بسبتة وسمعته منتشرة فى جميع القطر المغربي بفضل علمه الواسع ومعرفته اللغوية الغزيرة . ذكر عنه مؤلف بلغة الامنية(1) انه كان قاضي سبتة واماما فى العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض ... كان يقرىء من كتب العربية جمل ابى القاسم والفية ابن مالك وياتى بكلام الطائفة الشلوبية وبابن ابى الربيع وابن عصفور وابن الضائع وابن خروف وسواهم . ولصاحبنا أيضا مؤلفات أخرى كلها فى هذا الباب ، منها : ترتيب كتاب الامثال لابى عبيد على حروف المعجم ، ونظم كتاب الفصيح لابى العباس ثعلب وشرحه ، وهى مؤلفات قيمة موجودة الآن بخزانة الرباط قسم المخطوطات .

ومن المشاهير المغاربة الذين عاشوا فى هذا العصر وأثروا فى ثقافته تأثيرا قويا يجدر بنا أن نذكر اسما آخر لامعا خالدا وهو النحوى الكبير المكودى الفاسي المتوفى سنة 807 هـ. هو ابو زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح من قبيلة بنى مكود المشهورة بالعلم والورع . وهى من القبائل التى نزحت من نواحي فــاس الى العاصمة العلمية حيث أدركت شهرة واسعة فى خدمة العالم والثقافة . يعتبر المكودى اماما فى النحو واللغة الى جانب فنون أخرى كان مشاركا فيها أكبر مشاركة . عرف بفاس أستاذا عظيما يقصده الطلبة من فاس ومن النواحي البعيدة ليتتلمذوا عليه وينتفعوا بعلمه وبمعرفته اللغوية والنحوية الكبيرة . تذكر بعض المصادر أنه كان «يدرس كتاب سبويه بمدرسة العطارين وهو آخر من درسه وبعده صار العمل على الفية ابن مالك»(2) ومن آثاره الجليلة شرحه لالفية ابن مالك ، ذلك الشرح الذى اعتمد عليه المغاربة فى دراستهم النحوية منذ ذلك العصر الى يومنا هذا ، ثم أضافوا اليه شرح ابن عقيل ، على نفس المتن . ولمترجمنا أيضا شرح الاجرومية المشهورة وشرح المقصور والممدود لابن مالك .

ولا يجب علينا أن ننسى هنا الدور الفعال الذى قام به مالك بن المرحل السبتي(3) فى خدمة اللغة وفروعها . اشتهر ، الى ثقافته الادبية ، بثقافة لغوية

---

1) م. ن. صفحة 184 .

2) عبد الله جنون ، النبوغ المغربي ، ج : 1 صفحة 210 .

3) انظر الفصل الذى خصصناه للتراجم .

واسعة مكنته من القيام بمناظرات في الموضوع ومناقشة كثير من علماء عصره في مواضيع لغوية محددة ، مما يدل على طول باعه في هذا الميدان ، من ذلك ما وقع بينه وبين أبي الربيع النحوي الشهير الذى لاحظ على مترجمنا استعماله هذا التركيب النحوي : «كان ماذا» جرت هذه المناظرة التى أشرنا اليها بسبتة وقامت حولها ضجة جلبت لابن المرحل أنصارا وخصوما فقام للدفاع عن نفسه وألف كتابا حول «كان ماذا» آتيا بكلام العرب ومستشهدا بأقوالهم المختلفة وبأبياتهم الشعرية ردا على خصمه ابن أبى الربيع . وفى ذلك يقول :

عاب قـوم كـان مـاذا ليت شعرى لم هـذا ؟
واذا عـابـوه جهـلا ودون علم كان مـاذا ؟

والقصة مشهورة فى كتب التراجم والتاريخ التى تعرضت لترجمة ابن المرحل ، هي ان دلت على شيء فانما تدل على تمكن ابن المرحل من اللغة وتصرفه فيها تصرفا مطلقا جعله ياتى بحجج قوية مستمدة من القرآن ومن كلام العرب والشعراء كما جعله يتصدى لامام النحاة ابـن أبى الربيع ليـرد عليه وينقض كلامه .

ونجد فى هذا العصر شيخا آخر من شيوخ اللغة والنحو ؛ عـرف بثقافته الواسعة فى هذا الميدان وبأستاذيته لكثير مـن الطلبة الذين تخرجـوا عليه فى اللغة والنحو ، وأعنى به أبا عبد الله محمد ابن يحيى العبدرى الفاسى المعروف بالصفدى . «كان اماما فى العربية ، ذاكرا للغة ، أخـذ العربية والادب عن ابى الحسن بن خروف وعن النحوى الاديب أبى ذر الخشنى ، واكمل الكتـاب تفقها وتقييدا» (2) .

ونرى من قول ابن القاضى انه كان يعتمد فى تدريسه النحو على كتاب سيبويه الذى كتب عليه تقييدا . أما أستاذه ابن خروف فهو من كبار النحاة فى هذا العصر ومن مشاهير أئمة اللغة العربية اذ ترك لنا مؤلفات قيمة فى اللغة وفى النحو الى جانب نشاطـه الكبير فى التدريس بفاس وبمراكش ؛ شرح كتاب سيبويه وسمى شرحه هذا : « شفى الالباب فى شرح غـوامض الكتاب ، كما شرح الجمل للزجاجي . ولقد توفى العبدرى سنة 615هـ كما توفى أستاذه سنة 609هـ على حد قول ابن القاضى(2) .

---

2) ابن القاضى جذوة الاقتباس ، صفحة 138 .

1) م. ن. صفحة 307

وهكذا نرى الى أى حد كان المغاربة يعتنون بالعلوم العربية كما يتبين لنا من خلال عرضنا السابق وهذه الامثلة التى سقناها الدور الايجابى الذى قاموا به فى التدريس ، والتأليف وشرح كتب الامهات واختصارها وتبسيطها كى تصبح فى متناول الطالب المبتدىء الذى يقبل عليها بكل شغف وشوق .

العلـــوم البحتـــة

نعنى بالعلوم البحتة الفلسفة ، والطب ، والرياضيـــات ، والتنجيـــم ، والكيمياء ، والفيزياء ، وغير ذلك من العلوم المجردة . ولقد عرفت هذه العلوم فى الشرق نوعا من الرقى والازدهار بعد حركة الترجمة النشيطة التى قامت بها عناصر مختلفة ، تلك الحركة التى أطلعت العرب على فلسفة اليونان وحكمة الهند وغيرها من الامم التى خضعت لسلطانهم ، فاستطاعوا ان يلمـــوا بجوانب تلك العلوم ويهضموها بعد مجهودات جبارة قاموا بها فى نقل هذه العلوم الى لغتهم ؛ ثم بعد ذلك قامت حركة التنقيب والبحث فى هذه العلوم مكنت العرب من التقدم فيها والانطلاق منها الى آفاق أخرى واسعة تمثلت فى الاكتشافات والاختراعات التى أنجزوهـــا للنهوض بمستواهـــم الفكرى ، وتحقيقا لتقدمهـــم العلمى ؛ فساروا بخطوات جريئة الى الامام مضيفين الى هذه العلوم المترجمـــة نظريات جديدة ما كان لهم بها علم من قبل ، فبرهنوا عن مقدرة جبارة ، وفكر خلاق تجلت معالمه فى اختراعهم وفى انتاجهم الضخم ، فنبغت منهم شخصيـــات لامعة ، سجل التاريخ فضلها على تقدم العلوم وتطويرها . يكفى أن نذكر منها الكندى والفاربى والخوارزمى وعمر الخيام وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من مشاهير العلماء العرب الذين ذاع صيتهم فى الشرق وفى الغرب .

ورغم ما قيل عن هؤلاء الاعلام من تأثرهم بالفلسفة اليونانية ودورانهم فى فلكها وعدم التحرر من سيطرتها فى أبحاثهم ونظرياتهم ، ثم عدم استطاعتهم تحطيم قيود التفكير الدينى ؛ ورغم ما نعتوا به من قصور فى ميدان التفكير المجرد الذى يترك جانبا كل ما له صلة بالدين ، رغم ذلك كله لا يمكن أن ننكر جهودهم الجبارة فى التوفيق بين الفلسفة والدين كما لا يمكن أن ننكر انتاجهم العلمى الضخم وفضلهم على الثقافة بصفة عامة وعلى الحضارة الانسانية جمعـــاء .

ومن الملاحظ أيضا أن هذه العلوم كانت فى أغلب الاحيان فى صراع عنيف

مع العلوم الدينية وسلطة الفقهاء بصفة أخص ، تلك السلطة التى حاولت ما أمكنها ، وبشتى الوسائل ، القضاء على التفكير الحر والفكر الفلسفى بصفة خاصة .

تلك فكرة موجزة عن حالة العلــوم البحتة فى العالم العربى بصفة عامة . اما فى المغرب الاقصى الذى يهمنا هنا فلقد عرفت هذه العلوم تطورات خاصة وخضعت لعوامل مختلفة سنحاول التعرض لها فيما يلى :

رغم كون هذه العلوم كلها تتصف بالترابط والتكامل والتداخل فان منها ما عرف ازدهارا ملحوظا ، ومنها ما لم يكتب له النجاح ، كما أن منها ما كان بطيئا فى نموه وتطوره .

الفلسفــــــة

أما فيما يرجع للفلسفة فقد كانت أسوأ حظا وأقل انتشارا من سائر العلوم الاخرى ، وأكثر تعرضا لتهجمات الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة ؛ عرفت محنــا كثيرة فى الشرق العربى ، فعذب أصحابها واضطهدوا وقتلوا فى بعض الاحيان شر قتلة ، نظرا لمحاولتهم الخروج عن الحدود المألوفة ، تلك الحدود التى رسمها الفقهاء بصفة نهائية ؛ فكانوا ، خوفا على أنفسهم ، يعملون فى الخفـاء ، ويتستروون وراء الخلفاء والملوك بدعوى أنهم كانوا يدافعون عن سياستهم ونظمهم ؛ ووراء علوم أخرى كانوا يتقنونها فى نفس الوقت ومع ذلك لم ينجوا من هؤلاء الرؤساء أنفسهم الذين كثيرا ما فتكوا بهم لاقل الاسباب وأتفه الاحداث . واذا كان مصيرهم هذا فى الشرق حيث الخلافات ، والامارات، والمؤامرات والانقسامات السياسية ، ونوع من الحرية . فان مصيرهم بالمغرب الاقصى كان اقسى وأمر ، بل لم يجدوا مكانا لهم فيه، لان الابواب كانت مغلقة والميدان شائكا لا يسمح ولو حتى بالظهور . ذلك ، كمــا قدمنا ، ان سلطة الفقهاء ــ العدو اللدود ــ كانت قوية الى درجة الطغيان والجبروت. ولذلك يمكن القول ان المغرب لم يعرف من الابحاث الفلسفية شيئا جديرا بالذكر .

يمكننا ان نستثنى من ذلك ما وقع فى زمن الموحدين ، فى زمن ابى يعقوب يوسف وابنــه يعقــوب المنصــور عــلى الخصوص ، حيث كــان ابن طفيــل وابــن رشد ينعمان بالاستقرار والطمأنينة ، والهدوء ويجدان لدى هذين الخليفتين تأييدا مكنهما من مواصلة أبحاثهما الفلسفية ، فاستطاعا أن يخلفا لنا أروع مثال وأضخم انتاج فى الميدان الفلسفى حتى قيل «ان الفلسفة ماتت بموت ابن رشد (1198م) وفى الحقيقية ان هذين الفيلسوفين نعما فى هذا العصر بحياة حادثة فى ظل ابى يعقوب

المنصور اذ كانا من المقربين اليهما ؛ الا أنهما كثيرا ما انقلبا عليهما وفتكا بهما فتكا . يكفي ، مثالا على ذلك ، أن نشير الى أن يعقوب المنصور اضطهد الفيلسوف ابن رشد وأمر باحراق كتبه ما عدا مؤلفاته : العددية والطبية .

لقد حدث هذا الاضطهاد في زمن الموحدين حيث كانت الحرب قائمة ضد فقهاء مالك وكتبهم وحيث كانت الابواب مفتوحة للتجديد والاصلاح ؛ فماذا كان يمكن ان ينتظر من عصر بني مرين حيث بلغ طغيان فقهاء مالك حده ، وتعصبهم درجته القصوى . لا يمكن في الحقيقة ، أن ننتظر من هذا العهد الا نتائج سلبية ، بل سيئة بالنسبة للعلوم الفلسفية . ولا غرابة في ذلك ما دمنا قد اطلعنا ، فيما سبق ، على الجو الذي كان يسود البيئة المغربية من الناحية الدينية عموما ومن حيث الفقه بوجه خاص ، اذ العوامل السلبية كانت كلها متوفرة في هذه البيئة التي قيدت الجهود الفكرية وخنقت الاجتهاد الحر .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلوم البحتة تدرس في أماكن ثانوية بعيدة عن جامعة القرويين التي كانت خاصة بالعلوم الدينية بمذهب مالك ، فالقرويين كانت اذن محل تبجيل وتعظيم وتشريف بحيث لم تكن تدرس فيها الا العلوم التي تستحق الاحترام والتعظيم .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلوم البحتة تدرس في أماكن ثانوية فكان الفلاسفة ، تبعا لذلك يمقتون من طرف ملوكهم رغم الخدمات الجليلة التي كانوا يؤدونها . وهكذا أصبح ابو العباس بن شعيب الجزنائي الفاسي ، العالم الشهير والفيلسوف الكبير المتوفى سنة 749هـ يمقت من طرف مخدومه السلطان أبي الحسن المريني رغم الاخلاص التام الذي كان يكنه له . وقد شهد بذلك معاصره ابن الخطيب الذي قال عنه في احاطته (1) : «وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار ، فلم يحصل بطائل» الى أن قال : «والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مقت لذلك» ولم يختلف الامام ابن مرزوق في مسنده عن ابن الخطيب في هذه الشهادة حيث يقول(2) : «وكان مولانا(3) رضي الله عنه ينفر منه لموجب الله أعلم بحقيقته ، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد ، ولقد خبرته وذاكرته وباحثته فما اطلعت ، والله ، منه الا على ما يرضي» . ولقد تساءل الاستاذ كنون في استغراب

---

1) الاحاطة في اخبار غرناطة (طبعة القاهرة بدون تاريخ) ج 1 صفحة 188 .

2) ابن مرزوق المسند الصحيح . مخطوط الخزانة العامة بالرباط صفحة 198 .

3) يعني أبا الحسن المريني .

عن سبب النفور قائلا : (1) فليت شعرى من الذى مقته وقد كان بحيث يتنافس فيه الخلفاء ويخدم فى خاصة رجال البلاط كاتبا وطبيبا ، ولم يستغن عنه أبو الحسن حتى صحبه فى معركته وهلك بمعيته فى الكائنة المشهورة بتونس» ثم يضيف ردا على ابن الخطيب (2) : «والمقصود أن لا يتقول متقول على عصر التقدم فى الحضارة والعرفان بالمغرب وهو عصر بنى مرين فينسب اليه استنادا على قول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت ويسجل عار ذلك على رجال الدولة والشعب» .

واذا كان الاستاذ كنون يشك فى شهادة ابن الخطيب ؛ فهل يمكنه أن يشك كذلك فى الخطيب ابن مرزوق الذى كان من الملازمين الاولين لابى الحسن ؟ أما نحن فنرى أن موجب هذا المقت والنفور ليس هو الاشتغال بالطب او بالحساب ، بل بالفلسفة التى كانت تشكل أكبر خطر بالنسبة للفقهاء وللملوك أنفسهم . واذا كانت العلوم قد تقدمت فى هذا العصر على حد قول الاستاذ كنون ، فان الفلسفة لم تكن ضمن هذه العلوم التى تقدمت فى هذا العصر .

واذا كان بعض الملوك يغضون الطرف ويتسامحـون فى بعض الاحيان ، فذلك لمدة موقتة ولاغراض شخصية قاهرة ، لا مـن أجل الابحـاث الفلسفية بـل للانتفاع بالعلوم الاخرى التى كانت مجتمعة فى شخص الفيلسوف الذى ، كما قدمنا ، كان ملما بعلوم كثيرة : منها الطب والرياضيات والفلسفة وغيرها . فالسخط كان ينصب أولا وبالذات على الجانب الفلسفى لا على الجوانب الاخرى التى تجتمع كلها فى شخص واحد . واذا كان التسامح قد بدا فى بعض الاحيان اتجاه فيلسوف ما ، فما ذلك الا لكونه ينفع بطبه أو بحسابه أو بجانب آخر من علمه . أما اقتصاره على الفلسفة وحدها أو تبرزه فيها واشتهاره بها فكان ذلك وبالا عليه . ولعل أقوى دليل وأكبر مثال نورده هنا لتعليل ما سبق هو ذلك الحادث الخطير الذى ذهب ضحيته العلامة الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب الـذى قتل شر قتلـة فى العاصمة العلمية المغربية حيث أضرمت النار فى جثته نظرا لكونه ، يشتغل بالفلسفة و «ينحرف عن العقيدة الخالصة» على حد زعم بعض فقهاء الاندلس والمغرب الذيـن وجهوا ضده تهمة الزندقة والالحاد .

ورب معترض تساءل ، فى استغراب ، عن عدم تعرضنا فى هذا الحديث لابن خلدون ، فيلسوف المغرب فى القرن الرابع عشر(م) . نعم ان ابن خلدون يعتبر أكبر

(1) النبوغ المغربى فى الادب العربى . ص

(2) المصدر السابق . ص

شخصية عرفتها البيئة المغربية فى زمن بنى مرين فى ميدان العلوم البحتة والمعرفة الواسعة ، ونحن لا ننكر دقة ملاحظته ، وقوة ذكائه ، واستعداده الفطرى ، ومواهبه العقلية الخارقة نعترف بزعامته الفكرية وبقصب السبق الذى حصل عليه في ميدان العلوم الاجتماعية ، اذ هو مؤسس علم الاجتماع وواضع أسسه المتينة قبل أحيست كونت ؛ الا أننا نستبعد أن يكون قد نهج نهج الفلاسفة وحذا حذوهم فى ميدان البحث المجرد والنظر الى الكون والانسان وعلاقة بعضهما ببعض نظرة فلسفية محضة . لقد فلسف التاريخ وأبرز قواعد علم الاجتماع ، وبين لنا القوانين التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية لكنه لم يسر بعيدا ولم ينطلق الى آفاق أخرى تتصل بالوجود ، بالله بالطبيعة وبما وراء الطبيعة . لم يتعرض للمذاهب الفلسفية التى كانت موضوع النقاش والبحث فى عصره من طرف فلاسفة عرب ، أمثال ابن طفيل وابن رشد . فلماذا تغاضى عن هذه المعطيات الفلسفية التى كانت رائجة فى عصره ولم يتعرض لها لا بالسلب ولا بالايجاب ؟ أكان ذلك تجنبا منه وخوفا من الظروف القاسية على من يخوض غمار هذه الابحاث آنذاك ؟ أم كان نفورا وتعصبا مقصودا أو عجزا ؟ ذلك ما لا يمكن الاجابة عنه اليوم بالقطع رغم كوننا لا نجهل ما كان يتوفر عليه ابن خلدون من طاقة عقلية خارقة للعادة تؤهله لمثل هذه الابحاث وبعد ، ذلك هو تصيب الفلسفة والفلاسفة من البيئة المغربية فى عصر بنى مرين ، وهو نصيب ضئيل . هزيل لا يحسد عليه . وقد كنا نود ان ناتى هنا ، كما فعلنا بالنسبة للعلوم الاخرى ، بقائمة تعطينا فكرة واضحة عن بعض فلاسفة المغرب فى هذا العصر وعن اتجاهاتهم المذهبية والايديلوجية ، لكننا ، فى بحثنا هذا ، اصطدمنا بعقبات كثيرة جعلتنا لا نطمئن الى بعض الاشارات الخفيفة والكلمات العابرة التى وجدناها فى ثنايا بعض المصادر بصفة عفوية ؛ فهى لا تمثل بالنسبة لبحثنا حججا كافية نبنى عليها أحكامنا ونستدل بها فى تعليلاتنا وفى وصفنا لهذه الظاهرة أو تلك . الا أن هذا لا يعنى مطلقا أن هذا العصر لم يعرف فلاسفة فقد يكون نبغ عدد قليل او كثير ، لكن الاضطهاد والتعسف غطيا عليهم وخنقا أنفاسهم حتى أصبحنا نرى المصادر تتعرض بتفصيل للفقهاء وعلماء الدين وتتعمد السكوت عن ذكر الفلاسفة الا فى أحيان نادرة تشير اليهم اشارة خفيفة غير مبالية بانتاجهم او باتجاههم نظرا للضغط الاجتماعى الخانق . أما أثر الفلسفة فقد كان متجليا لا فى الابحاث الفلسفية وحدها بل كان ظاهرا فى أصول الفقه وفى النحو وفى العروض وفى المنطق وان كان ذلك لا يتضح للباحث بصفة مباشرة ؛ فمن الممكن اذن أن يكون هناك فلاسفة تفلسفوا من حيث لا يشعرون !

الـريـــاضيـــات

امتاز العصر المريني بنشاط منقطع النظير فيما يرجع للرياضيات والعلوم المرتبطة بها كعلم التوقيت والفرائض وغير ذلك ؛ وعرف هذا العصر ما لم يعرفه في عصور أخرى سابقة أو لاحقة من شخصيات كثيرة لامعة ، نبغت في هذه العلوم وتقدمت فيها تقدما باهرا جعلها تتفوق على أهل زمانها ؛ فكان منها من أصبح أستاذا لمن أتى بعده بفضل ما قام به من ابحاث وما خلفه من آثار ظلت الى يومنا المرجع الاساسي(1) لكثير من هذه العلوم . فأصبحنا نرى شخصيات أخرى تفد على المغرب الاقصى من الاندلس ومن المغربين الاوسط والادنى لتاخذ عن أساتذة المغرب في هذا الميدان .

ويرجع ازدهار هذه العلوم الى عوامل رئيسية ، منها أن الرياضيات ظلت ، على مر الازمان ، في الشرق وفي الغرب ، العلم الوحيد الذي لم يعرف لا تنافرا ولا تعارضا مع علوم الدين والفقه ، تلك العلوم التي سبق أن رأينا ما كان لها من تأثير على أوجه النشاط الفكري الاخرى كالفلسفة وما يرتبط بها ؛ فلم تكن الرياضيات ، من حسن حظها ، تمس بالفقهاء أو تخل بسلطتهم ؛ ولم تكن تتعارض لا في قليل ولا في كثير مع العلوم الشرعية السائدة آنذاك ؛ ولم يكن ملوك بني مرين ينفرون من أصحابها أو يمقتونهم كما فعلوا بالنسبة لغيرهم ؛ بـل كانوا يقربونهم منهـم استفادة من علمهم وخدمة لمصالحهم(2) . فنجوا ، تبعا لذلك ، من المكر والخديعة ، والمناورات والمؤامرات التي كانت تدبر ضد غيرهم . وبذلك استطاعوا أن يتفرغوا بكل هدوء واطمئنان لنشاطهم ، ويبذلوا فيه الجهود الجبارة التي خلدت ذكرهم وعملت على اذاعة صيتهم في الشرق وفي الغرب .

ومن العوامل التي ساعدت على النهوض بمستوى الرياضيات في هذا العصر حاجة الدولة الى ضبط أحكامها ، ومواردها ومصاريفها ، واستخلاص ضرائبها . كل ذلك يحتاج الى دراية في علم الحساب وتفنن في تطبيقه تطبيقا مضبوطا خاليا من كل خطأ أو غلط . فالغاية هنا كانت اقتصادية قبل كل شيء ، تستهدفها الدولة لتكوين أطرها وملء وظائفها الشاغرة بالمخزن الذي كان يضم مـن بين موظفيه مسئولين حسابيين يشرفون على الدواوين الخاصة بتسيير شؤون الدولة المالية .

---

1) تلخيص ابن البناء المراكشي .

2) أبو سعيد عثمان يستدعي ابن البناء المراكشي ويطلب منه اطلاعه على وقت وفاته .

على أن أهم عامل في نظرنا كان وراء هذه الحركة الرياضية النشيطة هـو حاجة الشعب ، تطبيقا لتعاليم الاسلام وقياما بالواجبات الدينية ، الى مـن يعرفـه بأوقات صلواته وصيامه ، كما كان في حاجة أكيدة الى معرفة ما أوجبه الله تعالى فيما يتعلق بنظام الارث وتوزيعه . وذلك يحتاج الى معرفة دقيقة بعلم الحساب ، لان مشاكل الارث ، كما لا يخفى ، مشاكل عويصة ، معقدة في بعض الاحيان ، كثيرا ما تستعصى على العدول والفرضيين ، فيلجأو في حلها الى أهل الدراية والمعرفة في هذا الميدان . ومعنى ذلك أن علم الفرائض وعلم التنجيم كانا من أهم الاسباب التى جعلت الرياضيات تنهض وتتقدم تقدما كبيرا، نظرا للترابط الوثيق الموجود بينها . فالسبب اذن كان دينيا في جوهره ، ويكفى أن يكون كذلك لتزدهر هذه العلوم في هذا العصر وتنطلق انطلاقا تعدت آفاقه حدود المغرب الى الشرق وغيره . ان الدعامة الاولى كانت الدين وتطبيق تعاليمه نظرا لكون البيئة المغربية في عصر بنى مرين كانت ، كما رأينا في فصل سابق ، بيئة دينية ، محافظة ، شديدة التمسك بتعاليم الاسلام وبشعائره ؛ كل حركة فكرية ساندت الدين وجدت فيه خـير معين وخـير نصير ، كما أن كل حركة حاولت القيام بمسه كان مآلها الفشل .

ونريد ، بهذا الصدد ، أن نشير الى ما ذكره الدكتور رينو في بحثه حـول العلوم البحتة وتعليمها بالمغرب (1) .

لقد تعرض الدكتور المذكور لهذه العلوم وتناول طرق تعليمها بالنقد مبينا ما كان لتلك الطرق من آثار سيئة على الذهن وعلى تطور الثقافة بصفة عامة . ولقد ذكرنا أولا بما سبقه اليه ابن خلدون الذى عقد فصولا كثيـرة في مقدمته(2) عـن أساليب التربية والتعليم العقيمة التى كانت سائـدة في عصره . والدكتور رينـو متأثر بابن خلدون تأثيرا شديدا ، ونحن نوافقه على أن تلك الطرق التى تعتمد على الذاكرة وحدها والاستظهار من شأنها أن تحـول دون التقـدم الفكرى والازدهـار العلمى ؛ لا ريب في ذلك اذا كانت الذاكرة هي الاساس الوحيد الذى يعتمد عليه في التعليم ؛ الا أننا نراه يبالغ ويتطرف في حكمـه ناسيـا أن الذاكرة تلعب دورهـا الرئيسى في التعليم ، ولا يجب أن نحاربها ونقاوم كل ما من شأنه أن يتصل بها ؛ فالحفظ والاستظهار لا خطر فيهما اذا ما أحسن استعمالهما واستغلالهما في ظروف معينة وبعد استيعاب وفهم ما يطالب التلميذ بحفظه . ان التربية الحديثة التى قامت

---

1) هـ. ب. رينو ، تعليم العلوم البحته ونشر المؤلفات العلمية بالمغرب قبل الاحتلال الأوربى ، اريثيون ج 13 صفحة 325 روما . بدون تاريخ .

2) انظر الفصل المتعلق بالعلوم الدينية في المقدمة ص 422 .

على انقاض تلك الطرق العقيمة تنص في مبادئها على عـــدم التخلي عن الـذاكرة بل تلح على تنميتها كسائر الملكات الاخرى ، لكن مع مراعاة التناسب والانسجام . فاذا كان المغاربة ، كما لاحظه رينو ، يكثرون مـن حفظ المنظومـات الرجزيـة في تعلمهم الديني أو العلمي بصفة عامة ، فانهم كانوا يتخذون ذلك لبنة أولى لتركيز الاسس التي يبنون عليها فيما بعد ؛ فالحفظ لم يكن الغاية بل كان وسيلة فقط ، ولذلك استطاعوا في هذا الميدان أن يحققوا انتصارات عظيمـة . ومـن ملاحظات الدكتور أيضا أن «العرب ، خلافا لعلماء اليونان ، كانوا يشتغلون بالعلوم الرياضية وغيرها لغاية نفعية لا من أجل العلم كما فعل اليونان الذين لم يستهدفوا من وراء خدمتهم للعلم أي شيء(1) .

اذا كان الدكتور يعني «بالغايات النفعية» خدمة الدين وشؤون المسلمين التي تمس علاقتهم بالاله وعلاقة بعضهم ببعض فاننا لا نرى في ذلك أي تشويـه للحقيقة أو تعصب يحرفها ، ولكن اذا كان يعني شيئا آخر اي خدمة المصلحة الشخصية المحضة أو هدفا اقتصاديا أو تجاريا فذلك ما لا نوافقه عليه ، لان المسلمين استطاعوا في اطارهم الديني «أن يحققوا المعجزات» في ميدان العلم والمعرفة بشهادة كثير من المؤرخين العرب وغيرهم الذين تصدوا لدراسة مظاهر الحضارة الاسلامية دراسة موضوعية ونزيهة . وليس معنى هذا أننا نشك في نزاهة وأمانة رينو ولكننا فقط أردنا في عرضنا هذا أن نشير الى ما يقع من سوء فهم أو التباس في تاريخ الحضارة الاسلامية .

وبعد هذا العرض الوجيز الذي قمنا به لاعطاء فكرة عن الحالة بالنسبة للعلوم الرياضية نريد الآن أن نتعرض فيما يلي لذكر بعض الشخصيات المغربية أو التي كان للمغرب فضل عليها فيما يرجع لهذه العلوم . فما هي اذن هذه الشخصيات التي برزت في عصر بني مرين ؟ لقد بحثنا عن اشهرها واكثرها ايجابية في تقدم هذا النوع من العلوم فوجدنا من خلال دراستنا للمصادر التي وقفنا عليها ظاهرة حديرة بالذكر والانتباه ، ذلك أن جميع من برزوا في الرياضيات كانوا تقريبا تلاميذ لاكبر شخصية وأعظم نابغة في العلوم الرياضية عرفها العصر المريني في المغرب : انها شخصية أبي العباس احمد ابن البناء المراكشي(2) الذي فاق أهل عصره وسيطر بنفوذه على المغرب وعلى المشرق ؛ كان يقصده الداني والقاصي لياخذا عنه وينهلا من علمه الغزير ، حتى صار اسمه مقرونا بالرياضيات نظرا لتفوقه فيها وتبحره في

1) رينو م. ن. صفحة 326 .

2) أنظر ترجمته في الباب الذي خصصناه للمشاهير .

فروعها وتفننه فى تطبيقها وتهتكه فى تطويرها ، وسلوكه فيها مسلكا جعل الخاصة والعامة يتعجبون فى أمره لكونه سار بعيدا وقطع أشواطا حتى علا نجمه وأصبح فى السماء ضوءا لامعا مشرقا يستنير به كل من حاول اتباع طريقه والاهتداء بهديه والاسترشاد بنصائحه . ولقد أحببنا نظرا لهذه المكانة المرموقة التى حصل عليها ، أن نخصص له فى مكان آخر ترجمة كافية تجعل القارىء يطلع على جوانب شخصيته وعلى أطوار حياته ومظاهر ثقافته ؛ لذلك نتركه الآن لننتقل الى شخصيات أخرى كانت لها شهرتها فى نفس الميدان ودورها فى النهوض بهذا النوع من العلوم التى نحن بصددها .

وفى المقدمة نذكر أستاذه الكبير أبا زيد عبد الرحمان الهزميرى ، الصوفى الشهير ، مؤسس الطريقة الهزميرية بأغمات «كثيرا ما كان يزوره تلميذه ابن البناء اذا عنت له مشكلة أو حل به أمر حار فى التخلص منه»(1) . «كان عارفا بالحساب والتعاليم والهيئة » (2) توفى بفاس سنة 706 هـ .

ومن شيوخه كذلك محمد بن محمد بن ادريس القلوشى المولود عام 607هـ والمتوفى سنة 707 هـ . درس عليه ابن البناء بفاس كتابه فى العروض المسمى بالختام المفضوض وأراجيزه فى الفرائض كما درس ايضا على أبى عبد الله محمد بن مخلوف السجلماسى المراكشى التنجيم .

ومن مشاهير هذا العصر فى الرياضيات العلامة الكبير محمد بن النجار التلمسانى . درس على أبى عبد الله الابلى ثم انتقل الى فاس فاتصل بامام التعاليم أبى عبد الله بن هلال كماتتلمذ لابن البناء حتى أصبح متفوقا فى علم النجوم . اتصل بأبى الحسن المرينى فضمه الى بلاطه ، فصار فى خدمته الى أن توفى بالطاعون سنة 749هـ .

احمد بن ابراهيم بن محمد بن صفوان أبو جعفر حسبما جاء فى الاحاطة(3). كان فيلسوفا ومتصوفا كلفا بالعلوم الالهية . انتقل الى العدوة ودرس على ابن البناء بمراكش .

---

1) رينو ، ابن البناء المراكشى ، هيسبريس ج : 25 سنة 1938 .

2) ابن القاضى ، الجذوة (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 167 .

3) الاحاطة تحقيق محمد عبد الله عنان (دار المعرف بمصر بدون تاريخ) المجلد الاول صفحة 230

علي بن عبد الله بن محمــد بن هيدور التــادلي . كان امامــا في الفرائض والحساب واشتغــل بتدريسهما بعــد أن تتلمذ لابن البنــاء . اعتنى اعتناء خاصــا «بتلخيص» أستاذه فشرحه كما قيد على كتابه رفع الحجاب ، توفي بمجاعة فاس سنة 816هـ .

عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن يوسف بــن محمد ابن عطيــة المديوني الشهير بالجاديري ولد سنة 777هـ ، كان متضلعا في علوم الحساب والتوقيت الشيء الذي أهله لان يصبح موقت جامع القرويين . يقول ابن القاضي : «له كتاب جمع فيه بين العمل بآلة الاسطرلاب وبالصفيحة الشكازية وبربع الدائرة ، والعمل بالحساب ؛ والجدول ؛ وتنبيه الانام على ما يحدث في أيام العام ، ومختصر شرح الخاقانية للداني ؛ والرجز المسمى بالنافع في أصل حروف نافع ؛ والمذكر والمؤنث وروضة الازهار في علم وقتي الليل والنهار وشرح البردة (1) » ، كانت وفاته سنة 818هـ ويتعلق الامر هنا ، كما نرى ، بشخصية ملحوظة ذات ثقافة واسعة ، وقدرة على التأليف ، ولو قدر لها أن تعيش أكثر لافادتنا بانتاج أضخم ، لكن المنية عاجلتهــا وحالت دون تحقيق ذلك .

ومن علماء هذا العصر في الرياضيات نذكر أيضا العلامة الكبير محمد بن شاطر أبا عبد الله المراكشي . قال ابن القاضي نقلا عن المقري : «لقيت فيمن لقيت بفاس رجلين . أحدهما عالم الدنيا والآخر نادرتها . أما العالم فهو شيخنا أبو عبد الله بن احمد العبدري الابلي واما النادرة فأبو عبد الله بن شاطر (2)» . انتقل الى مراكش فلازم أبا زيد الهزمري ، واتصل كذلك بابن البناء اتصالا وثيقا مكنه من الاطلاع على ما عنده من معرفة واسعة بعلم الحساب .

وكان حيا في هذا العصر بفاس عالــم كبير ، خلوف اليهودي المغيلي «شيخ التعاليم»(3) أخذ عنه في الحساب طلبة كثيرون واشتهر في عصره بهذا العلم حتى أصبح الناس يقصدونه من الداخل ومن الخارج . يكفي أن نشير الى أن الابلي محمد ابن ابراهيم العبدري العالم الشهير ، لما فر من بلاده قصد خلوف هذا واختفى عنده بفاس الى أن انتقل الى مراكش حيث قطب العصر وأستاذ زمانه ابن البناء . كنا نود أن نخص هذه الشخصية بترجمة وافية نظرا لكونها من دين آخر ، لكننا لم نعثر على

---

1) الجذوة صفحة 165 .

1) الجذوة صفحة 249 .

2) الجذوة صفحة 199 .

أكثر مما قلناه عنها . لم نكن نشك فى أن اليهود لعبوا دورا ثقافيا كما خاضوا غمار السياسة والادارة فى هذا العصر ، لكن المصادر قليلا ما تعرضت لهم لاسيما من الناحية الثقافية اما لتعصب واما لاسباب أخرى نجهلها الى اليوم .

وعلى كل ، فقد راينا ما كان لهذه الشخصيات التى سردنا اسماءها من تضلع فى الرياضيات على الخصوص كما رأينا أنها كانت فى أغلبها تدين لأستاذ واحد انفرد بالرئاسة والزعامة فى هذا الميدان ، ألا وهو احمد أبو العباس ابن البناء المراكشى . ولعل فى ذلك أمثلة كافية تتناسب وأهمية هذا البحث .

العلـــــوم الطبيـــــة

أكد كثير من المؤرخين ان الطب بالمغرب عرف نوعا من الازدهار أيام المرابطين والموحدين ثم أصابه الركود والجمود فى عصر بنى مرين ، وهم فى حكمهم هذا يقرنون الحالة المغربية بالحالة فى الاندلس وفى الشرق ؛ بحيث أن الركود الذى تميزت به الحضارة العربية فى القرن الرابع عشر (م) كان عاما وسائدا حتى بالنسبة للمغرب الاقصى . وأقدم نظرية فى هذا الموضوع هى للطبيب المؤرخ الشهير لوسيان لوكلير الذى ذكر فى مؤلفه تاريخ الطب عند العرب(1) أن المغرب عرف عددا من الاطباء تكونوا فى القرنين الحادى والثانى عشر ولازموا ملوكهم فى الاندلس ثم ما لبثوا أن انتقلوا مع هؤلاء الملوك الى المغرب ليقضوا آخر أيامهم به . وهكذا استفاد المغرب من المصائب التى حلت بالاندلس أما ما حدث بعد ذلك فهو عبارة عن جمع بعض المؤلفات القديمة وتنقيحها وتهذيبها وحصرها فى شبه قوائم أو قواميس تضاف اليها بعض الحواشى والتعاليق» ذلك هو رأى الدكتور لوكلير فيما يرجع للطب بالمغرب فى القرون الوسطى ، بل نراه فى حكمه يغالى ويتطرف عندما يقول(2) : «من الممكن أن نسجل أنه كان هناك عدد لا يزيد عن أربعين طبيبا نسبهم من اسبانيا ، ولا نجد ولو واحدا منهم يصح أن ننعته بالشهرة والنبوغ ، ذلك أن كل انتاج أصيل قد كف وانعدم واصبحت الجهود تدور حول القديم لتجمعه وتقتبس منه لا اقل ولا أكثر » ولقد كان لهذا الرأى الخطير تاثير مباشر على من جاء بعد لوكلير وحاول البحث

---

1) طبعة باريز 1876 ج 2 صفحة 241 .

2) نفس المصدر صفحة 242 .

فى آثار المغاربة فى هذا الميدان . ويهمنا هنا ما قاله مؤلف معاصر محمد بن احمد العبدرى الكانونى (1) فى مؤلفه تاريخ الطب بالمغرب حيث نجده متأثرا تاثيرا مباشرا بنظرية الدكتور لوكلير . ففى مقدمة كتابه هذا قدم لنا بحثه فى تصميم واضح يشتمل على أربعة أقسام . فى القسم الاول وهو القسم الذى أطلق عليه دور التكوين فى القرون الاربعة الاولى ، تكلم عن نشاة الطب ومظاهره فى المرحلة الاولى ، أما القسم الثانى فهو فى نظر المؤلف دور الازدهار الذى يتحقق فى القرنين الخامس والسادس، أى فى ظل المرابطين والموحدين . أما الركود والجمود فقد تجليا فى عصر بنى مرين قبل عصر الانحطاط الذى هو القرن التاسع وما بعده . ويلاحظ القارىء أن هذه النظرية لا تختلف لا فى جوهرها ولا فى شكلها عن نظرية لوكلير . فكلا المؤرخين اعتمد فى بحثه على الازدهار الذى كان قائما بالاندلس فى هذا الميدان وربطه بالحالة فى المغرب فى نفس العصر ، وكلاهما ذهب الى أن الانحطاط الذى أصاب الشرق العربى أصاب المغرب فى نفس الوقت ، بمعنى أن ظاهرة الانحلال السياسى وتقهقر الاوضاع الاقتصادية حلت بالمغرب كما حلت بالمشرق بدون أدنى فرق ولا تفاوت لا فى الزمن ولا فى المكان . واذا كانت هذه النظرية تعتمد على شىء من الصحة وقليل من الحجج الواقعية(2) فان لنا رأيا خاصا وهو ان المغرب، بقطع النظر عن صلاته بالشرق وبالاندلس اللذين كانا يمدانه بكثير من الابحاث والاطباء ، كان له نشاط طبى تقليدى يعتمد على التجارب الواقعية والاحداث التى مرت بالاجيال السابقة والتى عرف فيها المغاربة الاطباء كثيرا من النجاح والتوفيق . فالطب التقليدى كان مزدهرا بالمغرب كما هو مزدهر الآن ببعض الاقطار الاسيوية كالصين مثلا حيث توجد جامعة خاصة بهذا النوع من الطب الى جانب جامعات عصرية وقد ذكر بنسمون فى بحثه حول الطب والاطباء بالمغرب (3) : «انه يجب ان نلاحظ ان الطب التقليدى بالمغرب كان يستعمل فى عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع فى جدواها» وكثيرا ما كان الطب التقليدى ينجح فى معالجة أمراض يخفق فيها الطب الذى يعتمد على النظر والبحث المجرد مثال ذلك ما وقع لابى عبد الله محمد الفهرى أو الشفرة (حسب بعض المصادر) الجراح الشهير الذى يحكى عن نفسه (4) انه حار فى معالجة امرأة

---

1) مخطوط وضعه رهن اشارتنا الاستاذ عبد السلام ابن سودة .

2) لقد سبق للدكتور لوكلير أن عبر عن اسفه لعدم استطاعته زيارة المغرب ولا سيما مدينة فاس كما جاء فى كتاب الطب والاطباء بالمغرب لعبد العزيز بن عبد الله (طبعة الرباط 1960) صفحة 91 .

3) انظر المرجع السابق صفحة 75 حيث يستشهد الاستاذ ابن عبد الله بآراء الطبيب بنسيمون الذى كتب بحثا حول الطب بالمغرب مجلة المغرب الطبى (شتنبر 1951) .

4) انظر فى مجلة هيسبريس (عدد 20 سنة 1935 صفحة 3) بحثا للدكتور رينو عنوان جراح من مملكة غرناطة .

من قبيلة بنى العلاء أصيبت بقروح كبيرة فى رأسها فرفض معالجتها وترك الامر لحجام اعتنى بها . هذا ولقد تحدث الدكتور رينو بتفصيل فى كتابيه الطب بالمغرب(1) والصحة والطب بالمغرب(2) عن وسائل العلاج التقليدية التى كانت مستعملة فى المغرب مشيدا فى كثير من الاحيان وتاثيرها بجدواها الصحى المباشر نذكر من ذلك(3) أن المغاربة كانوا يعالجون النزيف بمسحوق اليفطين ودقيق الفول، كما كانوا يتخذون الكي لمقاومة هذا النزيف ، ومن بين الوسائل التى كانت رائجة فى القديم عملية الدلك التى كان يلجأ اليها عندما يصاب المريض بكسر أو ما يشبه الكسر مع اطعام المريض ببعض المواد الغذائية الغنية بالفوسفاط والجير ، وكانت أمراض الاذن(4) تعالج بالجاوى والزعفران والزيت ، وذكر أيضا استنادا الى الدكتور رينو أن أطباء العيون المغاربة ، كانت لهم «أساليب مفيدة لمعالجة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة ؛ ويستطيعون أن يزيلوا محد: غشاوة العين المانعة من الابصار ، بل يتقنون عملية أصعب من هذه» وهكذا تدلنا هذه الامثلة القليلة على أن المغاربة لم يعدموا أطباء مهرة استطاعوا بخبرتهم الطويلة وبتجاربهم المبنية على بعض التقاليد المتوارثة أن يقاوموا أمراضا خطيرة وينجحوا فى بعض الاحيان حيث تخفق عمليات الطب النظرى المبنى على البحث المجرد . حقا لم تظهر نظريات جديدة أو اكتشافات جديرة بالذكر كاكتشاف الدورة الدموية التى قام بها ابن نفيس المصرى(5) فاقتصر الامر على دراسة ومراجعة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس وابن سينا وابن البيطار والانطاكى وغيرهم من التابعة الذين لعبوا فى الطب دورا أو تناولوا الكتب القديمة بالشرح والنظم والتعليق، ولكن الطب العملى كما ، رأينا ظل نشيطا ومستمرا يعالج الامراض على اختلاف أشكالها وتنوع مظاهرها . ولنرجع لنتساءل مرة أخرى عن أسباب هذا الجمود الذى وصف به الطب المغربى فى عصر بنى مرين ـ هل كان هناك ، فى البيئة المغربية ، ما يقاوم النشاط الطبى أو يعرقل تطوره كما حدث بالنسبة للفلسفة أو بعض العلوم المتصلة بها يوم كان الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة يصبون جام غضبهم وحقدهم عليها ويكيدون ويتآمرون للقضاء عليها وعلى أصحابها هل كانت تتعارض مع هذه العلوم فى فروع من فروعها ؟ لا نظن ذلك لان الواقع المغربى آنذاك يشهد بالعكس يشهد باعتناء الملوك بالطب وبالاطباء وبجميع ما له صلة بهما ؛ والشعب نفسه كان من مصلحته أن يعمل كل ما من شأنه أن ينهض بهذه العلوم وينمى مستواها نظرا

---

1) نشرة معهد الدروس العليا بالرباط سنة 1939 عدد 1 .

2) نشر بالجزائر 1950 .

3) عبد العزيز بن عبد الله الطب والاطباء بالمغرب (الرباط 1960) ص 72 .

4) نفس المرجع صفحة 73 .

5) اكتشف ابـــن نفيس الدورة الدموية الصغرى قبل الغربيين بنحو ثلاثة قرون

لما يجد فيها من تحقيق لمصلحته الشخصية ومقاومة بعض الامراض التى كانت تفتك به أيام المجاعات التى عرفها فى هذا العصر والطاعون الذى حل بالمغرب بصفة خطيرة كما حل بأقطار العالم الاخرى ان التاريخ يشهد لبنى مرين باعتنائهم الخاص واهتمامهم المتزايد بهذا النوع من المعرفة والنشاط فكان اهتمامهم هذا يشمل الناحية النظرية والناحية العملية فى نفس الوقت ، ولذلك أصبحنا نرى فى هذا العصر كثيرا من الاطباء يخصونهم بأبحاثهم ويقدمونها لهم كهدايا ثمينة كالارجوزة(1) التى نظمت وقدمت لابى سعيد عثمان المرينى وكعمل «من طب لمن حب» لابن الخطيب لسان الدين الذى ألفه وقدمه هدية لابى سالم بن أبى الحسن المرينى ، ويعتبر من المؤلفات القيمة التى ألفها ابن الخطيب فى الطب كما شهد بذلك الكانونى(2) وغيره ، ويوجد الآن بخزانة القرويين تحت عدد 3657 ضمن المخطوطات المغربية ، ولقد سبق أن رأينا أن هؤلاء الملوك كانوا يتحملون بعض الفلاسفة رغم كراهيتهم الشديدة للفلسفة ويغضون الطرف عنهم نظرا لاشتغالهم بالطب أو بالرياضيات أو بالادب أو بفنون أخــــرى .

ومهما يكن من أمر فالنشاط الطبى كان فى هذا العصر يتجلى فى مظهرين اثنين : مظهر علمى نظرى يتعلق بالاطباء وبانتاجهم ومظهر ثان يتمثل فى المارستانات التابعة لها .

المــرستانـــــات :

لقد تعرضت المصادر التى اهتمت بتاريخ بنى مريــن الى هــذه المنشآت العمرانية التى أسست فى هذا العصر لكنها فى تعرضها هذا كانت وجيزة عابرة ثم كثيرا ما اختلفت فى تسمية هذه المؤسسات التى كانت فى نظر البعض مدارس طبية أو مستشفيات بمعناها الحديث أو مارستانات خاصــة بالعــلاج وباطعام المساكــين والمعوزين . وهكذا وقع الخلط والالتباس فى موضوع يكتسى صبغة هامة بالنسبة لتاريخ الحضارة المغربية فى عصر بنى مرين ولا سيما الجانب الاجتماعى منها . مثال ذلك ما وقع فى تسمية المارستان الذى بناه أبو عنان المرينــى بسلا ؛ فقد ذكــر الكانونى(3) أنه كان «مدرسة على ما جزم به الشيخ الوالد المقدس فى تاريخ الاستقصاء

---

1) الارجوزة موجودة اليوم بالخزانة العامة كمخطوط يحمل رقم د 79 ومؤلفها ظل مجهولا الى اليــــوم .

2) أنظر مخطوطه صفحة 28 .

3) أنظر مخطوطه صفحة 29 .

أو مارستانا على ما حققه تلميذه المحقق الفاضل السيد محمد بن علي في تاريخه الاتحاف» ويتدخل الكانوني للتوفيق بين هذا الخلاف قائلا : « ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانا بأنه كان أقساما على حسب المدارس الكبرى الطبية والعلمية فقد كانت المارستانات الاسلامية جامعة بين مواضع المرضى ومواضع الاطباء ؛ وغالبا ما كان هؤلاء الاطباء يشتغلون في بعض الاوقات بتحضير الادوية واستخراجها من المواد الكيماوية ويعلمون التلاميذ صناعة ذلك علما وعملا فكان القسم المعين للتعليم والقاء الدروس مدرسة ويسمى مارستانا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم وهذا شأن الكليات الآن في العواصم الاوروبية والمدن الكبرى ؛ فلا تنافر بين تسميته مدرسة أو مارستانا بحسب هذا الاعتبار .» واذا كنا لا نريد الدخول في مناقشة هذا الرأي فان الغالب على الظن أن المارستان كان في غالب الاحيان مكانا معدا للحمق والمجانين وذوي العاهات العقلية والامراض النفسية يحبسون فيه خاضعين لنظام طبي الى أن يعالجوا بصفة نهائية اما الدروس النظرية فقد كانت تعطى ببعض المدارس التي بناها بعض ملوك بني مرين ، ولقد بقي هذا التحديد الذي أوردناه جاريا اليوم على السنة العوام الذين كثيرا ما يرددون اسم المرستان في حديثهم عن الحمق والمجانين ؛ ولقد بقيت بعض آثار هذه المارستانات الى اليوم شاهدة بما كان لبني مرين من عناية بهذا الجانب الاجتماعي كما تدل في أغلبها على أمكنة خاصة لمعالجة نوع معين من الامراض العقلية والنفسية . ولا يزال المراكشيون يعرفون مكان وأنقاض المارستان الذي كان قائما بالطالعة بالقرب من جامع ابن يوسف وهم لا يتحدثون عنه الا كمكان خاص بالمجانين أما المرستان الذي بناه أبو عنان المريني بمدينة سلا فما زال يحمل اسمه الى اليوم وهو من أعظم المرستانات التي بناها بنو مرين ، ويوجد قريبا من باب حسين ويتوفر على بنايات ضخمة يغلب على الظن أنها كانت بيوتا يحبس فيها المرضى ويعالجون ، ويحكي بعض المؤرخين أن هذا المرستان كان قبل بنائه فندقا للزيت الى أن تولاه أبو عنان بعناية فبناه ثم جلب له الاطباء المهرة ليعالجوا المرضى المقيمين فيه ؛ كما عين موظفين ليشرفوا على تسييره وأغدق عليهم أموالا كثيرة مقابل خدمتهم الادارية والاجتماعية ؛ وكذلك مستشفى مدينة فاس الذي كان على جانب كبير من الاهمية نظرا لوجوده بعاصمة المملكة المغربية آنذاك ولقربه من ملوك بني مرين أنفسهم الذين كانوا ، كما أسلفنا ، لا يألون جهدا في النهوض بهذه المؤسسات الاجتماعية ، وهذا المستشفى الذي يطلق عليه مستشفى أبي الجنود هو من تاسيس أبي يوسف يعقوب المريني . ومن أهم المرستانات بفاس مارستان سيدي فرج الذي كان مخصصا لحبس الحمق والمجانين ولمعالجتهم فيه بالموسيقى والغناء مع استعمال آلات الطرب المختلفة ؛ وقد كان على أرباب الطرب(1) «أن يحضروا في كل أسبوع مرة أو مرتين لان ذلك يفيد في انشراح

1) الكانوني تاريخ الطب العربي بالمغرب صفحة 38 (مخطوط خاص) .

الصدر وانعاش الروح فتقوى ضربات القلب وتعـود الاعضاء الجسمية الى تأديـة وظائفها، وهكذا كان اللجوء الى الموسيقى والغناء من الوسائل النافعة لعلاج داء الحمق كما هو الشأن اليوم فى مستشفياتنا العصرية ، والى جانب هذه المرستانات المنتشرة فى نواحى البلاد كانت هناك ارباض خاصة بالمصابين بداء الجذام وكان يشرف عليها نظار وعدول لتسيير الاموال والاملاك التى كانت تـوقف عليها مـن طرف الرؤساء وبعض العناصر الشعبية الموسرة وقد أشار بعض المؤرخين الى أن هذه الارباض كانت كثيرة بفاس وضواحيها وبمراكش أيضا حيث كانت بعض الحارات مأوى للمجذومين الذين كانوا يلجأون بل ينقلون اليها ويعزلون عن غيرهم من المارة والسكان الى أن يشفوا نهائيا ؛ وبعض آثار هذه الارباض والحارات ما زال ماثلا للعين كأنقاض أو كاسوار انطمست معالمها الاصلية . لان الناس ما زالوا يعرفون موقعها ويتحدثون عنها خصوصا بحومة باب دكالة(1) .

الا أن الظروف سرعان ما تبدلت بتبدل الاحوال السياسية وتقهقر الاوضاع الاقتصادية فأصيبت هذه المنشآت الطبية تبعا لذلك فى الصميم وانهارت معالمها وانطمست مآثرها وأسرع الى جلها الخراب بعد أن هجرها اطباؤها ومسيروها لما لحقهم من ضعف وخوف على مستقبلهم الذى كانت تتهدده الاخطار من كل ناحية ، وقد حدث ذلك عندما أصيبت أجهزة الدولة بالضعف والوهن وتضافرت عليها أواخر القرن الثامن الهجرى عوامل الضعف والانحلال من اضطرابات سياسية داخليـة وأمراض وبائية وضربات قاسية آتية من تدخل بنى الاحمر فى الشؤون الداخلية واحتلال الاسبان والبرتغال لمدن المغرب الساحلية فأصبح ، نتيجـة لذلك ، بعض ملوك بنى مريـن يطمعون فى أخـذ الاموال والامـلاك التى كانت توقف على هـذه المارستانات والمستشفيات ، تسديدا للعجز الذى حل بهـم وبشؤون دولتهم وليس بغريب أن يقع مثل ذلك فى أيام السلطان أبى سعيد عثمان المرينى(2) الذى كان يتخبط فى مشاكل سياسية خطيرة أدت به ، تلافيا للعجز ، الى التسلط على الاموال التى كانت مرصدة لهذه المؤسسات الاجتماعية فصرفها عبثا فى قمع الثورات التى كانت تنشب ضده من حين لآخر . ويحكي عنه الكانونى(3) «انه قامت عليه ثورات أوجبها اختلال توازن السياسة ولم يكن لديه من المال ما يجهز به الجيش الكافى لاخماد الثورة فأشار عليه بعض شياطين الانس الى الاموال المرصدة لهذه المستشفيات، فأرسل بعض وزرائه لتنفيذ هذه الخطة ، فعارضته الامة الفاسية معارضة ووقفت فى

---

1) من الابواب الرئيسية بمراكش .

2) الكانونى ص 38 .

3) ن. م ص 38

وجهه فقال لهم ان هذه الملاجىء نفسها وأوقافها من صدقات أجداد الامير ، وحيث كان كذلك فمن حقوق الملك أن يفوت هذه الاملاك . ولم يزل هذا الموظف يحتج لهذه النظرية ويؤيدها حتى اقتنع الناس بذلك وبيعت تلك الاملاك الوافرة ؛ ولكن تلك التوراث انتهت بقتل الملك ولم تعد المستشفيات الى ما كانت عليه بل تدهورت حالتها وبقيت بيد بعض الاعيان من أهل فاس وبعض الاطباء» هذا خبر أوردناه ، رغم طوله ، لما له من أهمية بالنسبة لموضوعنا وهو يعطينا فكرة عن مدى تدهور الحالة السياسية والاقتصادية ونتائج ذلك بالنسبة للمرستانات والمستشفيات المؤسسة في عهد بني مريـن .

ذلك هو الجانب العملي من النشاط الطبي الذي كان قائما في هذا العصر أما الجانب النظري فقد كان يتجلى في تخرج الاطباء ونبوغهم وما خلفوه من انتاج . ورغم كون هؤلاء الاطباء كانوا ، كما أسلفنا ، الى جانب اشتهارهم بهذا الفن يلمون بفنون أخرى فاننا سنورد هنا أسماء بعض الشخصيات التي كانت لامعة في هـذا العصر مقتصرين على أكثرها تأثيرا في الميدان

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن احمد العزفي من قبيلة العزفيين المشهورين بسبتة بنفوذهم السياسي والمعنوي وبثقافتهم الواسعة . كـان أحـد رؤساء سبتة حيث عين بعد أبيه عام 719هـ على حد قول ابن القاضي(1) وخلع سنة 725هـ حسب ما ذكره الكانوني(2) . وكان له المام كبير بالطب وفن التوشيح ، رغم كوننا لم نقف له على أثر في هذا الميدان . ولقد انتقل الى مدينة فاس بعد خلعه فأقام بها كاتبا لملوكها الى أن توفي سنة 768هـ بنفس المدينة التي رحل اليها .

وفي نفس العصر كان حيا الطبيب الماهر والفيلسوف الشهير احمد بن محمد بن شعيب الجزنائي الفاسي انتقل الى فاس من قبيلة جزناية الريفية . درس بفاس على كثير من أساتذتها منهم الاستاذ أبو عبد الله ابن جروم وأبو عبد الله بن رشيد الفهري صاحب الرحلة المشهورة . كان الى جانب اشتهاره بالعلـوم الطبية والفلسفية والطبيعية من أكبر حفاظ الشعر : فقد ذكر ابن الخطيب(3) أنه كان يحفظ 20 000 ألف بيت من الشعر . ولقد رحل الى تونس فأخذ الطب والهيئة على الشيخ يعقوب بن الدارس ومهر في الطب والفلسفة والكيمياء وخلع العذار فيها ، وكان اماما

---

1) جذوة الاقتباس (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 241 .

2) انظر مخطوطه الذي تحدثنا عنه فيما سبق . ص 18 خلافا لابن القاضي الذي يرجع تاريخ وفاته الى سنة 720 .

3) الاحاطة (طبعة مصر المجلد الاول) صفحة 198 .

فى الطب ماهرا فى صناعته دقيق النظر فيه ، غاية فى معرفة النباتات والاشجار، كانت وفاته بتونس سنة 749هـ .

ومنهم غالب بن على بن محمد اللخمى الشقورى أبو تمام . ترجم له الدكتور لوكلير(1) لكن ترجمته هذه كانت وجيزة جدا . نشأ بغرناطة ثم رحل الى المشرق ليؤدى فريضة الحج فنزل بالقاهرة عند رجوعه فتعاطى فيها بصفة خاصة لدراسة الطب حتى حصلت له ملكة كبيرة فيه . فقفل راجعا الى مدينة فاس حيث أصبح فى خدمة أبى سعيد المرينى ثم فى خدمة ابنه السلطان أبى الحسن . وتنص بعض المصادر على أنه عين من طرف مخدومـــه أبى الحسن ثم صار من أطبائـــه الخواص الى أن توفى فى احدى المعارك التى خاضها أبو الحسن سنة 741هـ . ذكر الدكتور لوكلير وغيره من المؤرخين أنه ترك مؤلفات قيمة جدا فى الطب الا أننا لم نعثر عليها مع الاسف .

ومنهم كذلك الطبيب الشهير على بن عبد الله بن هيدور التادلى الفاسى أبو الحسن . كان مشاركا فى فنون كثيرة لكنه اشتهر بالطب اذ ترك فيه أثرا يدل على تضلعه فيه وهو عبارة عن رسالة سماها المقامةالحكيمة فى الامراض الوبائية ولقد ألفها فى هذا العصر الذى اجتاح فيه الطاعون المغرب وغيره من الاقطـار العالميـة الاخرى . توفى فى المجاعة التى حلت بالمغرب سنة 826هـ .

والطبيب الجراح على ابن أبى غالب الادريسى المولود بفاس سنة 765هـ والمتوفى فيها سنة 801هـ يحكى عنه الكانونى(2) أنه نشأ يتيما تحت حصانة والدته فعلمته صناعة الحجامة ثم درس الطب حتى مهر فيــه واشتهر وأخـذ يباشر العمليـات الجراحية فكان موفقا فيها ، الشىء الذى لفت الانظار اليه وجعل الطلبة وغيرهم يقصدونه من كل حدب وصوب ليأخذوا عنه أو لينتفعوا بنصائحه وارشاداته العلمية. ولقد حاولنا التعرف على ما قد يكون تركه من أثر لكن المصادر التى وقفنا عليها لم تشر لا بقليل ولا بكثير الى انتاجه أما لضياع واما لاهمال .

وفى هـــذا العصر كـــان يعيش فى ظـــل بنى مرين الطبيـــب القرشى أبو بكر المالقى . انتقل من مالقة الى غرناطة ثم الى فاس حيث استقر وأخذ يباشر مهنة الطب كما عين على رأس مارستان فاس الشهير مدة طويلة للثقة التى كان يحظى بها لدى رؤسائه وكانت وفاته سنة 754هـ .

---

1) فى كتابه تاريخ الطب العربى (باريز 1876) صفحة 243 .

2) نفس المصدر صفحة 28 .

أما الوزير لسان الدين ابن الخطيب فهو غني عن البيان والترجمة في هذا الميدان نظرا لشهرته الواسعة ومؤلفاته الطبية القيمة ولقد احببنا ان نخصه بترجمة كافية في غير هذا المكان ونتعرض لبعض مؤلفاته الطبية . أمـا الآن فنذكر منهـا المسائل الطبية ، الرجز في عمل التريـاق ، اليوسفي في الطـب ، رسالة تكوين الجنين ؛ الوصول لحفظ الصحة في الفصول ؛ رجرفي الطب رجز الاغذية ، البيطرة والبيزرة ، مقنعة السائل عن المرض الهائل وهي رسالة كتبها عن الطاعون الذي حل بالمغرب وغيره من الاقطار سنة 749هـ ، ثم مؤلفه الشهير عمل من طب لمن حب الذي تعرضنا اليه في فصل سابق .

الخـــاتمـــة

وبعد ، هل عرف المغرب في عهد بني مريـن نهضة أدبية ؟

تعتبر المظاهر الادبية التي درسناها في هذا العرض الوجيز نتيجة حتمية لما قمنا به من تحليل للبيئة المغربيـة التي تميزت في عـهد بني مريـن بمميزات خاصة ، كان لها من المفعول المباشر والاثر القوي ما جعل أبناء المجتمع المغربي مع رؤسائهم يتجهون في تفكيرهم ، وفي ثقافتهم ، وفي سلوكهم المادي والروحي ، اتجاها بقي بعضه أثرا الى اليوم . بقيت بعض الآثار تشتمل على ازدهار الفن العمراني في عصر بني مرين وتدل على ما كان يبذله الفقهاء والعلماء والادباء من جهد في ميدان العلم والادب . واذا كانت بعض الظواهر الروحية طغت على كثير من مرافق الحياة وحالت دون انطلاق الشعر والنثر الفني انطلاقهما في الشرق العربي وفي الاندلس فلن ما تحفل به المكتبات العامة والخاصة لشاهد على تراث فكري ضخم تركه لنـا العلماء والفقهاء في نفس العصر .

ويرجع الفضل في كثير من النشاط الادبـي الى مجـاورة المغرب الاقصى المغربين الاوسط والادنى وللاندلس على الخصوص ، تلك المجاورة التي أتت بخيرها وشرها ، وخلقت في المجتمع المغربي تيارات فكرية وحضارية وأدبية حركت النفوس ، ونهضت بالهمم ، وقوت العزائم وأثارت التنافس بين العناصر المختلفة المتعايشة . فكان بنو مرين أنفسهم في المقدمة يعطون المثال بمواقفهم وأنواع سلوكهم ؛ فلم يقع اصطدام بينهم وبين سائر الطبقات الاجتماعية التي ظلت تكن لهم المحبة الصادقة والاخلاص المتين ويتجاوبون معهم تجاوبا عميقا . فكان ذلك الانسجام عامـلا مـن عوامل الوحدة والعمل المشترك الذي ظل يسود البلاد ـ باستثناء دسائس داخلية ـ

الى آخر أيام بنى مرين حيث استفحل الخلاف الداخلي وانحلت الاوضاع السياسية فتسربت عناصر أجنبية تثير الفتنة وتوقد نار الحرب الداخلية .

على أنه ليس معنى هذا أن المغرب كان عالة على غيره في جميع مجالات حياته الفكرية ذلك أنه أخذ وأعطى بحكم التبادل الثقافى الفردى والاجتماعى الذى ساد العالم العربى بأجمعه لاسيما فى العصور الوسطى . فالمغربى كان يتنقل من وطنه الى البلدان الشرقية بقصد أداء فريضة الحج وبقصد الاتصال بالعلماء والادباء ليأخذ عنهم ويتحقق من رواياتهم ومن سندهم . لكنه كذلك كثيرا ما كان يستقر بهـذه البلدان ويعمل فيها اما كأستاذ واما كقاض أو كامام فى المساجد ، فيطلع أهـل المشرق على نشاط وطنه ويفيد بعلمه وبتدريسه وانتاجه . وكذلك كان الامر بالنسبة للمشرقي وللاندلسى وللجزائرى وللتونسى مما كون شبه وحدة ثقافية بين أجزاء العالم العربى كله رغم انفراد الثقافة المغربية بمميزات خاصـة تجلت فى تشبثها بالخط العربى المشتق من الخط الكوفى القديم وفى ترتيبها الخاص للحروف الهجائية، وفى استعمالها أرقاما لا يستعملها المشارقة وغير ذلك من المميزات التى طبعت شكلها وجوهرها والتى لا يتسع لها المجال هنا لذكرها كلها .

واذا كان بعضهم قد اتهم المجتمع المغربى بالقصور والتقليد الاعمى ، فان الواقع ينفى هذه التهمة ويؤيد أن المغاربة كغيرهم من الشعوب ، كانت لهم شخصية قوية ظهرت آثارها فى ميدان السياسة والاجتماع وكذا فى ميدان الثقافة والادب ، لاسيما الادب الروحى والعلوم الدينية لان التقليد ليس معناه أن يشبه انتاج فرد انتاج فرد آخر فى هذا الميدان أو ذاك . اذ من الممكن نفسيا واجتماعيا أن يتصارع شخصان ويتغالبا فيصلا الى نتيجة واحدة . فمن الغالب اذن من المغلوب ؟ ان التيارات الاجتماعية واسعة النطاق وتجتاح مجتمعات كثيرة فى نفس الوقت . فكيف يدعى شخص الاستاذية المطلقة ؟ يمكنه أن يدعى التفوق فى بعض الميادين وفى بعض الجزئيات لكنه لا يصح له أن يدعى التفوق المطلق . قد يكون المغرب كما رأينا قد تأثر قليلا أو كثيرا فى ميادين خاصة بالتيارات الاجتماعية أو الادبية الاجنبية لكن شخصيته بقيت واضحة المعالم بارزة الاصالة والقوة .

والا فمن ذا الذى يزعم أن بنى مريـن (والشعب من ورائهم) لـم يكونوا شجعانا وذوى سياسة محكمة ؟ من يستطيع الادعاء أنهم تقاعسوا وركنوا الى الراحة والتلذذ بنعيم الحياة ، لقد رأيناهم يواجهون المعارك فى عدة واجهات . حاربوا بكل ما كانوا يملكون من شجاعة مادية ومعنوية فى طليعة الاندلسيين حتى كان لهم الفضل فى ابقاء غرناطة مدة طويلة واستمرارها فى الحياة تحت ظل بنى الاحمر الى أن سقطت نهائيا فى يد الاسبان . نعم ، حاربوا فى الداخل والخارج لاقرار الامن كما قاوموا كثيرا من الفتن فى المغربين الاوسط والادنى من أجل اقرار وحدة مغربية قويـة يستطيع بها المسلمون أن يواجهوا العدو والاجنبى مهما كانت الظروف . واذا كان

النجاح لم يحالفهم فى أهدافهم كلها ، فقد استطاعوا أن يطبعوا المغـرب بطابعهـم الخاص ، الذى ظل أثره قويا فى سائر مرافق الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والعمرانية على الخصوص .

أما الادب بمعناه التقليدى (يعنى الشعر والنثر الفنى) اذا كان لم يبلغ مستوى بيئات أخرى ، اذا كان قد ظل منحصرا فى ميدان ضيق بحكم الظروف التى كانت تحيط به وتقلص من ظله نظرا للنزعة الروحية الطاغية عليه ، ونظرا لخلوه من شعر الطبيعة وأغراض أخرى مختلفة ، فان شخصية الإدباء المغاربة تجلت فى ما خلفوه من آثار علمية ضخمة وادبية وفى ما تركوه من كتب فقه ، وحديث وتفسير . ولغـــة ونحو أدب لاسيما أدب الرحلات التى اشتهر بها المغرب والادب الدينى الذى وقفنا على كثير من مظاهره ألا يمكن أن يعوض هذا الانتاج الضخم ما سبق أن رسمناه من نقص فى ميادين أخرى ؟ ومهما يكن ، فاى بيئة خلت من مواطين الضعف والقوة ؟

وخلاصة القول ان المغرب فى عهد بنى مرين عرف نهضة أدبية من نوع خاص ، اكتست صبغة دينية قبل كل شىء وانطبعت بطابع البرجوازية اذ عاش جل الادباء والعلماء والفقهاء فى ظل الملوك وأنتجوا انتاجا كان فى غالب الاحيان لهؤلاء الملوك بايحاء أو بتشجيع منهم كما عاشت هذه النهضة بين جدران المدن الكبرى وبعض المراكز التى كان لها حظ من الحضارة والعمران .

المـــراجـــع

لم نكتف باثبات المراجع التي اعتمدناها مباشرة ولكن أضفنا اليهــا مصادر أخرى لها صلة بالبحث وذلك لمساعدة من يريد التوسع في الموضوع :

I ـ المراجع العربيـــة :

ابراهيم : عباس ابن المراكشي .
الاعلام من حل مراكش وأغمــات من الاعــلام 5 أجــزاء (فــاس 1356هـ) .

الابـــار : أبو عبد الله محمد ابن
كتاب التكملة لكتاب الصلة (طبعة مدريد 1886) .

الاحمــر : أبو الوليد اسماعيل ابن
1) ـ روضة النسرين في دولة بني مرين . مطبوعــات القصر الملكي (الرباط 1962) .
2) ـ مستودع العلامــة ومستودع العلامة تحقيق محمد التركي التونسي منشورات جامعة الربــاط بــدون تاريخ ـ ومراجعة محمد بن تاويت التطواني .

أجروم : أبو عبد الله ابن
المقدمة شرحها الازهري .

احمد بابا : أبو العباس III التمبكتي .
نيل الابتهاج بتطريز الديباج (مصر : 1951) .

اصيبيعة : ابـــن أبــــي .
عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت : 1376هـ) .

أميــن : أحمــــــد
ظهور الاسلام الجزء الاول (القاهرة 1946) .

أميــن : مصطفــــى
تاريخ التربية (مصر 1926) .

ادهــم : عــــــلي
بين الفلسفة والادب (دار احياء الكتب العربية 1945) .

بطوطـة — أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن
تحفة النظار فى غرائب الامصار عجائب الاسفار (مصر 1924)

بشكـوال — أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن
كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس (مدريد 1882)

البنـــاء — أبو العباس احمد ابن
1) التلخيص (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج 1149)
2) منهاج الطالب فى تعديل الكواكب (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 325) .

بنعبد الله — عبد العزيـز
1) مظاهر الحضارة المغربية جزآن . (الدار البيضاء : دار السلمى الطبعة الاولى 1957 ـ 1958) .
2) الطب والاطباء بالمغرب (المطبعة الاقتصادية)

التطوانـى — محمد بن أبى بكـر
ابن الخطيب من خلال كتبه
(تطوان : مطبعة كريما س 1959)

تاويـت — محمد ابن ـ بالاشتراك مع محمد الصادق عفيفى
الادب المغربى (بيروت 1960) .

الجزنائـى — أبـو الحسن
زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (الجزائر 1340هـ)

جنـــدر — محمد أيـــوب
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط 1345هـ)

حـسن — حسن ابراهيـــم
تاريخ الاسلام أربعة أجزاء (مصر 1958)

الحجـوى — محمد بن الحسن الثعالبى
الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى 4 أجزاء (الرباط 1354هـ) .

حـاجـى — خليفــــة

كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (ط. استنبــول 1360هـ)

الحبــابــى — محمد عزيــــز
مفكرو الاسلام (الرباط 1945)

خلــدون — عبد الرحمان ابن ـ
1) المقدمة (نشر مصطفى محمد بدون تاريخ)
2) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر 7 أجزاء (القاهرة 1284هـ)
3) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، نشر محمد ابن تاويت الطنجى (القاهرة 1951)

الخطيــب — لسان الدين أبو عبد الله محمد ابن
1) الاحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان (مصر بدون تاريخ)
2) كتاب المعيار فى ذكر المعاهد والديار (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : د 1092) .
3) عمل من طب لمن حب (مخطوط خزانة القرويين بفــاس رقم 3658)
4) الاعلام بمن بويع قبل الاحتلام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1552)
5) كتاب الوصول فى حفظ الصحة فى الفصول (مخطــوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 652)

داود — محمـــــــد
تاريخ تطوان . المجلد الاول والثانى والثالث
(تطوان المغرب)مطبوعات معهد مولاى الحسن (بدون تاريخ)

داود — أبو القاسم بن ...... السلوى
نوادر النظام في شرف سيدى الانام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط خ ك 360)

رشيــد — أبو عبد الله محمد بن عمر ابن
رحلة ملء الغيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الوجهتيـــــن الكريمتين الى مكة وطيبة (مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 127)

الرجراجـي	عبد الله بالاشتراك مع س. علوش (باريز 1954)
فهرس المخطوطات

الزيـات	يوسف التادلي ابن
التشوف الى رجال التصوف (نشرة ادولف فور بالربـاط
سنة 1958)

الزبيـر	أبو جعفر احمد ابن
صلة الصلة نشره ليفي بروفنال (الرباط 1938)

الزبيـدى	أبو بكر محمد بن الحسن
طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضـل
ابراهيم (مصر : الطبعة الاولى 1954) .

زيـــدان	عبد الرحمان ابـن
اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (الرباط
1347 ــ 1352هـ)

زهـــرة	محمـد أبـــو
ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه
(دار الفكر العربى بدون معلومات أخرى)

زيـــدان	جـــرجـــي
تاريخ التمدن الاسلامى 7 أجزاء
مراجعة الدكتور حسين مؤنس (مصر بدون تاريخ)

كنـــون	عبـد اللـــه
1) النبوغ المغربى فى الادب العربى 3 أجزاء (بيروت : الطبعة
الثانية 1961)
2) مشاهير رجال المغرب من 1 الى 7 (تطوان : مطبعة كريماس
بدون تاريخ)

الكانونـي	محمد بن حمو العبدى
الطب بالمغرب (مخطوط خاص)

الكتانـي	محمد بن جعفـر
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن أقبـر من العلمـاء
والصلحاء بمدينة فاس (1312هـ)

مـالـك	أبو عبد الله محمد ابن
الالفية . نشرها ابن عقيل ، جزآن (مصر 1961)

مرزوق — ابن ...... الخطيب محمد
المسند الصحيح الحين في مآثر مولانا أبي الحسن (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم III ق)

الموقت — محمد ابن
السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية (طبعة فاس 2336هـ)

المقري — احمد بن محمد
1) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد 10 أجزاء (الطبعة الاولى مصر 1949)
2) ازهار الرياض ، نشر مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة 1939 ـ 1942)

متز — آدم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج : 2
نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو زيدة (القاهرة 1957)

مؤلفون مجهولون :

الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية نشر ابن أبي شنب (الجازئر 1920)
بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب نشره محمد بن تاويت في مجلة تطوان ع : 9 سنة 1964 .

المراكشي — عبد الواحد المراكشي . ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (القاهرة : 1949)

المنوني — محمد
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (تطوان 1950)

المرحل — مالك ابن
الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة .
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 89 ج

الملزوزي — أبو فارس عبد العزيز
نظم السلوك في الانباء والخلفاء والملوك (المطبعة الملكية بالرباط سنة 1963)

الناصري — أبو العباس احمد بن خالد

الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى 9 أجزاء (الدار البيضاء 1956)

النميشى — أحمد

تاريخ الشعراء بفاس (فاس 1343هـ) .

صاحب الصلاة — عبد الملك ابن

تاريخ المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادى التازى (بيروت 1964)

عسكر — محمد بن علي ابن

دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (المطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ)

عذارى — ابن ..... المراكشى

البيان المغرب فى اخبار المغرب نشر الجزء الاول والثانى دوزى (طبعة ليدن 1948 ـ 1851) ونشر الجزء الثالث ليفى بروفانسال (باريز 1930)

عبد الملك — ابن .... المراكشى

الذيل والتكملة (مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 98)

عنان — محمد عبد الله

1) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (مصر القاهرة : الطبعة الثانية 1958)

2) ابن خلدون (القاهرة 1953)

عياض — القاضى

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك الجزء الاول تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (الرباط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1965)

العبدرى — أحمد

1) الرحلة المغربية تحقيق إحمد بن حدو . نشر كلية الآداب الجزائرية بدون تاريخ

2) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1012 و ك 356 .

العبـــادى   أحمـــد مختـــار

مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى بلاد المغرب والاندلس (الاسكندرية 1958)

غـــازى   محمد بن عثمان ابن

1) الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون (المطبعة الملكية بالرباط 1964)

2) بغية الطلاب فى شرح قيمة الحساب

الغــزالى   أبــو حامـــد

أيها الولد نشر الاونسكو (بيروت 1959)

الفـــاسى   محمد المهـــدى

1) تحفة أهل الصديقة بأسانيد الطائفة الجزولية (مخطوط الخزانة العامة بالرباط ط ج 76)

2) ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع وما لهما من الاتباع (المطبعة العجرية بفاس 1313هـ)

القاضــــى   أبو العباس أحمد ابن

1) جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس (المطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ)

2) درة الحجال فى غرة أسماء الرجال . جزآن نشره يس علوش (الرباط سنة 1934) .

سودة   عبد السلام المرى ابن

دليل مؤرخ المغرب الاقصى (تطوان 1950)

السوسى   محمـــد المختـــار

المعسول 20 جزءا (الدار البيضاء 1960)

الشقورى   أبو عبد الله محمـــد

مقاله فى الطب (مخطوط الخزانة العامة بالرباط د 1035) .

وافـــى   علـى عبد الواحـــد

ابن خلدون (مصر بدون تاريخ)

اليفرينـــى   محمد الصغير المراكشى

نزهة الهادى بأخبار القرن الحادى (طبعـة فـاس بـدون تاريخ)

المجـــــلات

1) **دعـوة الحـق :**

مجلة شهرية تصدرها وزارة عموم الاوقاف الرباط .

2) **البحث العلمـي**

مجلة يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط .

3) **اللسان العربـي :**

مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب في العالم العربي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية الرباط .

4) **تطـــــــوان :**

مجلة للابحـاث المغربية الاندلسية يصدرهـا معهد مـولاي الحسن تحت اشراف وزارة التربية الوطنية الرباط .

5) **رسالة المغـرب :**

مجلة شهرية في العلم والادب والاجتماع كانت تصدر قبل أوائل استقلال المغرب . وهي محفوظـة الآن بالخزانـة العامة بالرباط .

6) **آفـــــاق :**

مجلة يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربي بالرباط .

7) **الايمـــــان :**

مجلة شهرية تصدرها جمعية شبـاب النهضة الاسلاميـة (الرباط)

8) **البينـــــــة :**

مجلة كانت تصدرها وزارة الشؤون الاسلامية بالرباط .

9) **جامعة القروييـن :**

كتاب يتضمن أهم الابحاث والمقالات التي كتبت عن جامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الالف (سنة 1960)

لقد رجعنا في بحثنا الى أهم المقالات والابحاث التي رأيناها تتصل بموضوعنا ولقد رأينا أن نخص منها بالذكر ما يلي :

ابن تاويت ، محمد :

1) «من زوايا التاريخ المغربي» مجلة تطوان . العدد التاسع سنة 1964 (ص 31) .

2) «بلغة الامنية ومقصد اللبيب» م.ن صفحة 173 .

الفاسي محمد :

1) الرحالة المغاربة وآثارهم
مجلة دعوة الحق (العدد الثالث الرباط 1958) ص 19 .

2) «الرحالة المغاربة» م.ن (العدد الثاني الرباط 1958) ص 8 .

3) ابن رشيد الفهري ورحلته الى المشرق ، م.ن (عدد 2 الرباط 1959) ص 33 .

المنوني محمد :

«نظم الدولة المرينية» مجلة البحث العلمي العدد 2 و 3 و 4 سنة 1964 و 1965 .

السوسي محمد المختار :

«تأثير العربية في اللهجة الشلحية» مجلة اللسان العربي . العدد الثاني سنة 1965 .

Documents en langue étrangère

Africain, Jean-Leon :

Description de l'Afrique.

edition traduite de l'Italien par A. Epauler, 2 volumes (Paris 1956)

Ayache, Albert :

Le Maroc (Paris 1956)

Alain, E. et Deverdun Gaston :

Les portes anciennes de Marrakech (Hesperis TxLLIV 1957).

Brokelman, Carl :

Geschichte der Arabischen :

Litteraturé 2 vol . (Berlin 1898-1902)

Brunschvig, Robert :

La Berberie Orientale sous les Hafsides : des origines à la fin du xv siècle, 2 tomes (Paris 1940-1947)

Bargès, L'Abbé I.J.L. :

Histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen (Paris 1852)

Bellaire, Michaux

Essai sur l'histoire des confréries marocaines (Hesperie T. 1. année 1921)

Bremond, Edouar (CR)

Berbères et Arabes (Paris 1950)

Bousquet, G - H. :

Les Berbères - Collection que sais-je n. 718 (Paris 1961)

Berque (Jacques) :

L'univers politique des arabes (Paris 1957).

Bousquet, C -H. :

L'Islam maghrébin (4édition Alger 1955)

Benech, J. :

Essai d'exploitation d'un Mellah (sans lieu ni date)

Basset, Henri et Levi-Provencal :

Chella, une nécropole mérinide (Hesperie tome II 1922)

Benabdellah, Abdelaziz. :

L'art Maghrébin Notes et documents.

(sans Indication de lieu, an. 19 ?)

Bel, Alfred :

Inscriptions arabes de Fès, journal asiatique 1917. 198 T. X.

Chouraqui, André :

L'Etat d'Israel (Paris 1955 coll. «que sais-je» No 673)

De Castries, Henry :

Les sources inedites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845 (Paris 1905 et suite)

Demombynes, Gaudefroy, éditeur.

Ibn Fadl Allal al Umari : Masalik al absar fi Mamalik al Amsar (Paris 1927)

les émirs des Hintata Ro.s de Marrakech (Hesperis 1937 TX

Deverdun, Gaston :

Marrakech (Rabat 1959)

Dozy, R. :

1) Supplement aux dictionnaires arabes (Lev de 1881)

2) Recherches sur l'histoire et lalitterature de l'Espagne pendant le moyen âge (Paris 1881)

Gautier, E.F. :

Le passé de l'Afrique du Nord. (Edition Payot Paris sans date)

Goulven, J :

Les Mellah de Rabat et de Salé (Paris 1927)

Gauthier, Leon :

Ibn Thofail, sa vie et ses œuvres (Paris 1909)

Julien, Charles-André :

Histoire de l'Afrique du Nord (Paris 1952)

Lévi-Provençal, 1. :

1) Conférences sur l'Espagne Musulmane traduite en arabe par M.A. Cheira (Le caire 1951)

2) La Peninsule Iberique du Moyen âge d'après de ki tab ar-Rawd al Mi, tar (Leiden 1938)

Une description de Ceuta Musulmane au XVe Siècle (Hespris 1931 tome XII)

4) Un nouveau texte d'Histoire merinide le Musnad d'Ibn Marzûk (Hesperis T.5 1925)

5) L'Espagne Musulmane (Paris 1932)

Leclerc, Lucien :

Histoire de la Medecine arabe. 2tomes (Paris 1876)

Le Tourneau, R. :

Fès avant le protectorat (Casablanca 1949)

Montel, Vincent :

Les arabes. Collection «que saije-je» (Paris 1959)

Malka, Elie. :

1) Essai sur la condition juridique de la femme juive au Maroc (Paris 1952)

2) Essai de Folklore des Mellahs (Rabat 1954)

Massignon, Louis :

Le Maroc dans les premières années du XVI siècles (Alger 1906)

Marçais, G. :

Manuel d'art musulman 2 tomes (Paris 1926)

Reinaud, H.P.J. :

1) Notes critiques d'histoire chez les Musulmans II Ibn al Banna de Marrakech (Hesperis tome XXV an. 1938)

2) Un medecin du royaume de grenade : Nahmad as Saquri (Hesperis tome XXVII 1946)

Un chirurgien musulman du royaume de grenade Mohamed as safra (Hesperis T.XXI 1935)

4) L'enseignement des sciences exactes au Maroc Hesperis T XIV 1932)

5) Trois études de la médecine arabe en occident (Hesperis TX II Fas 2 année 1931)

Sourdel, A. :

L'Islam-collection que «sais-je» (Paris 1949)

Terrasse, Henri :

1) Histoire du Maroc 2 tomes (casablanca 1950)

2) L'art hespano-mauresque des origines au XIII siècle (Paris 1932)

Thomas Bertran :

Les arabes (Paris 1946).

فهــرس الاعــلام

لم نثبت في هذا الفهرس الا الاسماء التي لها أهمية في الصفحات المذكورة أما الاعلام التي تكرر ذكرها فقد تعمدنا اغفالهـا تاركين للقارىء مجال البحث عنها .

فهرس الموضوعات

شخصيات مشتركة

الباب الثالث

الباب الرابع



صدر للمؤلف

- مظاهر الثقافة المغربية دراسة أدبية باللغة العربية نالت جائزة المغرب سنة 1970 (في العصر المريني) .
- البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية ، دراسة حضارية باللغة الفرنسية صدرت سنة 1970 (في العصر المريني) .
- الحياة الفكرية المغربية في عهد الدولة المرينية والوطاسية دكتوراه الدولة صدرت باللغة الفرنسية ـ 1974 .
- معجم التربية والتعليم باللغة الفرنسية والعربية ـ 1981 .
- التربية والتعليم في المغرب ، دراسة وتعريب ـ 1982 .
- الثقافة الشعبية المغربية ، باللغة الفرنسية ـ 1980 (انطلاقا من العصر المريني) .
- كتاب الامتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع لابن الدراج السبتي دراسة وتحقيق ـ 1982 (العصر المريني) .
- كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان لابن رزين التجيبي دراسة وتحقيق ـ 1982 (انطلاقا من العصر المريني) .
- فيض العباب وافاضة قداح الآداب أو رحلة أبي عنان المريني لابن الحاج النميري دراسة وتحقيق ـ 1984 (العصر المريني) .
- التعليم والتربية في القرآن الكريم بالعربية والفرنسية (تحت الطبع) .

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

نقلا عن مطبعة الرسالة الرباط

الايداع القانوني رقم 1985/766